

طائر منصوروف

السفير



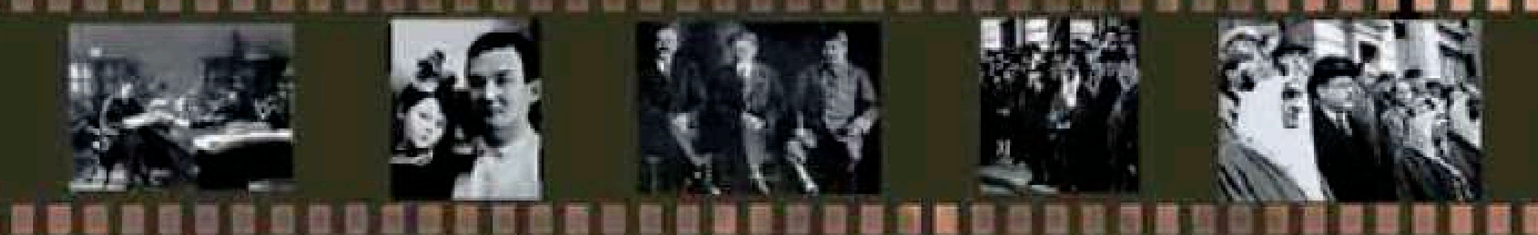
نذير تيورياقولوف

الدبلوماسي والسياسي والمواطن

نقله عن الروسية

عامر محمد عامر

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya







WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net



طاهر منصوروف

السفير

نذير تيورياقولوف

الدبلوماسي والسياسي والمواطن

نقله عن الروسية

عامر محمد عامر

الأستاذ المساعد بكلية الألسن

جامعة عين شمس (القاهرة)



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

منصوروف طاهر

السفير نذير توريافولوف الدبلوماسي والسياسي والمواطن./

طاهر منصوروف: عامر محمد عامر .- الرياض. ١٤٢٧هـ

٣٤٨ص : ١٦.٥×٢٤سم

ردمك: ٦-٦٢-٠٦٢-٥٤-٩٩٦٠

١- التراجم الذاتية أ. عامر. محمد عامر (مترجم) ب-العنوان

ديوي ٩٢٠ ٣٩٥١/ ١٤٢٧

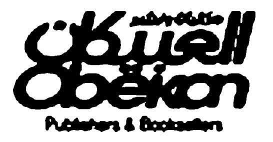
ردمك: ٦-٦٢-٠٦٢-٥٤-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٩٥١/ ١٤٢٧

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر



الرياض العليا طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



قام نذير تيورياقولوف مندوب (سفير) الاتحاد السوفيتي المفوض لدى المملكة العربية السعودية (في الفترة من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٦م) بنشاط دبلوماسي متعدد الجوانب، إلا ان هذا النشاط ظل أعواما طويلة غير معروف بما فيه الكفاية لدى الطبقات العريضة من المجتمع. وقد جمع نذير تيورياقولوف بين مواهب رجل الدولة والكاتب الصحفي والدبلوماسي، ووهب حياته كلها لخدمة شعبه.

وفي هذا الكتاب يتناول دكتور العلوم السياسية طاهر منصوروف الحقبة الدبلوماسية من حياة نذير تيورياقولوف، كما يستعين بعدد هائل من الوثائق التاريخية لكشف النقاب عن الكثير من الوقائع المهمة في نضال الاتحاد السوفيتي من أجل تعزيز تواجده في شبه الجزيرة العربية والدور الناصع الذي قام به المندوب المفوض في هذا المسار.

وقد عكف المؤلف سنوات طويلة على دراسة نشاط نذير تيورياقولوف دراسة مفصلة مستعينا في ذلك بوثائق أرشيف السياسة الخارجية في روسيا الاتحادية وغيره من الأرشيفات المركزية في موسكو. ونأمل أن يقدم هذا الكتاب الفائدة لكل من يهتم بالتاريخ الوطني وتاريخ الدبلوماسية خاصة.

إننا أمام نموذج تاريخي عظيم من نماذج خدمة المصالح القومية على يد فريق كامل من الشخصيات التاريخية البارزة ورجال الدولة بالمعنى الحقيقي للكلمة ممن صاغوا أهداف تنمية بناء الدولة الكازاخية في مطلع القرن العشرين، فلا يجب أن نحكم على التاريخ بالمنجزات فحسب، بل في عصرنا هذا لا يجب أن نحكم عليه بالمنجزات بقدر حكمنا عليه بتجليات الروح الوطنية.

نور سلطان نازاربايف

((في مجرى التاريخ))

إلى القارئ

قد تعرفت بفضل عملي على حياة المواطن الكازاخي نذير تيورياقولوف الذي قام بمهام الوكيل المفوض للاتحاد السوفياتي في المملكة العربية السعودية على أحسن وجه حيث تقع المشاعر المقدسة لكل مسلم في العالم. من المعروف أنه أعاد للاتحاد السوفياتي -بعد توقف دام عدة عقود- في العام ١٩٩٠م علاقاته الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية التي أصبحت إلى ذلك الوقت عضواً فاعلاً رئيساً في أسواق النفط العالمية ورائداً للدول العربية. وتشرفت بعملي في السفارة التي افتتحت في العام نفسه. كان موضع فخري واعتزازي أن ابن بلدنا نذير تيورياقولوف كان في مطلع العلاقات الثنائية مع المملكة وفي أعز سنوات تطوير العلاقات.

والآن فإني بصفتي سفيراً لجمهورية كازاخستان المستقلة على يقين أنه كانت أفكار نذير تيورياقولوف عميقة وتطلعاته بعيدة المدى في وضع العلاقات مع الدولة السعودية في الثلاثينيات للقرن الماضي. ونذير تيورياقولوف بجذوره الإسلامية الشرقية القوية استطاع أن يقوم بعلاقات وطيدة مع أفراد العائلة الحاكمة والشخصيات السياسية الاقتصادية البارزة والسلك الدبلوماسي أنذاك.

ونذير تيورياقولوف من أبرز كوكبة المستنيرين الكازاخ الذين ظهروا في مطلع القرن الماضي وأدوا دوراً بارزاً في صحوة ووعي الشعب الكازاخي، تعلم نذير تيورياقولوف اللغة العربية والتقاليد والعادات المحلية بسرعة فائقة وتحول إلى دبلوماسي ماهر نجح في تطوير العلاقات الثنائية وحماية مصالح بلده.

قام السفير طاهر منصوروف مؤلف هذا الكتاب بعمل جبار في توصيل معلومات عن حياة وعمل نذير تيورياقولوف إلى القارئ في جمهورية كازاخستان. وإني لمسرور جدًا أن أحظى بشرف التقديم لهذا الكتاب باللغة العربية، على أنني أعتقد أن إصدار كتاب عن الشخص البارز الذي عاصر مؤسس الدولة السعودية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -رحمه الله- يشير إلى وجود كل إمكانات ومقومات العلاقات الثنائية السياسية والاقتصادية الجيدة بين جمهورية كازاخستان والمملكة العربية السعودية.

أسكار موسينوف

السفير فوق العادة والمفوض

لجمهورية كازاخستان

في المملكة العربية السعودية

تقديم

إن السياسة الخارجية لأي دولة في العالم تزداد فعاليتها إذا اعتمدت على تجربة الماضي واستخدمت المناهج والطرق التي وضعتها المدرسة الدبلوماسية لهذه الدولة على مدار أجيال مديدة، ولعل من غير الصحيح تماما في هذا الصدد أن تصبح الأحداث العظام التي شهدها الماضي غير البعيد في طي النسيان، مثلما حدث على سبيل المثال بصدد تاريخ المراحل الأولى من ظهور العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية، فكما هو معلوم استؤنفت هذه العلاقات بصورة كاملة في عام ١٩٩٠م بعد عقود طويلة من «التجميد»، ومع ذلك فقد شهدت هذه العلاقات على مدار ما يقرب من عشرة أعوام في (العشرينيات والثلاثينيات) من القرن العشرين نهضة عظمى وكانت بمثابة علاقة شراكة بمعنى الكلمة.

والنهج السياسي تجاه هذه الدولة أو تلك إنما يتوقف بصورة كبيرة على الشخص الذي ينتهج هذا النهج وكيفية أدائه له داخل تلك الدولة نفسها، وفي هذا الشأن يعد الدور البارز الذي قام به نذير تيورياقولوف، مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض لدى المملكة العربية السعودية، ذا أهمية لا تقبل الشك، ولابد هنا أن نعترف أيضا بفضل السياسة التي كانت تنتهجها القيادة السوفيتية آنذاك في توزيع المناصب حيث اختارت هذه القيادة عن وعي وإدراك رجلا ضليعا في كافة الأمور الدينية الدقيقة من ناحية ورجل دولة علمانيا مثقفا ومخلصا لمبادئ الثورة من ناحية أخرى ليمثلها على أرض الإسلام. وكان هذا الاختيار في محله تماما، فقد قام نذير تيورياقولوف بتمثيل بلاده في المملكة العربية السعودية خير تمثيل على مدار ثمانية أعوام كاملة (١٩٢٨ - ١٩٣٦م) وهي مدة قياسية بمعايير تلك الفترة.

وفي كتابه هذا يقدم دكتور العلوم السياسية طاهر منصوروف للقارئ القصة المفصلة لهذا الرجل الذي يعد أول مندوب سوفيتي وهو من أصل كازاخي، كما يتضمن الكتاب عرضا مفصلا لنشأة العلاقات السوفيتية

السعودية وتطورها في تلك الفترة البعيدة. حيث يكشف المؤلف - مستندا في ذلك إلى وثائق أرشيفية - النقاب عن حقائق لم تكن معلومة بدرجة كبيرة حول نضال الاتحاد السوفيتي من أجل النفوذ في شبه الجزيرة العربية، والإسهامات المباشرة التي أسهم بها هذا المندوب الواعي والنشط في هذا النضال.

لقد كان تيورياقولوف يتمتع بقدرة عظيمة على العمل والجراة في التفكير والقدرة على إيجاد لغة مشتركة ليس مع رجال المملكة العربية السعودية فحسب وإنما أيضا مع «أصحاب التيار العدائي» من الدبلوماسيين الإنجليز وغيرهم من دول أوروبا الغربية، حيث تمكن من إقامة علاقات ودية حميمة مع الملك وأبنائه، أما استعداد تيورياقولوف للانشغال بأصعب القضايا واتباعه نهج الدولة الحقيقي في حل المشاكل إنما يعطي كل الحق في أن نصفه بأنه أحد الدبلوماسيين السوفيت البارزين «من الرعيل الأول»..

والفضل الرئيس يرجع إلى مؤلف هذا الكتاب الذي أعاد إلى أذهاننا شخصية تيورياقولوف، ليس هذا فحسب وإنما أحيا لنا مرحلة كاملة من تاريخ الدبلوماسية السوفيتية في الشرق الأوسط، وفي هذا الصدد أود أن أشير إلى أن طاهر منصوروف قد استطاع الربط بين نشاطه المثمر كسفير لكازاخستان في موسكو والعمل العلمي، وخير دليل على ذلك هو هذا العمل الذي يتناول واحدة من ألمع صفحات الدبلوماسية السوفيتية في شبه الجزيرة العربية في المرحلة المبكرة.

الأكاديمي

يفغيني بريماكوف

Е. Примаков

مقدمة المؤلف

لقد دخلنا الألفية الجديدة ولكن جذور حاضرنا ومستقبلنا لا تزال في القرن العشرين.

وتاريخ بلادنا في الحقبة السوفيتية بكل ما به من صفحات سواء مضيئة أو مأساوية تتعرض اليوم لإعادة التفكير، وسيضع الزمن إن عاجلا أو آجلا النقط على الحروف ولكن واجبنا اليوم هو أن نحيي في عيون الأسلاف الذكرى الطيبة للأبطال الحقيقيين الذين تفانوا في خدمة الوطن في أصعب وأحرج بقاع الكفاح من أجل مصالح دولتهم.

ونذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض لدى المملكة العربية السعودية (في الفترة من ١٩٢٨م إلى ١٩٣٦م) والبطل الرئيس لهذا الكتاب يمكن إدراجه عن حق ضمن صانعي التاريخ السوفيتي أو فلنقل -على الأقل- تاريخ الدبلوماسية السوفيتية. وقد ساعدني الحظ أن أطلع على المصادر والمواد الأرشيفية التي تصور حياة هذا الرجل البارز من أبناء الشعب الكازاخي سواء بصفته رجل دولة أو دبلوماسياً أو مواطناً عادياً، وبالفعل في بعض الأحيان تكون المواد الأرشيفية هي السبيل الوحيد لتكوين تصور حقيقي عن شخصية فذة والمراحل الرئيسة لنشاطها المهني.

وفي مرحلة من المراحل تمكنت من نشر مواد من أرشيف السياسة الخارجية لروسيا الاتحادية وغيره من الأرشيفات المركزية الروسية في كتابين هما «نذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض في المملكة العربية

السعودية» و«ملحمة السفير نذير تيورياقولوف في الجزيرة العربية». وقد وُضِع هذان الكتابان ليستفيد منهما في المقام الأول الدبلوماسيون المحترفون وطبقة العلماء والمتخصصين. واستنتجت من هذا أن العملين لم يتطرقا إلى قطاع كبير من الحياة اليومية لتيورياقولوف وتطلعاته وهمومه، وانتصاراته الكثيرة وانكساراته القليلة. وظهرت لدي رغبة في أن أقدم للقارئ شيئا بمنزلة قصة وثائقية تحتوي على ما كان يختبئ حتى يومنا هذا خلف السطور الجافة للتقارير والمذكرات التي كان يبعث بها المندوب المفوض تيورياقولوف إلى السلطة المركزية وما كان يستتر وراء العبارات البروتوكولية التي كانت تحتوي عليها الخطب والرسائل الرسمية للعاهل السعودي، ووراء الوثائق المحكمة لعمليات القمع والاضطهاد التي شهدتها الثلاثينيات، ومنها وثائق اللجنة الشعبية للشؤون الداخلية وبروتوكولات اعتقاله وشهادات إعدامه رميا بالرصاص ورد الاعتبار له فيما بعد.

وقد أعددت هذا الكتاب مع تقدير كبير للموروث الدبلوماسي لنذير تيورياقولوف. وبحكم عملي سفيرا لكازاخستان في روسيا على مدار الأعوام الثمانية الماضية أدرك جيدا كافة جوانب هذه المهنة الفريدة التي تجمعني أنا وتيورياقولوف. ويحدوني الأمل أن يظل النشاط البارز الذي قام به المندوب المفوض السوفيتي في المملكة العربية السعودية مثالا تحتذي به الأجيال الجديدة من الدبلوماسيين لسنوات طويلة وأن تحوز حياته اللامعة على الرغم من قصرها على اهتمام عدد كبير من القراء بما تحتويه من أحداث تعكس صورة النصف الأول من القرن العشرين.

الفصل الأول

الخطوات الأولى على أرض الجزيرة العربية

إن اصعب شيء في كل شيء تقريباهو البداية
جان جاك روسو

ظلت منطقة الشرقين الأدنى والأوسط على مدار عقود على مشارف القرنين التاسع عشر والعشرين تمثل مسرحا للصراع الدولي، والنضال من أجل التحرر، والمواجهة الدينية والسياسية. ولم يتمكن المشاركون في هذه الأحداث من أصحاب المنطقة والوافدين عليها من أوروبا وما وراء المحيطات التوصل إلى شيء من الاتفاق إلا بحلول عام ١٩٢٧م، حيث نشأ توازن هش مؤقت بين القوى الوطنية في المنطقة والغرب، إذ وافقت كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا على منح استقلال شكلي لبلاد فارس وأفغانستان ومنح حكم ذاتي للدول العربية التي نشأت بعد تفكك الإمبراطورية العثمانية، ولكنها اشترطت لنفسها ضمانات للدفاع عن المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية الغربية، بينما اكتفت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بتوفير ضمانات الأمن لمواطنيها ومؤسساتها، كما اكتفت بتنازل الأوروبيين عن ٢٣.٧٥٪ من أسهم شركة «عراق بتروليوم كومباني» لصالح شركائهم الأمريكيين، كما تم التوصل إلى حلول مبدئية بشأن استخراج البترول سواء في الكويت أو غيرها من البلاد النفطية الأخرى، حتى أن الأمريكيين قد

تمكنوا في شبه الجزيرة العربية من التغلب على منافسيهم البريطانيين والحصول على امتيازات احتكارية ظهرت أهم تبعاتها السياسية والاقتصادية بصورة جلية بعد الحرب العالمية الثانية.

وبفضل الهدوء النسبي الذي بدأ في منطقة الشرقين الأدنى والأوسط في عام ١٩٢٧م وامتد حتى عام ١٩٣٥م لم تعد هذه المنطقة في ذلك الوقت مصدرا من المصادر الرئيسة للتوتر الدولي، اللهم إلا فلسطين التي أدى فيها الصراع بين الحركة اليهودية والحركة الوطنية العربية من أصحاب البلاد إلى اندلاع موجة من العنف في عام ١٩٢٩م. وظل الوضع هناك يموج بالتوتر. إلا أن هذه المنطقة بالذات قد شهدت تصادما بين المصالح السياسية والاقتصادية، ليس لدى الدول الغربية المشاركة في الأحداث الدائرة هناك فحسب وإنما أيضا لدى الدولة السوفيتية حديثة النشأة. ولم يهدأ الصراع وما كان إلا أن انتقل من رحاب الصحراء العربية المترامية إلى ساحات القصور المرمرية الفخمة، حيث حل الموظفون المدنيون من التجار والدبلوماسيين ورجال المخابرات محل العسكريين... ولم تكن الظروف المستجدة تتطلب مجرد معارف ومهارات جديدة فحسب وإنما تتطلب أيضا كوادر جديدة. وفي هذه الفترة تحديدا بدأ ابن الشعب الكازاخي نذير تيورياقولوف عمله مندوباً مفوضاً للاتحاد السوفيتي لدى مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، كما كان يطلق من قبل على المملكة العربية السعودية. وكان نذير تيورياقولوف قبل عمله دبلوماسياً قد تلقى تعليما متعدد الجوانب، كما قطع شوطا طويلا في العمل السياسي والصحفي، وشغل مناصب قيادية في أجهزة السلطة السوفيتية. وقد ولد

تيورياقولوف عام ١٨٩٢ في أسرة ميسورة الحال، حيث كان والده يعمل تاجرا للأقطان في قاراغندا، وفي طفولته تلقى نذير -طبقا لما رواه هو عن نفسه- تربية دينية «خالصة» على يد والدته. وكما يتضح من سيرته الذاتية التي كتبها بخط يده فإن أمه هي التي أصرت على إلحاقه بمدرسة «الولي بهاء الدين الشهير في العالم الإسلامي» وهي مدرسة دينية، بيد أن الأم كانت ترحب أيضا بدراسة ابنها في مدرسة «مكتب جديد» الحديثة التي كانت علمانية من حيث الصفة ولكن دينية من حيث طابع التدريس.

أما والد نذير فقد كان في الأصل من جنوب كازاخستان، وسعيا وراء الربح من التجارة انتقل إلى سمرقند ثم بعدها إلى قوقند حيث كان يمتلك منزلين يتكون كل منهما من طابق واحد، وكانت العمولات التي يحصل عليها في موسم القطن مصدرا من مصادر دخله، ولكنه في الأساس كان يمارس عملا فريدا من نوعه في مجال المحاماة، فقد كان يقدم خدمات وكيل «دعاوى» لأهل المنطقة حيث كان يقوم بتحرير الدعاوى إلى المحاكم وكتابة الشكاوي والالتماسات للأجهزة المحلية والعامة الأخرى[1].

وبخلاف الأم المتدينة للغاية كان الأب يميل أكثر إلى الثقافة الدنيوية، حيث كان يقرأ الصحف باللغة الروسية ويحلم أن يكون ابنه واسع التثقف وأن يسير على نهجه ويعمل بالتجارة، لذلك التحق الطفل فيما بعد بما يسمى بالمدرسة الروسية المحلية، وفور تخرجه فيها في عام ١٩٠٥م تم قبوله في مدرسة قوقند التجارية التي أسستها طبقة التجار الروس والشركات التجارية

(١) هي وظيفة تشبه وظيفة (العرضحالجي) (المترجم).

والصناعية، وفي تلك السنوات كانت رياح الثورة الروسية الأولى قد وصلت إلى تركستان وأدت إلى ظهور عدد من التكتلات والجماعات هناك بين الدارسين ورجال الأعمال الذين أطلق عليهم نذير تيورياقولوف نفسه «البرجوازية الإسلامية الليبرالية». وكانت هذه الفرق قد نشأت في البداية لنشر المعارف الدينية، ثم أضيف إلى ذلك فيما بعد دراسة تاريخ الثورة الفرنسية والحركة الثورية الروسية، وأصبح الشاب نذير تيورياقولوف عضوا نشطا في إحدى هذه الجماعات تحت قيادة مولدافسكي عضو حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي.

وقد وجدت الأفكار الثورية الجديدة صدى في نفس تيورياقولوف رغم «النزعة السلافية» التي كانت لا تعجبه من قبل قائد الجماعة، إلا أن تيورياقولوف قد كتب في سيرته الذاتية يقول: إنه قد ضاق ذرعا أيضا بنزعة الوحدة التركمانية والنعرة القومية التي تنامت بشكل كبير لدى السكان المحليين في مدن تركستان في ذلك الوقت، تلك النعرة التي كانت تتسم "بضيق الأفق والمحدودية والحماقة". ومن الواضح أن هذه الفترة بالذات هي التي وضعت اللبنة الأولى لآراء تيورياقولوف السياسي والصحفي والدبلوماسي، تلك الآراء التي كان يطلق عليها هو نفسه اسم «العقيدة الشعبية». وفي هذا المكان تشكلت دائرة زملاء المستقبل لديه الذين شغل العديد منهم -فيما بعد- مناصب قيادية في الأجهزة الحزبية والسوفيتية في تركستان.

وبعد أن أنهى تيورياقولوف دراسته بمدرسة التجارة في عام ١٩١٢م التحق بمعهد التجارة بموسكو، الذي أتاح للشاب الطموح فرصا جديدة ليس

في مجال دراسة الاقتصاد فحسب وإنما أيضا لينكب على دراسة اللغات الأجنبية التي بدأ اهتمامه بها وقدراته عليها منذ الطفولة، وكان تيورياقولوف يتقن الروسية كما كان على دراية بالتركية ويتحدث الفرنسية والألمانية، ومع ذلك كان متواضعا للغاية في تقييمه لقدراته في هذا المجال، ففي استمارة سيرته الذاتية كان يكتب أن درجة إتقانه للغات الأجنبية متوسطة. ولم يأل جهدا في تحسين مستواه في المهارات اللغوية طيلة حياته، علاوة على ذلك كان يتمتع بحس لغوي عال، كما كان يقوم بعمليات الترجمة والمراجعة.

وشاءت الظروف ألا يتمكن تيورياقولوف من إنهاء دراسته الجامعية، ففي عام ١٩١٦م أصدرت الحكومة الروسية مرسوما بتعبئة الذكور من أهل تركستان للخدمة في الخطوط الخلفية للجيش، وسعيا وراء مساعدة أبناء منطقته ترك نذير تيورياقولوف دراسته بعد السنة الثالثة بالمعهد ليلتحق بالاتحاد الروسي الريفي العام للعمل كمرشد للتعامل مع أبناء تركستان الذين تم تعبئتهم. وفي هذه الفترة بدأ كذلك عمله السياسي النشط، حيث أسس في مدينة مينسك منظمة سرية هي جمعية «إركين دالا» (السهول الحرة) التي كانت تضم المدرسين والطلاب من ذوي النزعات الثورية، وكانت ترمي إلى المساعدة في النضال القومي التحرري لشعوب تركستان. بيد أن ثورة فبراير لم تسمح للجمعية بالعمل بكامل طاقتها، كما أن هذه الثورة نفسها هي التي زجت بنذير تيورياقولوف إلى صفوف حزب الاشتراكيين الثوريين اليساري في عام ١٩١٧م، ولكن في أكتوبر عام ١٩١٨م انضم تيورياقولوف إلى البلشفيين، ثم تطوع في العام نفسه في الجيش الأحمر، وكان عضوا في مجلس الثورة

العسكري لجبهة تركستان وسكرتيرا للجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي بتركستان وعضوا بمكتب آسيا الوسطي لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي.

غير أن ذروة العمل السياسي لتيورياقولوف كانت في عامي ١٩٢١-١٩٢٢م عندما أصبح رئيسا للجنة المركزية التنفيذية لتركستان، ورغم أن هذا الكتاب لا يتناول عمل تيورياقولوف في هذا المنصب إلا أن الأمر يتطلب إلقاء الضوء على بعض الجوانب في هذا الشأن لأنها تفسر لنا أكثر من أي شيء آخر سر نجاح هذا الرجل وفاعلية عمله الدبلوماسي في الشرق الأوسط مستقبلا. فالمراسيم والقرارات التي تحمل توقيعه في هذا المنصب إنما تعكس معرفته العميقة والمذهلة لخصائص الشعوب التي تقطن تركستان وعاداتها، كما تعكس رغبته الصادقة في أن تؤخذ هذه الخصائص والعادات في الحسبان عند تحديث هذا المجتمع، ويكفي هنا أن نذكر المرسوم الصادر بتاريخ ٧ فبراير ١٩٢١م الذي يقضي بأنه "سعيا وراء تحسين الخدمات المقدمة من قبل المؤسسات السوفيتية للطبقات العريضة من أهالي جمهورية تركستان" قررت اللجنة التنفيذية المركزية نقل العطلة الأسبوعية بالمؤسسات السوفيتية إلى يوم الجمعة، أما في المؤسسات التي يعمل بها مزيج من القوميات فيتم تحديد يوم العطلة طبقا لقرار الأغلبية. وهذا ربما يبدو شيئا تافها ولكن مثل هذه التفاهات تتشكل منها هيبة القائد واحترام الشعب له وثقته فيه، وبالفعل فبفضل الاهتمام بمثل هذه «التفاهات» استطاع نذير تيورياقولوف خلال بضع سنوات تحقيق نجاح ملحوظ في العمل الدبلوماسي.

وفي عـام ١٩٢٣م تم نـقله إلى مـوسكو للعـمل رئيسـاً لمجلس الإدارة بدار النشر المركزية التابعة للجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي، وفي الوقت نفسه كان يقوم بالعمل بالتدريس كنائب لمدير معهد شعوب الشرق الأوسط. ومن الجدير ذكره أنه في ذلك الوقت قد بدأت قيادة الحزب البحث جديا في مسألة جدوى استخدام معارف تيورياقولوف وخبرته في ميدان الدبلوماسية.

وبعد نقله إلى موسكو دخل نذير تيورياقولوف ضمن صفوف الاحتياط في اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، ولذلك عندما قام كريم حكيموف، الذي كان يسبقه في منصب المندوب المفوض في الدولة السعودية بأخذ إجازة «لأسباب مرضية»، وتقدم في الوقت نفسه بطلب لإعفائه من منصبه والسماح له بالعودة إلى الاتحاد السوفيتي، كان البديل جاهزا فلم يكن هناك أي اعتراضات سواء في اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي أو اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي على مسألة تعيين تيورياقولوف بديلا لحكيموف بحكم درايته الجيدة بالعالم الإسلامي واستعداده لهذا العمل من وجهة نظر اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية.

كان موضوع تعيين تيورياقولوف في هذا المنصب يناقش على أعلى مستوى، فقد توجه كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية بمذكرة إلى يوسف ستالين السكرتير العام للجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، جاء فيها أن اللجنة المنبثقة عن اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية "قد رشحت الرفيق نذير تيورياقولوف لتمثيل بلاده في الحجاز وذلك باعتباره واحدا ممن هم على دراية كبيرة بالعالم الإسلامي ونمط

تفكيره. وقادر تماما على انتهاج السياسة الصعبة والدقيقة المطلوبة في ممثلينا في الحجاز". ومن الواضح أن مفاوضات مبدئية كانت قد جرت مع تيورياقولوف، لأن كاراخان يحيط ستالين علما أن "الرفيق نذير تيورياقولوف نفسه قد أعرب أكثر من مرة عن رغبته في قبول هذا المنصب الذي يتيح له مراقبة كافة أرجاء العالم الإسلامي، من مراكش حتى إندونيسيا".

ومن المعروف أن إدارة التوزيع باللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي كانت تنظر في الوقت ذاته في ترشيح شخص آخر لهذا المنصب، وهو عمر علييف الذي كان يعمل في ذلك الوقت في شمال القوقاز. ولكن قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية ارتأت أن علييف "رغم مؤهلاته -فهو على دراية جيدة باللغة العربية- فقد لا يستطيع الاضطلاع بهذا العمل، الذي يتطلب معرفة مسبقة ومتعمقة بقضايا العلاقات بين الدول الإسلامية، كما يتطلب معرفة بسياسة الإنجليز في دول الشرق". وشدد كاراخان نائب رئيس اللجنة على أن أي إخفاق أو فشل من أي نوع في الحجاز من شأنه أن ينعكس سلبا على سياسة الدولة السوفيتية في الشرق برمتها. وربما هذا هو ما دعا اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية أن توصي، بل وتصر على ترشيح نذير تيورياقولوف بالذات لهذه المهمة، استنادا إلى عمق خبرته وتأهله الشامل على حد رأي اللجنة التي اقترحت في الوقت نفسه الاستفادة من علييف في المسار نفسه للعمل بالحجاز ولكن بعد إيفاده للتدرب مستشاراً للبعثة الدبلوماسية هناك.

أيضا مما يؤكد على تقدير الدولة لمكانة نذير تيورياقولوف المهنية هو

مـافعلتـه إدارات شـؤون العـاملين والأجـهـزة الرقـابيـة بشـأن انتـهـاكاته لنظام الحزب، حيث تعاملت هذه الأجهزة مع الأمر باستخفاف وعدم اكتراث، وهذا شيء يثير الدهشة طبقا لمعايير ذلك الزمان، والقصة أنه في عام ١٩٢٧م وجهت لجنة الترويكا الحزبية المنبثقة عن اللجنة الرقابية المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي توبيخا إلى تيورياقولوف على «إهماله في توفيق أوضاعه الحزبية»، وذلك أنه بعد "استدعائه من تركستان في أكتوبر ١٩٢٧م للعمل باللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي... لم يحصل المذكور على بطاقة الحزب ولم يسدد اشتراك العضوية منذ عام ١٩٢٢م وحتى حينه، وانتهى الأمر بالاقتراح على تيورياقولوف بأن يقوم بسداد المديونية المستحقة عن السنوات الخمس. وبدأت الملحمة الدبلوماسية لتيورياقولوف...

تم تعيين نذير تيورياقولوف مندوبا مفوضا في جدة بموجب قرار هيئة الرئاسة باللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي في الخامس عشر من ديسمبر ١٩٢٧م، رغم أنه لم يتوجه إلى مكان عمله إلا بعد ثمانية أشهر، وقد امتنعت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية عن إعلان الخبر رسميا في الصحافة، استنادا إلى أنه مضى وقت طويل على توقيع قرار التعيين، ومهما كان الأمر فإنه بعد وصول موافقة الحكومة السعودية على قبول تعيين تيورياقولوف طلبت إدارة الشرق الأوسط من إدارة الشؤون باللجنة الشعبية إصدار أوامر عاجلة بسرعة إنهاء إجراءات السفر للرفيق تيورياقولوف، ودرجة الرفيق تيورياقولوف المذكورة بجواز السفر الدبلوماسي الخاص به هي «وكيل دبلوماسي وقنصل عام للاتحاد السوفيتي في مملكة الحجاز ونجد

وملحقاتها»، وفور إنهاء إجراءات السفر للرفيق تيورياقولوف أرجو التكرم بسرعة إبلاغنا بذلك حتى يتسنى لنا إعداد أوراق الاعتماد الخاصة به".

ولم ينته الأمر بالروتين البيروقراطي الذي لا مفر منه، والإجراءات التقليدية التي لابد منها لإعداد أوراق الاعتماد إلى غير ذلك، فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها تعيين تيورياقولوف للعمل في السلك الدبلوماسي ولم يكن لديه ما يلزم لهذا العمل من عتاد وقبل كل شيء الملابس الرسمية، وتم على الفور إرسال مذكرة إلى إدارة الشؤون باللجنة الشعبية لطلب "إصدار الأوامر لتفصيل ملابس رسمية مناسبة للرفيق تيورياقولوف وذلك على حساب اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية". نعم كان هذا يحدث في ذلك الزمان الذي يذكرنا به شيء طريف، وهو أن هناك صورة قديمة التقطت عام ١٩٢٤م لمبنى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية بشارع كوزنيتسكي موست، تظهر فيها لوحة على واجهة المبنى مكتوب عليها «ي. ك. جوركيفيتش» وهو اسم الترزي الشهير الذي كان يختص بتفصيل الملابس الرسمية وقد اختفت زبائنه بعد قيام الثورة، ولكن موجة الاعتراف الدولي بالاتحاد السوفيتي واتساع شبكة البعثات السوفيتية بالخارج أحيت من جديد نشاط هذا الترزي، حتى أنه ذكر في رواية «العجل الذهبي» الشهيرة التي كتبها إيلف وبيتروف حيث جاء في الرواية "كان هتاف الشجعان يخيم على المدينة، وفي المبنى واسع الأركان، حيث ديوان اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، كان يجلس الترزي جوركيفيتش ليل نهار يحيك الحلل الرسمية لرجال الدبلوماسية السوفيت الذين يستعدون لمغادرة البلاد للعمل في الخارج".

وأخيرا وفي يوم السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٢٨م، "وبعد عناء الانتظار في أوديسا قرابة الأسبوعين"، توجه المندوب المفوض السوفيتي الجديد لدى مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها ترافقه زوجته من أوديسا في طريقه إلى اسطنبول على متن الباخرة «لينين»، كان يتحرق شوقا لبدء العمل، وقبل أن تطأ قدمه أراضي شبه الجزيرة العربية انغمس في شؤون البعثة حيث بعث وهو في طريقه إلى عمله أول مذكرة رسمية له إلى قيادة اللجنة الشعبية للشئون الخارجية يقول فيها: "غدا سأرحل برفقة «لينين»، ومازال خط السير الذي تم تحديده في موسكو ساريا دون تغيير، ولن أمر على أنفورا إلا في حالة الضرورة، وإذا التقيت بالرفيق سوريتس في القسطنطينية (الأستانة - المترجم) فسأنقل له كافة رغبات وتعليمات الإدارة، وسأحاول أن أضع معه طرقا محددة لاتصالاتنا مع أنفورا. وانتهز هذه الفرصة لأذكركم بالرفيق حاج جمعة باي باربيبايف الذي كنت أنوي أخذه معي، أرجو التكرم بالتعجيل بهذه المسألة، فهذا أمر ضروري لاسيما أن عدد الموظفين بالقنصلية العامة في جدة لا يزال قليلا، وقد تم تنسيق المسألة مع الرفيق لودوشفييت الذي بإمكانه أن يتغلب باجتهاده وقوة منطقه على بطء إدارة التوزيع لدينا ويفضل لو تمكن الرفيق باربيبايف من اللحاق بي في القسطنطينية".

وفي نابولي استقل تيورياقولوف الباخرة «فرانشيسكو كريسبي» وفي التاسع والعشرين من سبتمبر وصل بسلامة الله إلى جدة، حيث قوبل في الأراضي العربية بود كبير، وفي الثالث من أكتوبر سلم أوراق اعتماده في مكة إلى الأمير فيصل نجل العاهل السعودي عبد العزيز آل سعود، أما الملك نفسه

فقد أطرى إطراء جما على تعيين تيورياقولوف في رسالة بعث بها إلى ميخائيل كالينين، جاء فيها "لقد كان من دواعي سرورنا أن نتلقى كتابكم المؤرخ في ٩ يوليو ١٩٢٨م الذي تخبرونا فيه عن رغبة حكومتكم الفخيمة في تمتين العلاقات الودية التي لا تزال قائمة بين بلدينا اقتضت تعيين سعادة نذير تيورياقولوف معتمدا سياسيا وقنصلا عاما لدينا، وأنه نظرا لتغيبنا في عاصمة ديارنا النجدية فقد تقبل ولدنا ونائبنا في الحجاز (فيصل) معتمدكم بقبول حسن، ونحب أن تكونوا على ثقة أنه سيلقى منا ومن رجال حكومتنا كل رعاية وحسن معاملة رغبة في تحسين العلاقات الودية القائمة بين البلدين، وإنه ليسرنا أن نغتنم هذه الفرصة لنعرب لكم عن تمنياتنا في أن تكونوا وشعب حكومتكم الفخيمة على أحسن ما يكون من الرفاء والسعادة" .

إن تأكيدات الملك آل سعود بأن رئيس البعثة السوفيتية الجديد سيلقى "كل احترام وحسن معاملة" من قبل الحكومة السعودية والملك شخصيا لم تكن مجرد تنفيذ لما تتطلبه المراسم، فقد تمتع نذير تيورياقولوف بالفعل بمكانة خاصة لدى الملك وحاشيته على مدار الأعوام الثمانية التي عمل خلالها في الحجاز، وقد تضمنت العبارات الرسمية التي جاءت في كلمتي تيورياقولوف والأمير فيصل في مراسم تسليم أوراق الاعتماد استعداد الجانبين للحوار البناء وتدعيم التوجهات الإيجابية التي تم تحديدها في علاقات البلدين في العشرينيات، حيث أكد تيورياقولوف في كلمته بالقول: "... إنني سأسعى بكل السبل نحو تنمية علاقات الصداقة التي سعدنا بنشأتها بين مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها والاتحاد السوفيتي، وفي أدائي للمهام التي أوكلتها إليّ

حكومتي سأعتمد على التعاطف والدعم من قبل صاحب الجلالة الملكية. واتمنى أن أحوز على الثقة نفسها التي حاز عليها سلفي، واسمحوا لي أن أعرب عن ثقتي في أن الروابط والعلاقات ستتطور بما فيه صالح البلدين".

ورد الأمير فيصل بكلمة قال فيها: "بصفتي نائب صاحب الجلالة الملكية يسعدني أن أرحب بفخامتكم وأتمنى لكم طيب الإقامة والنجاح في العمل، كما يسعدني بالدرجة نفسها أن أؤكد لكم أنكم ستلقون كل العون من قبل حكومة جلالته لتعزيز علاقات الصداقة التي تربط بين بلدينا"، وقد أكدت هذه الكلمة للمندوب السوفيتي الجديد أنه سيتمتع بالثقة التي ينشدها، وكان هذا يرجع بشكل كبير إلى الوضع السياسي القائم في شبه الجزيرة العربية وما يتطلبه من ضرورة أن يحترس النظام السعودي حديث النشأة من دسائس بريطانيا التي كانت تتصف في ذلك الوقت بجبروتها وأن يجد في شخص موسكو من آن لآخر قوة توازن قوة لندن، كما أن دور الاتحاد السوفيتي بالنسبة للملك آل سعود كان يستمد قوته أيضا من أن الحكومة السوفيتية بالذات أول من اعترف به حاكما للدولة الجديدة.

كانت العلاقات الرسمية قد بدأت في عام ١٩٢٤م بين الحكومة السوفيتية والشريف الهاشمي حسين الذي كان يحكم الحجاز آنذاك، وبعد أن اعترف كل طرف بالآخر تبادل البلدان البعثات الدبلوماسية، حيث توجه إلى جدة كريم حكيموف، بينما وصل إلى العمل بموسكو الأمير لطف الله، وفي هذا الوقت نفسه تقريباً كانت قد بدأت حملة آل سعود على الحجاز، التي أسفرت عن سقوط الشريف حسين عن العرش وهروبه، وبقاء ابنه علي مدة

قصيرة في جدة التي كانت محاصرة، ثم في النهاية استسلام الهاشميين وقيام سلطة النجديين الوهابيين في نهاية عام ١٩٢٥م، ممثلين في زعيمهم آل سعود. ولم تغادر البعثة السوفيتية جدة إبان الحصار، ومع وصول آل سعود إلى السلطة تم اعتمادها لدى حكومته بعد أن أبلغه حكيموف اعتراف الاتحاد السوفيتي به ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها، وذلك بالمذكرة المؤرخة في ١٥فبراير ١٩٢٦م التي تضمنت أيضا أن الجانب السوفيتي يرى أن لديه علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة آل سعود. أما الملك الجديد فقد أعرب بدوره عن استعداده لتنمية علاقات الصداقة مع الاتحاد السوفيتي، وفي إبريل من عام ١٩٢٧م لُقِّب آل سعود بملك الحجاز ونجد وملحقاتها بعد أن ضم سلطنة نجد إلى المملكة.

وكان قد سبق هذا الحدث قرنان عاصفان، فتاريخ دولة آل سعود قد بدأ في حقيقة الأمر منذ عام ١٧٤٤م، عندما عُقد تحالف ديني سياسي بين الأمير الطموح بعيد النظر محمد بن سعود والزعيم الإسلامي محمد بن عبدالوهاب، ذلك التحالف الذي ظلت الأجيال المتتالية تلتزم بشروطه. وكان هذا التحالف ينص على أن يحتفظ محمد بن عبد الوهاب وأبناؤه من بعده بالسلطة الدينية، أما السلطة السياسية فتبقى في يد محمد بن سعود وأنجاله، وكان هذا التحالف بمثابة البداية لتاريخ العربية السعودية، كما وضع كثيرا من السمات المميزة لتطورها، وهو التحالف الذي يمكن اعتباره لدرجة ما العماد الدستوري لهذه الدولة، بعد القرآن بالطبع، فرجل الدين الذي كان يبحث عن دعم عسكري من ناحية، والأمير الذي كان في حاجة إلى سند ديني

من ناحية أخرى كانت لديهما رغبة متبادلة في توحيد جهودهما. وبذلك لم يصبح ابن سعود مجرد واحد من أمراء نجد وإنما زعيما يحمل أفكار «الإسلام الحق»، وهكذا التحمت القوة الدينية بالقوة العسكرية.

وجرت حملات عسكرية عديدة أسفرت عن إقامة دولة إسلامية واسعة النطاق، ولكنها واجهت خطر الزوال مرتين، أولاهما في عام ١٨١٨م عندما مُنيِت قوات الأمير بهزيمة على يد الجيش المصري الذي كان أكثر تقدما، والمرة الثانية في عام ١٨٦٥م نتيجة للصراع الداخلي، ولكن في عام ١٩٠١م تمكن عبد العزيز آل سعود حفيد محمد بن سعود وثلة من الرجال البواسل من الاستيلاء على الرياض واضعا نقطة البداية لإحياء دولة آل سعود.

وجدير بالذكر أن إدراج مقاطعة الحجاز، التي كانت أكثر ازدهارا وانفتاحا على العالم ضمن حدود الدولة، قد تطلب التكيف الأيديولوجي والسياسي مع مستجدات القرن العشرين، وكان الرد على تحدي العصر هو أن ظهر مذهب جديد يقضي بأن كل جديد مقبول مادام لا يتعارض وروح الإسلام، وفي الوقت نفسه أصبح الطريق مفتوحا للاستفادة من منجزات الحضارة الحديثة وتقنياتها. ليس هذا فحسب وإنما أيضا صار السبيل ممهدا نحو الأنماط الجديدة لبناء الدولة، ومع ذلك فالدولة الوليدة "التي كان الدين فيها خاضعا لسيطرة الدولة" ظل يعمل فيها ما يسمى بالإسلام المعارض الذي كان يعارض كل شكل من أشكال رقابة الدولة. وقد انعكس تطور الأحداث بهذا الشكل في المواجهة الشرسة التي اندلعت بين الزعيم السعودي عبد العزيز والجماعات القبلية من المحاربين الوهابيين، وهم من يطلق عليهم «الإخوان»

الذين كانوا يلتزمون بالتقاليد الإسلامية القديمة، وظلوا يقاومون الدولة السعودية الناشئة مقاومة مستميتة حتى عام ١٩٢٩م، عندما قامت القوات الموالية للملك السعودي بسحق تشكيلاتهم العسكرية بشكل نهائي، وساد البلاد -على ما يبدو- توازن نسبي للقوى، وبدأ أخيرا هدوء سياسي داخلي.

كانت إنجلترا في الربع الأول من القرن العشرين حريصة على منع الدول الأوروبية الكبرى وعلى رأسها فرنسا وألمانيا وروسيا من الاقتراب من الشرق الأوسط، خشية أن تفقد سيطرتها على مصر وطرق المواصلات إلى الهند، ولعل أوضح مثال كلاسيكي على نشاط الرعايا البريطانيين في المملكة العربية السعودية إبان الحرب العالمية الأولى كان هو العقيد لورنس العرب، رجل المخابرات العسكرية المحترف الذي مارس نشاطه في السعودية عدة سنوات.

لقد كان لورنس العرب نتيجة حتمية تمخض عنها عصره، فقد كانت إنجلترا في حاجة إليه في سياستها الاستعمارية، وأصبح لورنس الذي كان يلقب «بصديق العرب» شخصية لا بديل لها في حاشية الشريف حسين. ثم صار بعد ذلك «الذراع اليمنى» لفيصل أحد أبناء الشريف، الذي كان العديد من القبائل تخضع لنفوذه. وجاءت الدعوة إلى توحيد العرب في نضالهم ضد تركيا، تلك الدعوة التي ألقي بها في الوقت المناسب وبالشكل المناسب لتسمح للثنائي الفريد «فيصل ولورنس» بإثارة الانتفاضة في صفوف الأهالي وتوحيدهم وتكوين جيش ذي قوة قتالية عالية، يعمل لصالح بريطانيا في الشرق الأوسط، وقد أسهم لورنس إسهاماً نشطاً في المكايد التي كانت تهدف إلى تنصيب الأمير فيصل الموالي للإنجليز على عرش العراق، وخلع الأمير

الأفغاني أمان الله من العرش، وكان هذا يعني في واقع الأمر الحفاظ على بقاء النفوذ البريطاني في المنطقة أطول مدة ممكنة.

غير أن المصالح الملحة للمملكة حديثة النشأة كانت تتطلب قدرا أكبر من الاستقلالية في السياسة الخارجية، فحقيقة الأمر أن الدول الأوروبية الكبرى كانت تتوقع أن الإمبراطورية العثمانية مصيرها التفكك لا محالة، ولذا راحت تسعى مسبقا إلى تقسيم ممتلكاتها فيما بينها. وكانت فرنسا وألمانيا هما الأكثر نشاطا في هذا المسعى، حيث بدأ المهندسون الألمان في مد خط حديدي بين برلين وبغداد لنقل الحجاج المسلمين إلى مكة والمدينة، وكان هذا الخط الذي يربط بين برلين والبوسفور يتعارض دون شك والمصالح البريطانية، حيث كان يشكل خطرا من اقتراب الألمان من مصر والهند. وفي الوقت نفسه فإن صدام المصالح الغربية في شبه الجزيرة العربية كان بالطبع في صالح آل سعود وأنصاره، حيث كان من شأنه أن يتيح له إمكانية المناورة لتحقيق أهدافه العسكرية والسياسية.

وكان للأحداث التي وقعت في روسيا في خريف ١٩١٧م أثر كبير على الانتفاضة العربية في شبه الجزيرة، فبعد انقلاب أكتوبر خرجت روسيا على الفور من الحرب مما أثلج صدر ألمانيا وتركيا. وراحت السلطة الجديدة في روسيا تسعى إلى تبصير حلفاء المستقبل بتحركات حلفاء الماضي، فنشرت نصوص المعاهدات السرية الشائكة التي كان للحكومة القيصرية صلة بها، فظهرت تفاصيل اتفاقية «سايكس - بيكو - سازونوف» بصحيفة "ازفيستيا" الروسية في ديسمبر ١٩١٧م، وسارع الأتراك بترجمتها إلى العربية وإعادة

نشرها، وبطبيعة الحال استاء الشريف حسين من الازدواجية الواضحة في موقف الحكومة البريطانية، ولكن شرع الجميع في حل المشكلة بأساليب اللباقة الدبلوماسية، حيث قبل الشريف بثقته المعهودة تفسيرات الإنجليز الذين زعموا أن هذه الاتفاقية لم يتم المصادقة عليها بتاتا، وأن الأتراك قد استخدموها سلاحاً نفسياً لنسف العلاقات البريطانية العربية.

ليس من الغريب أن أهم ما كان يتسم به الموقف في الحجاز ونجد وقت وصول نذير تيورياقولوف هو تفاقم العلاقات بين المملكة وإنجلترا، وكان السبب الرئيس في ذلك لايزال يرجع -بالطبع- إلى تبرّم لندن من خلع صنيعتهم الهاشمي الشريف حسين، بيد أن ما كان يزيد من حدة الخلافات هو عدم تخلي الإنجليز عن جهودهم الحثيثة في تحصين الحدود بين نجد والعراق التي كانت حينئذ تحت سيطرتهم، وذلك ببناء منظومة من المعاقل والحصون، كما كانت لديهم خطط لبناء خط حديدي بين بغداد وحيفا كان من المفترض أيضا أن يقتطع جزء منه أراضي من نجد، وحدث في نوفمبر من عام ١٩٢٧م أن تسللت فصائل من البدو النجديين إلى داخل الأراضي العراقية المجاورة، وقاموا بهدم أحد الحصون التي كانت لا تزال في مرحلة التشييد، وردا على هذا التصرف شن الإنجليز هجوما جويا بالقنابل على مدن نجد، وحشدوا أسطولا ضخما من قواتهم البحرية في مياه الخليج العربي.

وقد وصل تصاعد التوتر إلى درجة كان يبدو معها من آن لآخر أن المنطقة ستشهد أحداثا عسكرية واسعة النطاق، ولذا أوفد الإنجليز الجنرال كلايتون إلى جدة مرتين، في مايو وأغسطس ١٩٢٨م، للتفاوض مع الحكومة

السعودية. إلا أن مهمته قد باءت بالفشل مما يرجع بشكل عام إلى تشدد الجانب السعودي الذي كان يصر على عدم شرعية بناء العراق للتحصينات على أراضٍ كانت تنص الاتفاقيات السابقة على منع بناء الحصون عليها. وهكذا أرغمت المواجهة مع الإنجليز الملك آل سعود على البحث عن حلفاء على الساحة الخارجية، وكان الاتحاد السوفيتي يتصدر قائمة هؤلاء الحلفاء.

وقد ساعد تدعيم العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلدين على هذا الأمر، إذ أرسلت موسكو في ربيع عام ١٩٢٨م دفعة كبيرة من السلع السوفيتية لاقت رواجا كبيرا في السوق السعودية، ولذلك كانت طبقة التجار في المملكة تنتظر بفارغ الصبر وصول دفعات أخرى من السلع كان من المفترض أن يقوم الاتحاد السوفيتي بتوريدها في أقرب وقت. وهكذا تفوقت العلاقات التجارية بشكل كبير على العلاقات السياسية بين البلدين من حيث قوتها ودرجة التعاون فيها، فقد أبدت الحكومة السوفيتية رغبة في تعزيز علاقات الصداقة مع الحجاز ونجد، وذلك بتوقيع معاهدة بين البلدين ورفع مستوى المندوب السوفيتي إلى درجة مبعوث فكان رد الملك آل سعود أن "توقيع معاهدة مع الاتحاد السوفيتي في ظل الوضع الراهن وهو في حالة حرب فعلية مع إنجلترا قد يعني أنه تحد مباشر للإنجليز، ويدفعهم إلى اتخاذ إجراءات يصعب التكهن بعقباها ضد الحجاز ونجد". إلى جانب ذلك ارتأى الملك ضرورة التأكيد على أنه يعد علاقاته مع الاتحاد السوفيتي علاقات صداقة على أعلى مستوى، ومع ذلك فإنه انطلاقا من الاعتبارات المذكورة سلفا يرى أن إبرام معاهدة بين البلدين ورفع درجة التمثيل هو أمر سابق لأوانه.

كان واضحا للمندوب المفوض الجديد، الذي تولى مهام عمله للتو، أن الرغبة في عدم دفع إنجلترا لاتخاذ إجراءات غير مرغوب فيها هي بالذات التي اضطرت العاهل السعودي للابتعاد عن توقيع معاهدة سياسية مع الاتحاد السوفيتي، وليس الاستهانة بعلاقات بلاده مع الدولة السوفيتية (وهو ما يبدو على الأقل من كلامه في حواراته مع نذير تيورياقولوف). كما كان هذا هو أحد الأسباب الرئيسة وراء عدم موافقته حتى نهاية عام ١٩٢٩م على رفع مستوى الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة إلى درجة البعثة الدبلوماسية، وهو ما كان من شأنه أن يعني -بلغة العصر- قيام علاقات دبلوماسية كاملة بين البلدين على مستوى السفارات. وكانت المسائل المتعلقة بعقد الاتفاقية ورفع درجة البعثة وتنشيط التجارة بين البلدين هي ما يتعين على المندوب المفوض الجديد الاضطلاع به تحديدا.

ولابد أن نوفي نذير تيورياقولوف حقه، فهو سرعان ما تكيف مع وظيفته الجديدة، حيث أقام علاقات ثقة مع الدوائر السياسية وطبقة التجار في البلاد، وكان ظهور أي وجه جديد في الدائرة الدبلوماسية -قليلة العدد بمعايير ذلك الزمان- في جدة يعد دائما حدثا بارزا، وبما أن تيورياقولوف كان يمثل "النظام البلشفي" فقد زاد هذا من انشغال الدبلوماسيين الأجانب ورجال أجهزة المخابرات المختلفة به، وكان من بين هؤلاء جون فيلبي والد كيم فيلبي المعروف. كان فيلبي باحثا متخصصا في شبه الجزيرة العربية، واعتنق الإسلام وسمى نفسه عبد الله، وأصبح مستشارا للملك عبدالعزيز آل سعود، وكان يقوم بدور تاجر كبير عاش في الشرق عقودا من الزمن، وعلى دراية بعادات الشرق وتقاليده، واستطاع بمهارة أن يستغل هذا في التخابر، كما

سخر لصالح إنجلترا أيضا تأثيره على الملك وخاصة على ابنه فيصل اللذين وصف العلاقة بينهما في أحد كتبه بأنها "الصراع الأبدي بين حكمة الكبار واندفاع الصغار"[١].

وفي أحد تقاريره الأولى التي أرسلها إلى موسكو يصف تيورياقولوف زيارة فيلبي إليه حيث يقول إنه شخصية مثيرة للاهتمام وداهية إلا أن "بعض حيله مكشوفة تماما". "فتجارته يكاد يضربها الكساد وليس في استطاعته تغطية نفقاته ومع ذلك لا يزال يعمل بالتجارة". ولكن في أحد التقارير اللاحقة وصفه بصورة أكثر حدة حيث أفاد دون أدنى شك بأن "... المذكور يُعد عميلا لجهاز committee of national defense، وينفق ببذخ، ونشاطه الفعلي يتعارض مع ما يقوله، وتوجد مستندات تثبت ذلك، ويجري الآن جمعها لكشف الوجه الحقيقي لفيلبي لتقديمها إلى الملك". وأكد تيورياقولوف كلامه الذي جاء في تقاريره الأولية بعد صدور أحد المؤلفات الرئيسة التي كتبها جون فيلبي، حيث أرسل إلى موسكو يقول: "إنكم أغلب الظن سمعتم عن كتاب الشيخ عبد الله فيلبي «الجزيرة العربية» (إصدار عام ١٩٣٠م) والذي يكشف فيه أوراقه بشكل سافر للغاية". ومع ذلك واصل هذا الشخص المثير للاهتمام «استدراج» الزعماء السعوديين فهو -طبقا لتقرير تيورياقولوف- "يجلس في مكة بشكل دائم، في دائرة الملك، وهناك شائعات تقول إنه يحاول الحصول من الملك على امتياز لبناء محطة كهرباء، وأن لندن تعد على حد زعمه قرضا للملك يقدر بثمانمائة ألف جنيه".

(1) Philpy H. ST. J. B. Arabian days. an autobiography. London. R. Hale. 1948.

وبالطبع لم يكن في مقدور المندوب المفوض الحصول على معلومات من هذا النوع إلا مع توافر مصادر موثوق بها في كافة الدوائر في جدة ومكة، حيث كان عدد معارفه يتزايد بشكل دائم، وكان يكثف من لقاءاته واتصالاته مما أتاح له سرعة التعرف على الوضع الداخلي وشؤون السياسة الخارجية للبلد الذي يعمل فيه، أما محادثاته المنتظمة مع فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة فقد منحته الفرصة لعمل تقييم ملائم لحاضر ومستقبل العلاقات السعودية السوفيتية، أما فيما يخص الملك نفسه ونجليه الأمير سعود والأمير فيصل فالاتصال بهم كان صعبا، لأن القصر الملكي كان في الرياض ومكة بينما كانت البعثات الدبلوماسية توجد في جدة. ومع ذلك كان تيورياقولوف في حالة الضرورة يسافر إلى مكة أو يحاول استغلال مجيء الملك وأعضاء البلاط إلى جدة ليلتقي بهم وجها لوجه. أما الشخصيات رفيعة المستوى بمن فيهم مختلف الوزراء والرتب العسكرية وحتى رئيس البوليس السري فكانوا ضيوفا دائمين لدى نذير تيورياقولوف، يتبادلون معه المعلومات اللازمة، وبالنسبة لأعضاء السلك الدبلوماسي كان أكثر من توثقت به علاقات المندوب المفوض هو التركي ساني بيه، وقد ساعد على ذلك تلك الصداقة التي كانت سائدة الودية بين الاتحاد السوفيتي وتركيا في عهد كمال باشا، علاوة على معرفة تيورياقولوف باللغة التركية.

وكان الأمر يتطلب قدرا كبيرا من اللباقة والحذر عند تقديم الهدايا والتذكارات لعلية القوم بالمجتمع السعودي، فقد كان تيورياقولوف يتمتع عن جدارة بسمعة «الرجل المؤمن» ولذلك كان يؤكد دوما أنه "لا يستطيع أن يهدي مسدسات أو يقدم مشروبات كحولية كما يفعل غيره من الأوروبيين"، ولذا

طلب تزويده بمجموعة من الهدايا من "الأدوات المكتبية والساعات والأقمشة «لتفصيل الملابس للأولاد»... وما شابه ذلك".

وكان أحد وجهاء جدة ويدعى محمد ناصف قد طلب من تيورياقولوف أن يحضر له طاقما من فناجين الشاي المصنوعة من الخزف الصيني، على أن "يقوم بدفع ثمنه صاحب الطلب". فطلب تيورياقولوف من موسكو أن يرسلوا له هذا الطاقم مبررا ذلك بالقول: "إنني لا أستطيع أن أبيع له الطاقم، وأرى أنه من الأجدى لو أهديته له باسمي، لذلك إذا كانت هناك إمكانية لدى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية فإنني أرجو أن تقدموا لي هذه الخدمة، والمطلوب -تحديدا- هو عدد ١٢ فنجانا للشاي من الخزف الصيني متوسطي الحجم والسعر بأطباقهم، ورجاء أن يكون الطاقم أنيقا و«رقيقا» ما أمكن، فمنزل محمد ناصف منزل كرم يتردد عليه جميع وجهاء ومشاهير المجتمع بدءًا من الملك (حيث جرى آخر حفل استقبال لأعضاء البعثات الدبلوماسية في هذا المنزل) ورجال الدين و«الأعيان»، وانتهاء بالحجاج الجزائريين من ذوي النفوذ، لذلك لابد من اختيار الفناجين بحيث تتناسب والمقام الرفيع".

كذلك طلب محمد ناصف من المندوب السوفيتي أن يحضر له من موسكو أحد الكتب باللغة العربية، فوعده بتنفيذ طلبه، وكان تيورياقولوف يتصور جيدا أين يمكن العثور على هذا الكتاب في الاتحاد السوفيتي فكتب يقول: «هذا الكتاب يمكن الحصول عليه من خلال مكتب الإدارة السياسية العامة (الرفيق بيتيرس أحمد المابيف)، ويتعين البحث عن هذا الكتاب في موسكو وكازان وأوفا (في الإدارة الدينية المركزية) وسمرقند حيث توجد المكتبات

الإسلامية التي تمت مصادرتها. وعلى أي حال فأحمد المايف على دراية أكثر مني في هذا الموضوع. علاوة على ذلك أتمنى لو وصلتني هذه الأشياء (الكتاب والفناجين) على أقرب باخرة من خلال حامل الحقيبة الدبلوماسية".

كان نذير تيورياقولوف مهذبا ولبقا في خطاباته إلى موسكو، ولكنه كان يتسم بالإلحاح، وهو ما يتضح من رسالته التالية: "معذرة على إزعاجكم بأشياء تافهة، ولكن بهذه الأشياء التافهة يمكنني تعزيز علاقاتي «الشخصية». إنني في حاجة إلى دستة من الفناجين بالأطباق (ومرفق طيه عينة للتصميم المطلوب)، وسيتم سداد قيمتها. ويجب العمل على أن تصلني هذه الفناجين على الباخرة «كومونيست» حيث سأسلمها إلى الوالد «أمر بالمعروف». ثانيا أرجو أن ترسلوا لي سماعة طبية للأذن أنوي إهداءها إلى محافظ (قائمقام) مدينة جدة (هو أصم)، وأرجو أن تصلني هذه السماعة أيضا على الباخرة «كومونيست» التي ستبدأ رحلتها من أوديسا إلى البحر الأحمر في النصف الثاني من ديسمبر". وأحيانا كان رجال الدولة السعوديون يتوجهون إلى تيورياقولوف بطلبات ورغبات محددة، وكان ينبغي عليه أن يكتب إلى موسكو بهذا الصدد. ومن هذا القبيل الخطاب التالي : "لقد طلب مني فؤاد حمزة أن أحضر له من الاتحاد السوفيتي قطعا من أقمشة البياضات من الكتان الخفيف، على أن يقوم بسداد ثمنها. ويبدو أن كلامه عن الثمن هو من قبيل التواضع لا أكثر. وقد أجبته أن بواخرنا قلما تمر على جدة للأسباب التي يعلمها ولذلك أحيانا يكون من الصعب علينا نحن أنفسنا أن نحضر من الاتحاد السوفيتي ما يلزمنا. والأمر متروك لكم".

كانت الطلبات والتوصيات من هذا القبيل تأتى مرارا وتكرارا من تيورياقولوف وكان يبغي بها أن تدرك موسكو أن مثل هذه الهدايا رغم قلة ثمنها إلا أنها تتلاءم ومناسبات السعوديين وعاداتهم. ومن شأنها أن تساعد على تعزيز اتصالاته الشخصية، ولاسيما -كما جاء في خطابه إلى رؤسائه الذي يبرر فيه طلباته المتكررة بشأن الهدايا- "إنني قد أقمت علاقات جيدة، وأفكر في عمل الكثير، صحيح أن المسألة صعبة ولكن لا يوجد مستحيل. إن علاقاتنا الشخصية تنمو وتتشعب، وأنا أحاول توسيعها كي أكون مطلعا على الحياة الاجتماعية هنا، وأدرس البلاد وأحسّن من إتقاني للغة العربية. والآن لدى صداقات وعلاقات مع التجار وأعضاء السلطات المحلية في المدن (في مكة وبهرا وجدة) والأئمة وشيوخ البدو ورؤساء الهيئات والمصالح وغيرهم من النجديين... إلخ. وبعض هؤلاء -وخاصة من سكان البادية- لابد أن أقوي من صداقتي بهم ببعض الهدايا الصغيرة طبقا لعادات جميع أهل البادية. ولا يمكن أن أقدم مسدسات أو مشروبات كحولية كما يفعل غيري من الأوروبيين، أنا لا أستطيع وأرى أن سمعتي ومصالحي لا تسمح بذلك.

وفي الوقت نفسه لدي مخزون ليس كبيرا من الهدايا، يمكنني أن أهادي منه المعارف المهمين الذين أستفيد منهم ببعض الهدايا الصغيرة. مثل الساعات والأدوات المكتبية والأقمشة البسيطة «لتفصيل الملابس للأولاد» إلى غير ذلك. وبالمناسبة أثناء تواجد الملك في الحجاز كان الساعي الخاص لديه (والساعي هو الشخص الذي يأتمنه الملك على الكثير من الأمور) ويدعى الشيخ سيد يتردد عليّ بالزيارة، وهو رجل بسيط من قبيلة عتيبة في نجد

وقص علي أن الشيخ عبد الكريم (أي الرفيق حكيموف) كان قد وعده أنه سيهديه منظارا وبوصلة. إذن عندما ناقشت معكم هذه المسألة كنت لا أقصد سوى المعارف الذين لا يمكن التعامل معهم إلا بتعزيزات مادية. وإدارة الشرق الأوسط تعلم جيدا ضرورة هذا النظام في التعامل، ولذلك أرى أنه لا داعي لأن أقدم المبررات. وعندما طرحت هذه المسألة على الإدارة كنت آخذ في الاعتبار إمكانية حلها حال توافر الإمكانات فحسب (وبخصوص المنظار فقد وعدت أن أرسل خطابا بهذا الشأن إلى حكيموف، بما أنه هو الذي كان من المفترض أن يهديه إلى سيد)".

إن ما يدعو إلى الدهشة هو السرعة الفائقة التي أدرك بها تيورياقولوف طبيعة العلاقات المتبادلة بين أفراد المجتمع السعودي، وتسلسل المقامات بينهم، وهذا يتجلى بشكل خاص عندما نقرأ ما جاء عن الحالات المشابهة على لسان لورنس العرب، ذلك الرجل الثقة العالم بشؤون المنطقة بشهادة الجميع، ففي كتابه الشهير "أقطاب الحكمة السبع" نجده يورد حالة يصف فيها أحد أصحاب فيصل، ويدعى عوضاً، وهو يقوم بتكسير أسنانه الصناعية بحجر لأنه حصل عليها ذات يوم من جمال باشا الوزير التركي الذي أصبح عدوا وقاد الحملات الانتقامية في أراضي الجزيرة العربية، ولكي يجذب الإنجليز عوضاً إلى صفهم استدعوا له خصيصاً "طبيب أسنان من مصر لكي يركّب له أسنانا مصنوعة من خامات حلفائه".

ومما لا يقل أهمية أيضا هو أن تيورياقولوف لم يكن قد درس اللغة العربية حتى ذلك الوقت مطلقا، إلا أنه استطاع إتقانها في مدة قصيرة لدرجة

أنه كان يتناقش في أي موضوع بمفرده دون أن يساعده أحد بالترجمة، وكتب إلى موسكو بنغمة لا تخلو من الفخر يقول لقد بدأت "أتحدث العربية بصورة مقبولة، وأعتقد أنني خلال ثلاثة أو أربعة أشهر سأستغني عن خدمات المترجم، حتى لا يحدث ما يحدث وهو أنك تقول شيئا فيترجمون شيئا آخر، فيخرج الكلام كالطعام بدون «ملح»"، وقد وصل إتقان المندوب المفوض للغة العربية - بشهادة تويميتوف سكرتير البعثة وغيره من أعضاء البعثة الدبلوماسية - لدرجة الاستغناء كلية عن المترجم في حواراته ومناقشاته اليومية، وخلال فترة وجيزة "بدأ يتحدث على سبيل المثال مع محمد ناصف، وفي حضور تويميتوف، عن الحالة الراهنة للإسلام، وعن فلسفة ابن تيميه (مؤسس الوهابية)، وعن مرض السراجة (الذي كان يتفشى في ذلك العام في مكة والطائف) وطرق علاجه".

وفي نهاية المطاف وصل إتقان تيورياقولوف للغة العرب لدرجة كانت تمكنه من الدخول في مناظرات ومناقشات مع علماء الدين في الموضوعات الدينية، ناهيك عن أنه في الاحتفالات والمراسم كان يلقي كلماته باسم جميع أعضاء البعثات الدبلوماسية أمام الملك وحاشيته بهذه اللغة. إن معرفته باللغة العربية جعلته يتميز عن الكثير من الأوروبيين، وكان هذا يلاقي بلا شك تقديرا هو أجدر به من قبل جلسائه العرب، هذا في الوقت الذي كان بوند رئيس البعثة البريطانية يلقي فيه أحاديثه باللغة الإنجليزية فقط، مستخفا على ما يبدو بالنصائح التي لا تخلو أبدا من الفطنة والذكاء والتي تركها ابن بلده لورنس العرب الشهير، الذي وصلت خبرته الطويلة في العمل في الجزيرة

العربية لدرجة أنه وضع منهاجا خاصا يمكن من خلاله تحقيق مكانة وتقدم في العمل مع القبائل البدوية، حيث يقول: "إذا كنت في قبيلة فعليك أن تدرس كل ما يمكنك دراسته عن البدو، عائلاتهم وعشائرهم، أصدقائهم وأعدائهم، أرضهم وتلالهم وطرقهم. افعل كل ذلك وأنت تسمع وتراقب في نفس الوقت. لا تطرح على البدو الأسئلة، وحاول أن تتحدث بلغتهم وليس بلغتك. وإذا لم تفهم حركات الوجه وانفعالاته لدى البدو فلن تفهمهم".

الفصل الثاني

الكفاح من أجل ثقة الملك

إن بناء العلاقات مع عرب الحجاز لفن كبير. وليس علما له استثناءاته وقواعده الواضحة. ومع ذلك نحن نحقق نجاحا كبيرا يتمثل في ثقة الشريف (الحاكم) الذي كان يهيئ لنا الظروف (للعمل لصالح حكومتنا)، وهو ما كان يسعى الألمان لتحقيقه في تركيا. فإذا كنا نتسم باللباقة واللطف فبإمكاننا أن نحوز على حسن النية والتعاطف من قبل الشريف، وأن نحقق تقدما في العمل. ولكن هذا يتطلب أن نبدي كل الهمة والمهارة التي نمتلكها.

لورنس العرب

عندما بدأ نذير تيورياقولوف تنفيذ مهامه في جدة كان يدرك جيدا أن نجاحه في العمل يعتمد بصورة كبيرة على درجة قربه من السلطة الملكية، ولذا كان ينبغي تحقيق درجة عالية من الثقة والتعاطف من قبل الملك وغيره من أعضاء الأسرة المالكة تجاه تيورياقولوف شخصيا، وبالتالي تجاه الدولة السوفيتية. ومن الواضح أنه لم يكن مطلوبا في المراحل الأولى أن يعوّل المندوب المفوض على أن يخرج الاتصال المباشر مع الملك خارج إطار المراسم، ولذلك كانت مهمته الأولى هي توثيق الاتصال مع المقربين منه.

وكان من بين الشخصيات الأكثر نفوذا في حاشية الملك آل سعود هو وزير المالية عبد الله سليمان، الذي يمكن القول بأن الملك كان يعتمد عليه ماديا لدرجة ما. وعبد الله سليمان من أبناء نجد وكان في البداية لا يهتم كثيرا بالعلاقات مع الدولة السوفيتية حديثة النشأة، ويبدو أن هذا كان السبب وراء عدم اكتراثه لفرض وزير المالية السابق عبد الله دملوجي نظام التمييز ضد البضائع السوفيتية في مطلع عام ١٩٢٩م، كما اتخذت حكومة الحجاز قرارا بوقف عمل المؤسسات التجارية السوفيتية لحين توقيع معاهدة تجارية وسياسية بحجة أن هذه المؤسسات تثير الفوضى في السوق المحلية، وكان من الواضح تماما أن هذا القرار قد انعكس بصورة سلبية للغاية على تطور العلاقات التجارية والاقتصادية بين البلدين، وكانت الحكومة تلمح صراحة أنها "مضطرة لفرض رسوم جمركية أعلى من المعتاد على البضائع السوفيتية بهدف حماية مصالح مواطنيها".

وإلى جانب «نظام الاستثناء» كان هناك إجراء حماية آخر غاية في القسوة من قبل الحجاز ونجد، وهو أن البعثة الدبلوماسية السوفيتية في جدة لم يكن يحق لها العمل بالتجارة بناء على طلب الجانب السعودي، الأمر الذي أدى إلى الاستعانة بالمواطن الإيطالي لازاريني رئيس المركز التجاري ليكون وكيلا للشركات السوفيتية.

وبدأ تيورياقولوف يستوعب الأمر تدريجيا، فبعث إلى الإدارة يخبرها بالنتائج التي تحققت في العمل ومستقبل مواصلة تنمية العلاقات التجارية والاقتصادية بين الاتحاد السوفيتي والحجاز بمساعدة لازاريني وإسهاماته،

حيث كتب يقول "إن المواطن كانتيس رئيس فرع مؤسسة «لازاريني وشركاه» (Lazzarini et co) في السعودية، والتي تقوم بخدمة سفن مؤسسة «سوفتورغفلوت» للنقل البحري، قد عاد منذ أيام قليلة من السويس التي يتخذ منها رئيس الشركة مقرا له، ونقل إلينا العرض التالي الذي يقترحه علينا لازاريني، وهو أنه على استعداد لتسويق المنتجات البترولية السوفيتية باسمه في الحجاز إذا وافقت المؤسسات التجارية السوفيتية على ذلك، وسيقدم لازاريني ضمانات بنكية قوية، على أن يتم توصيل المنتجات البترولية إلى جدة بالبواخر السوفيتية. وقد أبدى كانتيس ثقته في نجاح هذا النشاط مستندا إلى استنتاجاته من جس نبض التجار السعوديين. وبالمناسبة فقد أبلغني كانتيس أن بإمكانه أن يدرج في هذه العملية أحد الشخصيات الكبرى في البلاد وهو علي عماري (المفتش المالي الخاص بالملك في جدة وهو يتبع عبدالله سليمان وزير المالية مباشرة)، وأنه بمساعدة على عماري سيكون من الممكن الفوز بتوريدات الحكومة وكذلك التجار الذين يعتمدون على عماري".

وبالإضافة إلى كلام كانتيس ضمّن تيورياقولوف تقريره استنتاجات توصل إليها بنفسه من ملاحظاته الشخصية، حيث تمكن من معرفة أن لازاريني يقوم بتسويق بعض البضائع الإيطالية في المملكة، كما يقوم بإعادة بيع السكر التشيكوسلوفاكي. وكان هذا التاجر الإيطالي ذائع الشهرة في الدوائر التجارية السعودية ويمتع بسمعة قوية، ولذلك في الحوار الذي جرى مع كانتيس عند تويميتوف مساعد تيورياقولوف تم التلميح لكانتيس بأن "عرض لازاريني ليس به شيء لا يمكن تحقيقه، وأن على لازاريني أن يتقدم بعرضه إلى الرفيق حكيموف الممثل العام لمؤسسة «بليجفوستفوستورغ» بمنطقة البحر الأحمر".

وبعد تحليل الاهتمام المتنامي لدى لازاريني بتوسيع علاقاته التجارية مع الاتحاد السوفيتي اقترح تيورياقولوف على موسكو أن تسلك مسلكا متوازنا، بحيث تستفيد بأقصى درجة ممكنة من وساطة لازاريني دون أن تثير الفزع في الوقت نفسه لدى التجار السعوديين، ولخص تيورياقولوف وجهة نظره في هذا الشأن بالقول: "إن عرض لازاريني لا يمكن قبوله إلا في إطار مصالحنا العامة في الحجاز، وقد أبلغت الرفيق حكيموف منذ زمن بأوضاعنا في الحجاز... وسيكون من السهل عليه أن يتصور مزايا وعيوب العرض الذي يطرحه لازاريني، والعيب الأول يكمن بالطبع في أننا سنقوم بتمشيط الطريق أمام تجارة بلادنا بأياد ليست عربية، وبذلك سننفر الشريف توفيق ورجاله منا، وفي ظل هذا الوضع أميل إلى النظر إلى عرض لازاريني على أنه تحرك يجب استغلاله ولكن بعد أن يتضح عدم قدرة توفيق على فتح ثغرة، وهو أمر يمكن التأكد منه بعد عودة الملك من نجد وعودة توفيق من دمشق (في رجب أو شعبان)، وحتى ذلك الوقت يتعين على الرفيق حكيموف أن يستوضح الجانب التجاري من العرض كي يتسنى الوقوف على الخيار المناسب وقت الضرورة. وأرى أن هذا الحل هو أكثر حذرا إذا أخذنا في الاعتبار إمكانية حدوث تغييرات إدارية كبيرة في الحجاز بعد عودة الملك". هكذا كان تقييم تيورياقولوف للوضع في مجال التجارة.

لقد حاول تيورياقولوف إحاطة القيادة علما بكافة جوانب الصورة المعقدة للعمليات التجارية التي كان ينوي لازاريني توريد السلع السوفيتية عن طريقها، حيث كتب يقول: "لقد قام لازاريني بتوجيه من كانتيس بتقديم عرض مكتوب

إلى الرفيق حكيموف، الذي سيقوم بدوره بعرض مقترحاته عليكم. بعد ذلك أفاد كانتيس بأن لازاريني مازال يجري مفاوضات مع مؤسسة «سوفتورغفلوت» للنقل البحري لنقل توكيلها في السويس إليه، وقد أعربت «سوفتورغفلوت» عن استعدادها لنقل التوكيل، ولكنها ربطت حل هذه المسألة بتغيير وكيلها في بور سعيد لأن عمله لا يناسب المؤسسة. وفي هذا الصدد يجري لازاريني مفاوضات مع شركة جوليو دي كاسترو وشركاه في بور سعيد، حيث إن لازاريني له علاقات وتعاملات تجارية مع هذه الشركة الكبيرة التي تقوم مثل لازاريني بخدمة كافة عمليات الملاحة الإيطالية في الطرف الآخر من القناة. وقد أبلغنا كانتيس بكل هذا لكي يحيطنا علما بسير المفاوضات بين لازاريني و سوفتورغفلوت»، أملا بالطبع في أن نساعد في هذا الشأن".

إن هذا العرض المفصل لآليات التجارة المعقدة والمقترحات القيمة التي يحتوي عليها هذا الخطاب إنما تعطي تصورا عن سعة المدارك المهنية لدى تيورياقولوف وفهمه العميق سواء للوضع السياسي أو المسائل الاقتصادية، أما التناغم الذي يتميز به الخطاب فيدل على أن المندوب المفوض قد أدرك حجم الخسائر الفعلية التي يتكبدها الجانب السوفيتي وهو يجري الحوار الاقتصادي مع جدة من خلال وسطاء، ومنذ البداية ظلت مسألة التغلب على هذا النظام إحدى المهام الأساسية للبعثة الدبلوماسية على مدار عدة أعوام، ومن بين الشخصيات الرئيسة التي كان تيورياقولوف يعمل من خلالها في هذا المسار هو وزير المالية عبد الله سليمان، الذي أصبح اسمه من أكثر الأسماء ترددا في تقارير ومذكرات المندوب المفوض في الشهور الأولى من عمله في المملكة العربية السعودية.

كانت كافة المقابلات والمحادثات تُستَغَل للحصول على معلومات والبحث عن سبل للوصول إلى الوزير الجبار. وهو ما حدث أيضا خلال المقابلة التي تمت مع أحد ممثلي الغرب المطلعين في جدة وهو أسد الله أفندي («في الملأ» ليوبولد فايس مراسل «كيولنيش تسايتونج»)، وقد كتب تيورياقولوف إلى موسكو يقول: "بالمناسبة ليوبولد فايس هو الذي زارني بنفسه" ولم يُخف أنه قريب من وزير المالية، كما أبدى رغبته في إقامة علاقات تجارية مع الاتحاد السوفيتي، حتى أنه عرض مشروعا لتسويق السلع السوفيتية مقابل الحصول على عمولة.

والقيود التي فرضتها إدارة المملكة على النشاط التجاري لمؤسسة «بليجفوستغوستورغ» كانت في واقع الأمر "صياغة سياسية للمقاطعة التجارية التي أضفي عليها رسميا طابع المبادرة الشخصية"، ويفسر تيورياقولوف ذلك فيقول: إن المقصود هو الضغط الشديد الذي تتعرض له الحكومة السعودية من جانب التجار المحليين المعنيين لدرجة ما بعدم دخول البضائع السوفيتية إلى السوق، فحقيقة الأمر أن الانخفاض الحاد في أعداد الحجاج من معظم الدول الإسلامية في عام ١٩٢٩م قد أدى إلى انخفاض الطلب على السلع، كما ازداد مخزون البضائع، وتدهورت حالة السوق، وكان الكثيرون لا يرغبون في ظهور لاعب جديد على الساحة التجارية الضيقة، حتى أن التجار السعوديين جمعوا لحكومتهم التي كانت تعاني دوما من نقص في الموارد المالية قرضا داخليا يقدر بمائة ألف جنيه إسترليني، ولكن الشرط الأساس لهذا القرض كان "عدم السماح بدخول المؤسسات التجارية السوفيتية إلى السوق الحجازية"، وكانت نتيجة هذه التصرفات أن وُضِع نظام «خاص» للتجارة السوفيتية.

وقد شرح تيورياقولوف تفاصيل هذا النظام وأهدافه وطبيعته لفؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة، وهو عضو آخر من ذوي النفوذ الكبير في الحكومة، وظل المندوب المفوض يواصل معه الحوار طيلة الأعوام الثمانية التي قضاها في العمل في جدة. وقد صرح فؤاد حمزة بأن الحكومة السعودية "لا ولم تمنع التجارة السوفيتية لأن بلادنا بها حرية في التجارة، ولكن الحكومة السوفيتية التي تضفي على تجارتها أهمية سياسية بحتة لا تأخذ في الحسبان الضرر الذي يلحق بالمواطنين من جراء انتشار الفوضى في السوق".

لكن نذير تيورياقولوف كان يدرك أن التجارة السوفيتية في الحجاز "ترتبط ارتباطا وثيقا بالمكانة السياسية للسوفيت"، وعدم التريث في توقيع المعاهدة ربما يكون في غير محله، ورغم ذلك فقد ارتأى عن حق أنه لا داعي للجلوس في انتظار حدوث المعجزة. "فمن الممكن الآن التفكير في المسائل العملية، فاليوم لا يمكننا التنبؤ بحالة الموسم التجاري المقبل، ولذلك تكتسب مسألة إنشاء شركة سوفيتية تركية مشتركة أهمية كبرى بالنسبة لنا، حيث يمكن استغلال هذه الشركة تبعا للموقف لدعم علاقاتنا التجارية الفعلية مع الحجاز، وهذه هي المسألة الثانية التي طلبت الوكالة إبلاغها بسير العمل بها".

لقد كانت الحكومة السعودية تعوّل بشكل واضح على "المقابل السياسي والمعنوي الذي تطرحه الحكومة السوفيتية مقابل حق التجارة في الحجاز والاستفادة منها"، لدرجة أنها أبدت استعدادها لإبرام معاهدة تجارية، وإن اقتضت الضرورة معاهدة سياسية أيضا، مع الاتحاد السوفيتي. صحيح أن مصالح الحجاز

كـان لابد أن تتـمـتع بالحـمـاية الكاملة في هذه المعـاهدة، لذلك قـبل توقـيع أي اتفاقيات اقترحت الحكومـة السعودية على الجانب السوفيتي أن يقوم بوقف عمل مؤسسـاته التجارية بمحض إرادته وإلا "فـالجانب السعودي مضطر لفرض رسوم جمركية أعلى من المعتاد على السلع السوفيتية لحماية مصالح مواطنيه".

وانضم نذير تيورياقولوف على الفور إلى مقاومة هذا الشرط التمييزي المجحف، فحاول التحرك من خلال الشخصيات الأخرى رفيعة المستوى. كما حاول «فتح ثغرة» عن طريق المفاوضات وإمكانية عقد صفقة مع عبد الله فضل نائب رئيس مجلس الشورى ومستشار نائب الملك في الحجاز. ولكن هذه المحاولات باءت وقتها بالفشل، لأن عبد الله فضل واجه مقاومة من طبقة التجار الذين توحدوا فيما بينهم فلم يستطع عمل أي شيء يذكر، مع أنه لم ير من الضرورة أن يخفي مصلحته الشخصية في التعاون مع الاتحاد السوفيتي، حتى أن صفقة توريد المنتجات البترولية كان ينوي عقدها باسمه. كما عرض خدماته للعمل كوكيل لجمعية البترول في الحجاز، ملمحا بذلك إلى أن الجانب السوفيتي يمكنه الاستفادة منه في مجال التجارة. وبما أن تيورياقولوف كان قد حسب جيدا مستقبل التعاون فقد ارتأى أنه من العقل المحافظة على العلاقة مع عبد الله فضل من منطلق أنه قد يتطلب الأمر التعامل معه مرة أخرى مستقبلا.

واستطاع تيورياقولوف خلال المقابلات والمحادثات أن يتوصل إلى أن الوزير الجبار والمفتش العام للملك في الحجاز عبد الله سليمان يقف خلف «قطب آخر من أقطاب النفوذ» وهو الشريف توفيق، وقد كان يتحكم في ذلك الوقت في قدر كبير إلى حد ما من واردات الحكومة، وكان تيورياقولوف يدرك

ضرورة البحث عن مخرج من الوضع القائم من خلال الشخصيات التي لها تأثير من قريب أو من بعيد على الملك، ولذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن أرسل إلى موسكو يقول: إن توفيقاً "يرى ضرورة انتظار الملك في كل هذه المسائل، حيث يربط بين عودة الملك وحدوث تحولات إيجابية في سياسة الحكومة الحجازية، وهو يموّل في خططه التجارية على قربه من الملك وابنه الأكبر سعود".

وهكذا إذا أخذنا في الاعتبار الثقل السياسي والاقتصادي الذي كان يتمتع به وزير المالية في الحجاز فإننا ندرك حجم الجهود التي كان يبذلها نذير تيورياقولوف لتحقيق تغير تدريجي في وجهات نظر هذا الوزير وتحوله من مراقب محايد إلى نصير للعلاقات التجارية مع الاتحاد السوفيتي، وجدير بالذكر أن ما ساعد على هذا التغير أيضا هو سلسلة من الظروف سواء السياسية أو التجارية والاقتصادية، ومنها أن «العناصر النجدية» التي كان يتزعمها وزير المالية هي التي كانت تتصدى للإنجليز وأنصار النهج الإنجليزي فؤاد حمزة وعبد الله فيلبي، واستطاع تيورياقولوف تدريجيا وبعد عمل حثيث مع عبد الله سليمان أن يقنعه بأن ظهور السلع السوفيتية الرخيصة بالمقارنة مع السلع الإنجليزية في السوق التجارية سيأتي بفائدة عظيمة للحكومة وللمواطنين.

وكان مطلع عام ١٩٢٩م حافلا بلقاءات المندوب المفوض مع «أعيان» الدولة السعودية، حيث كان يتناول معهم عددا كبيرا من القضايا الاقتصادية والسياسية الداخلية والعالمية، وتوالت على موسكو تسجيلات ومحاضر المحادثات وتحاليل نتائج اللقاءات.

فقد تناولت المحادثات التي جرت مع الشريف توفيق في فبراير ١٩٢٩م الأوضاع الدولية والموقف في أوروبا، حيث أكد توفيق أن سياسة الدول الأوروبية تقود إلى حرب جديدة ستسفر حتما عن "هزات اجتماعية كبيرة ستكون بمثابة ثورة اجتماعية، وأؤكد على ثورة اجتماعية".

كما تطرق الحديث إلى أحداث أفغانستان التي تثير بالضرورة قلق موسكو بحكم وجود حدود مشتركة بين الاتحاد السوفيتي وهذه الدولة. وكان تيورياقولوف يأمل في أن يجد في توفيق مصدرا موثوقا به للمعلومات بشأن أفغانستان. وبالفعل قال توفيق إن "الشعب الأفغاني بحكم تخلفه لم يستطع فهم إصلاحات أمان الله، إلى جانب ذلك فأمان الله قد استعجل برغبته في القيام بجميع الإصلاحات دفعة واحدة مما أحيا التيار الديني الرجعي"، وأشار تيورياقولوف إلى انتشار الشائعات حول فضائح أمان الله لمعرفة إذا كانت الحكومة السعودية تنظر إلى أحداث أفغانستان من هذا المنظور، إلا أن توفيق قد نفى ذلك مستندا إلى أن المعلومات الواردة حول حقيقة مجرى الأحداث في هذا البلد ضئيلة للغاية.

أما بخصوص اليمن فقد كانت آراء توفيق مثيرة للاهتمام، حيث وصفها بأنها "دولة صغيرة للغاية ولهذا لا تمثل أهمية كبيرة"، وتطرق إلى المعاهدة السوفيتية اليمنية فقال: "إن نظام الحكم في هذا البلد يستبعد إمكانية التعامل الإيجابي معه، فالإمام يحيى يُعد أكثر نمط سلبي وبلا مبدأ بين حكام الجزيرة العربية، وهناك وقائع كثيرة تدل على هذا، فبحثا عن أي سند ضد الإنجليز يعقد اتفاقا مع الإيطاليين، ويتعهد بأن يقوم بعدد من التدابير ذات

الطابع الاقتصادي بمساعدة الخبراء الطليان، ولكن بمرور بعض الوقت يختلف الإمام يحيى مع هؤلاء الطليان. أيضا تصرف الإمام يحيى في قضية المحافظات التسع شيء يثير العجب، والآن ومع ظهور مندوبيكم تعجل الإمام يحيى إبرام هذه المعاهدة، ولاشك أن الإمام يحيى قد انطلق في هذا من رغبته في الحصول بهذه الطريقة على الورقة الرابحة المعروفة ضد الإنجليز، ولكنه غير قادر في الوقت نفسه على التفكير بأنه لن يحصل على أي شيء فعلي من هذه المعاهدة، لأنه إذا أراد الإنجليز فلن يسمحوا بمرور صندوق واحد من المعونات إلى اليمن عبر قناة السويس".

وتجدر الإشارة إلى الجزء الختامي من المحادثات، التي يدخل فيها تيورياقولوف إلى المنطقة الحرجة بالنسبة لغالبية الدبلوماسيين، حيث كتب يقول: "لقد ارتأيت من الضرورة أن أشير إلى أنه ليس كل معاهدة دولية تعني تحالفا عسكريا وسياسيا، وقلت - كرأي شخصي - : إن توقيع معاهدة مع اليمن أمر تمليه علينا المصالح التجارية، وسألت عن الوقائع التي تشين الإمام يحيى، فأجاب توفيق أنه لا يستطيع أن يسرد هذه الوقائع في الوقت الراهن". إن أحدا لا يستطيع أن يعترض بمثل هذا الاستعداد على محاوره، بل ويستفزه للحصول على المعلومات من منابعها الأولى إلا إذا كان شخصا مطلعا وعالما بعمليات السياسة الداخلية في البلاد ومدركا لتفاصيل السياسة الإقليمية.

لقد كان العديد من القضايا التي تهم المندوب المفوض السوفيتي تبدو للوهلة الأولى بعيدة تماما عن مجال السياسة، فنجده خلال لقائه مع محمود حمدي وزير الصحة يناقش تطور الأوضاع الصحية في البلاد، حيث أفاد الوزير خلال

المحادثات أنه "يجري إنشاء مستشفى في بهرا التي تقع في منتصف الطريق بين جدة ومكة، كما يجري تصميم مستشفى إكلينيكي قرب مكة يتكون من ٨ - ١٠ مبان". وتغادر هذه المعلومات على الفور إلى موسكو، فهذا المجال من شأنه أيضا أن يكون من بين المسارات الواعدة في التعاون بين البلدين.

أما عبد الله أفندي وزير البريد والبرق فيناقش معه المندوب المفوض المشاكل التي تؤرقه، ويلمس الوزير اهتمام تيورياقولوف فيصارحه بمعلومات لاتخضع بأي حال من الأحوال للمناقشة مع الأجانب، حيث يروي له أنه نظرا لقلة الأموال لم يستطع تنفيذ مقترحاته بشأن تحسين وتطوير حالة البريد والبرق، فلم يتمكن إلا من مد خط للبرق (التلغراف) من مكة إلى الطائف، واتخاذ بعض الخطوات لإنشاء محطة إذاعية في الرياض، كما أعلن الوزير أنه يتأسى بشكل كبير من أن "نفقات مؤسسات الدولة تبتلع الدخل من البريد والبرق ولذلك دائما ما يستدعي الأمر طلب دعم، ونظرا لذلك فقد تقدمت باقتراح لمجلس الشورى لإدخال نظام يقضي بأن تقوم مؤسسات الدولة بسداد قيمة خدمات البريد والبرق الخاصة بها أسوة بالدول الأخرى".

وبعد زيارته لعبد الوهاب عضو مجلس الشورى يبلغ تيورياقولوف رؤساءه في موسكو بأن "مجلس الشورى لا تزال وظيفته مناقشة واعتماد كشوف ومقايسات مؤسسات الدولة وكذلك اللوائح الخاصة بهذه المؤسسات، وقد تم منذ وقت قريب اعتماد لائحة مصلحة البريد والبرق". وموسكو كان يهمها أيضا عمل مصلحة البريد والبرق، ولذلك كانت المحادثات تتطرق إلى كافة المسائل المختلفة، حتى المسائل الفنية، بما في ذلك مسألة سداد مؤسسات

الدولة لقيمة خدمات البريد والبرق "التي مازالت تلاقي رفضا، ولكن يجري الآن وضع قواعد خاصة تهدف إلى تقليص أعمال مصلحة البريد والبرق وتوفير الأموال".

كذلك المعلومات التي كان يحصل عليها تيورياقولوف من مصادر غير رسمية كانت قيمتها لا تترك مجالا للشك، ففي حوار مع ليوبولد فايس حصل المندوب المفوض على معلومات غاية في الأهمية حول واقع العلاقات السعودية البريطانية، حيث أبلغ موسكو بأن "الملك قد عقد في الرياض اجتماعا مغلقا مع قادة القبائل في إطار مؤتمر الأعيان، وقد تم خلال الاجتماع التوصل إلى اتفاقية بشأن وضع الحدود، حيث تقضي الاتفاقية بأن يبذل الملك المحاولات لتحقيق تقدم في هذا الصدد بالطرق الدبلوماسية. وسيعقد الملك فور عودته إلى الحجاز لقاء جديدا مع كلايتون، حيث يتعين على الملك رفض تقديم أي تنازلات، وفي حالة فشل المفاوضات مع كلايتون يكون من حق القبائل حل القضايا الحدودية بالطرق التي تراها مناسبة".

واستنادا إلى المعلومات المحصلة يصل نذير تيورياقولوف إلى استنتاج مفاده أن أهداف ومطالب الإنجليز تنحصر فيما يلي: "أ) بناء خط حديدي من حيفا إلى بغداد ثم إلى البصرة، إلا أنهم غير راضين عن هذا المسار لطول المسافة ولأن البصرة لا تصلح لأن تكون ميناء عسكريا. ب) بناء خط حديدي من حيفا إلى الكويت عبر الجوف، وهذا المسار أقصر في المسافة، كما أنه يلبي مصالح إنجلترا بدرجة أكبر مما يرجع إلى إمكانية بناء قاعدة عسكرية في الكويت".

وكان الإنجليز يخططون أيضا لمد خط أنابيب بترول يسير بالتوازي مع المسار الثاني للخط الحديدي، وكان من المفترض أن التحصينات التي يتم إنشاؤها على الحدود العراقية ستتكفل بحماية هذا الخط الحديدي وخط الأنابيب، لكن إقامة هذه التحصينات اصطدمت بمقاومة شديدة من جانب قبيلتي مطير والعجمان وغيرهما من قبائل نجد، لأن هذا كان يغلق أمامهم الطريق إلى المراعي وينزع منهم آبار المياه. وكان نذير تيورياقولوف يرى أن تنفيذ هذا المشروع من قبل الإنجليز لن يكون بالأمر السهل، لأنه من المستبعد أن يجازف آل سعود بالدخول في صراع لايستهان به مع القبائل التي "إذا أغلقت الطرق أمامها إلى المراعي ستضطر للتدفق إلى جنوب نجد". وكان هناك مطلب إنجليزي آخر غير مقبول بالنسبة للرياض، وهو منحها امتياز إنشاء ميناء في رابغ على أن يتم ربطه فيما بعد بحيفا من خلال خط حديدي عبر المدينة - عمّان، حيث إن خليج العقبة لم يكن يلبي أغراض القاعدة العسكرية البحرية، مقابل ذلك كانت رابغ تُعد الميناء الوحيد الذي يمتاز بعمق مياهه على شاطئ البحر الأحمر بالجزيرة العربية ويصلح لبناء هذه القاعدة. كما كان هناك مطلب رابع طرحه الإنجليز على الملك عبدالعزيز آل سعود ولكنه "لا يستطيع الآن التحدث عنه".

كان تيورياقولوف في رسائله إلى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية يتطرق إلى مثل هذه المسائل مرارا وبتفصيل مفرط، إذ كان يرى أن رفض الملك عبدالعزيز آل سعود تنفيذ الشروط البريطانية أو قبولها سيكون بمثابة اختبار لتحديد مدى مرونة المملكة السعودية تجاه حلفائها التقليديين، وكانت المعلومات حول علاقة السعوديين بالبريطانيين ومدى اعتماد الملك وحاشيته

على لندن من الأهمية الكبرى بمكان بالنسبة لموسكو، لذلك كان نذير تيورياقولوف يحاول استغلال أي فرصة ليتطرق إلى هذا الموضوع سواء في حواراته مع السعوديين أو مواطني الدول الأخرى ممن كان يتحدث معهم.

فقد أثار تيورياقولوف قضية العلاقات السعودية الإنجليزية خلال محادثاته مع أحد أصحاب النفوذ الكبار في البلاد، وهو يوسف ياسين مستشار الملك، وكان سياسيا محنكا ورجلا من رجال البلاط، ولذا كان يدرك أن قيادة الاتحاد السوفيتي التي أبدت أهم مشاعر الصداقة باعترافها باستقلال الدولة السعودية لا يروق لها على الإطلاق استمرار الاتصالات الوثيقة بين المملكة والبريطانيين.

بالفعل يجب ألا ننسى أن الاتحاد السوفيتي تحديدا كان أول دولة تعترف بالملك عبدالعزيز آل سعود، حيث تم تسليم مذكرة مؤرخة في ١٥ فبراير ١٩٢٦م تفيد اعتراف حكومة الاتحاد السوفيتي بآل سعود ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها، كما تضمنت المذكرة أن حكومة الاتحاد السوفيتي "تعتبر نفسها في حالة علاقات دبلوماسية طبيعية" مع حكومة آل سعود، وردا على ذلك أعرب الملك "عن استعداده الكامل لبناء علاقات مع حكومة ومواطني الاتحاد السوفيتي على مستوى علاقات المملكة نفسها مع الدول الصديقة"، وفي أبريل من عام ١٩٢٧م لُقّب آل سعود "بملك الحجاز ونجد وملحقاتها" وبذلك تم إعلان المملكة في سلطنة نجد، وكان هذا التغيير في الاسم يتوافق مع سعي الملك نحو تأكيد استقلال دولته، ولكن في الواقع الفعلي لم يكن أحد ينوي قطع العلاقات القائمة، وتواصلت العلاقات الوثيقة بين المملكة والبريطانيين.

وكان يوسف ياسين يدرك أهمية حفاظ دولته على التوازن في العلاقات بين الدولتين القويتين الاتحاد السوفيتي وبريطانيا، ولذلك ليس من العجب أنه ارتأى ضرورة توضيح بعض الازدواجية في سياسة الملك آل سعود، مصرحا في الوقت ذاته بأن الجانب السعودي على علم "بطابع مناهضة الإمبريالية الذي يميز السياسة السوفيتية، فنحن على مدى سنين طويلة لمسنا ولا نزال نلمس روح الصداقة التي تتعامل بها الحكومة السوفيتية مع دول الشرق. وبحكم علمي بسياسة عاهلنا يمكن أن أؤكد لسيادتكم أن كافة الظواهر السلبية القائمة هي ظواهر مؤقتة وسيتم قريبا تسوية كافة قضايا العلاقات الثنائية بيننا بما يرضي الطرفين.

ومع ذلك يجب أن أطلع سيادتكم على الوضع القائم لدينا، كل ما في الأمر أننا ليس لدينا حدود مشتركة مع الاتحاد السوفيتي، وتفصلنا عنه مسافة كبيرة، ونحن هنا محاطون من جميع الجهات بأملاك إنجلترا وقواتها، وهذه الظروف وهذا البلد يفرض على الملك الاضطلاع بمهام ثقيلة للغاية، فالملك يأخذ في الاعتبار كل هذه الظروف ويتخذ بعض الخطوات التي تمليها عليه سلامة هذا البلد. وأنا متفق مع سيادتكم في تفسيركم لمسألة المقابل. وفي الختام أؤكد لسيادتكم مجددا إخلاص الملك وتقديره الكبير للسياسة السوفيتية، وأعلن بشكل قاطع أن القضايا التي تشغل اهتمام سيادتكم ستجد حلا في القريب".

لقد ظل تأثير الإنجليز على الملك وحاشيته يشغل حيزا كبيرا من اهتمام نذير تيورياقولوف طوال السنوات الثمانية التي قضاها في منصب المندوب

المفوض، حيث كان يتطرق دوما إلى هذا الموضوع في مذكراته التي كان يبعث بها إلى القيادة المركزية في موسكو. فعلي سبيل المثال استنادا إلى المعلومات أبدى تيورياقولوف وجهة نظر تقول بأن العلاقات السوفيتية السعودية في بداية عام ١٩٣٠م "لا يمكن اعتبارها في حالة طيبة" إذا لم نأخذ في الاعتبار إمكانية "الضغط الإنجليزي الذي ربما تمت ممارسته خلال اللقاءات الأخيرة بين ابن سعود والمندوب السامي الإنجليزي في بغداد".

وبالفعل فإن «إذا» هذه عرقلت كثيرا حل مسألة إلغاء القيود المفروضة على التجارة السوفيتية، لأنه في ظل الضغط الإنجليزي القوي المتبل بالوعود بتقديم دعم مالي واصلت الحكومة السعودية تمسكها بالشروط غير المقبولة بالنسبة للاتحاد السوفيتي لتطبيع العلاقات الاقتصادية. وعلى أي حال فقد أعلنت السلطات السعودية رسميا وضع الشروط الآتية للتجارة السوفيتية في البلاد:

"١- عدم السماح للبعثة الدبلوماسية أو القنصلية أو أعضائهما أو من له صلة بهما بعقد صفقات بيع وشراء أو توقيع عقود أو العمل بشؤون التجارة الروسية.

٢- ألا يتمتع مندوب الشركة العاملة بالتجارة الروسية بأي امتيازات دبلوماسية أو قنصلية أو تجارية.

٣- أن يكون هذا المندوب شخصا عاديا يخضع هو نفسه وكافة أنشطته لقوانين البلاد.

٤- الا تقل الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع الروسية عن مثيلاتها على البضائع الأخرى بأي حال من الأحوال.

٥- تتعهد الحكومة السوفيتية بسداد عوائد الأوقاف والعوائد المخصصة لمكة والمدينة إلى حكومة صاحب الجلالة الملكية وتسليم هذه العوائد سنويا في المستقبل.

٦- توافق الحكومة السوفيتية على تيسير سفر حجاجها وحجاج الترانزيت من الدول الأخرى إلا إذا كان بين الحكومة السوفيتية والدول المجاورة لها أي شيء من شأنه أن يؤدي إلى قطع العلاقات الدبلوماسية.

٧- توافق الحكومتان على تقديم المساعدة اللازمة لمواطني البلدين في الدخول إلى البلد الآخر مع الالتزام بالقوانين المحلية.

وتأمل حكومة صاحب الجلالة الملكية أن تتلقى من الحكومة السوفيتية تأكيدا بموافقتها على هذه التدابير حتى يتسنى لحكومة صاحب الجلالة الملكية إصدار الأوامر اللازمة في هذا الشأن".

لقد كانت الشروط قاسية للغاية وارتأى نذير تيورياقولوف -ومعه حق في ذلك- أن معالجة القضية بهذه الطريقة يعني "العودة إلى نقطة البداية ويهدر قيمة المفاوضات". من ناحية أخرى اعتبر المندوب المفوض هذه الطريقة بمنزلة تحول في نهج السياسة الخارجية لآل سعود. ذلك النهج الذي ظهر بعد لقائه مع المندوب السامي الإنجليزي في العراق وبالتالي تحسّن العلاقات الإنجليزية السعودية. كما عد هذا بمنزلة إفشال للمفاوضات السوفيتية

السعودية من قبل جماعة النفوذ الإنجليزية السعودية التي كان تيورياقولوف يطلق عليها "فرقة ريان - فيلبي - حمزة".

وفي خطابه إلى قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية يكتب تيورياقولوف أن العلاقات بين البلدين في تلك الفترة "ينبغي وصفها كالتالي: المفاوضات الرسمية مع الحكومة الحجازية توقفت عمليا، ومحاولات إيجاد طريقة بديلة لمعالجة القضايا يشير إلى أن الحكومة الحجازية ليس لديها رغبة في التقارب معنا وإقامة علاقات متينة على أساس المعاهدات، وفريق فؤاد حمزة يحاول بكل السبل إفشال مفاوضاتنا بصورة نهائية مستغلا التقدم في العلاقات الإنجليزية السعودية، وربما يكون معتمدا في ذلك على مساندة مباشرة من إنجلترا والخصوم المحليين، ومن المحتمل تماما أن موضوع المعاهدة السوفيتية الحجازية كان من بين القضايا موضع المساومة السياسية بين إنجلترا والسعودية... أثناء لقاء ابن سعود مع المندوب السامي الإنجليزي في العراق. أيضا هذا الافتراض الأقرب إلى الحقيقة هو السبب في رأيي وراء التحول الحاد الذي تجلى في يوليو من هذا العام في الشروط التي تعلمونها".

ومن الواضح أن الجانب السوفيتي قد خسر هذه الجولة في الصراع من أجل التأثير على الملك، حيث يعترف تيورياقولوف أن المهمة الرئيسة التي أوكلتها إليه قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية "وهي صياغة العلاقات السوفيتية الحجازية في شكل معاهدة صداقة وتجارة لم نقم بتنفيذها، فالمفاوضات الرسمية التي استمرت قرابة العام لم تسفر بعد عن نتائج

محددة، ودخلت في طريق مسدود". بالإضافة إلى أن العلاقات السياسية الخارجية للملك آل سعود قد جنحت عن "المسار المرجو بالنسبة لمصالحنا، فإلى جانب إنجلترا التي كانت تضع كافة العراقيل أمامنا في الجزيرة العربية بدأت تظهر منعطفات فرنسا التي لن تقل محاولاتها عن محاولات إنجلترا في عدم السماح لنا بالدخول إلى الحجاز".

وكان الخصم الرئيس لتيورياقولوف في ذلك الوقت هو فؤاد حمزة الذي كان صاحب المبادرة بطرح تلك الشروط القاسية، كما كان بمنزلة القوة التي استطاعت التأثير على الموقف الأكثر مرونة للعاهل السعودي وإجباره على التخلي عن الوعد الذي أعطي من قبل. وقد جاء هذا الوعد في بيان وزير خارجيته في ١٤ ديسمبر ١٩٢٩م، حيث تضمن إعلاناً رسمياً باسم رئيس الدولة بإلغاء «نظام الاستثناء». وظهر لدى القيادة السوفيتية العديد من الأسئلة مثل: فيم التأخير؟ وما السبب وراء التعامل مع القضية بهذه الطريقة التي تجعل المفاوضات السعودية السوفيتية غير ممكنة؟ وهل كان الملك في تلك الفترة لايزال يعتبر توقيع معاهدة سياسية وتجارية مع الاتحاد السوفيتي أمرا يتمنى تحقيقه؟

وبعث المندوب السوفيتي توصياته إلى موسكو بشأن مواصلة المفاوضات، حيث ارتأى أن عرض هذه القضايا الحادة على الملك مباشرة "يؤدي بنا حتما إلى ضرورة أن نشرح للملك بصراحة خلفية تصرفات فؤاد حمزة". ولم يستبعد تيورياقولوف أن يتعلل الملك في هذه الحالة بتأزّم الأوضاع في بلاده ليبرئ أقرب رجاله. ووقتها "قد يبقي أمامنا بطبيعة الحال وقف التفاوض

مؤقتا، أما إمكانية هذا الرد من جانب الملك فهو أمر متوقع تماما إذا أخذنا في الاعتبار تأزّم الوضع الذي تواجهه الحكومة والبلاد بالفعل".

ولم ينحصر التنافس السوفيتي البريطاني على أراضى الجزيرة العربية في الساحة القريبة من العرش الملكي فحسب، وإنما تعدى أيضا إلى مجال الدبلوماسية البروتوكولية البحتة، حيث دار سباق أطلق عليه تيورياقولوف نفسه «النزاع التاريخي مع الإنجليز من أجل عمادة السلك الدبلوماسي»، وكانت الغلبة هنا لتيورياقولوف، حيث أبلغ موسكو أن الأمر قد حُسم "لصالحنا، فكما تعلمون حتى الأونة الأخيرة لم نكن «نلتقي» مع الإنجليز (بوند)، فهم لم يرغبوا أن يبادروا بزيارتنا، ومع وصول المبعوث الإنجليزي السير اندريو ريان انفرج الموقف حيث قام السير ريان بزيارتنا (وكنت وقتها أؤدي فريضة الحج)، والآن تطبعت العلاقات بيننا وبين الإنجليز تماما. وفي الاحتفالات الرسمية احتل أنا المكانة الأولى وريان الثانية... وريان يتصرف معي بأدب بالغ حيث يتعامل معي في بعض الأحيان بصفتي عميد الدبلوماسيين".

ومع تعيين «مدبر المكائد العجوز المحنك السير اندريو ريان» في جدة شهدت سياسة إنجلترا في الجزيرة العربية بعض التطورات، حيث لمست لندن في الاتحاد السوفيتي منافسا قادرا على إزاحتها من مواقعها الراسخة كما كان يبدو لها، ولذا اضطرت للتخفيف بعض الشيء من حدة سياستها في المنطقة، حيث اتخذ البريطانيون عددا من التدابير، مثل تسليم الدويش وتحويل القنصلية الإنجليزية في جدة إلى بعثة ووقف حملة الهجوم على السعودية في الصحافة الناطقة بالإنجليزية والعربية... إلخ، وكانت هذه

التحركات كفيلة بإظهار التكتيك «السلمي» الجديد لدى الإنجليز للتغلغل في الجزيرة العربية.

وأجرى تيورياقولوف تحليلا للجوانب المستجدة في العلاقات السعودية البريطانية، مشيرا إلى حدوث بعض الضعف في تأثير الإنجليز على الملك من ناحية، وتغيير لندن لتكتيكها من ناحية أخرى، وبدأ يتكشف تدريجيا الهدف من تعيين ريان الدبلوماسي الماهر صاحب الخبرة، حيث كان يتعين عليه استمالة الملك آل سعود "للاستسلام بالطرق السلمية مادامت أساليب الاستفزاز قد باءت بالفشل، وتمكن ابن سعود من القضاء على الدويش وإن كان هذا قد تم بعد عناء كبير. والأحرى أن نقول: إن ريان يجني ثمار السياسة العدوانية السابقة، فابن سعود المنهك من الصراع مضطر لقبول الحلول الوسط ليلتقط أنفاسه، ومن هنا ندرك السبب وراء استمرار ابن سعود في الاستفادة من خدمات ونصائح فريق فؤاد حمزة - فيلبي. فالتخلي عن خدمات هذه الطغمة التي تورط فيها - حسبما تشير بعض الدلائل - السوري يوسف ياسين مستشار الملك الذي كان يتخذ من قبل موقفا مستقلا، كان من شأنه أن يعني في ظل هذه الظروف عدم رغبة ابن سعود في تسوية العلاقات ومحاولة الاتفاق مع إنجلترا".

إن الدور الخاص الذي كان يؤديه «عبدالله» فيلبي في القصر الملكي، وكذلك الخطوات التي كان يتخذها لتعجيل محاولات الإنجليز الرامية إلى إقامة وجود لهم بصورة شرعية في المناطق التي من شأنها أن تكون من العناصر المهمة للعبة في المستقبل، كل ذلك أجبر نذير تيورياقولوف أن

يجعل فيلبي في دائرة اهتمامه دائما. وكان من بين المحاولات المشار إليها - من وجهة نظر تيورياقولوف - هو "سعي الشيخ عبد الله فيلبي للحصول لنفسه على امتياز استغلال الثروات الطبيعية في ضبا والوجه ومناطق أخرى، ولابد أن نفترض أن اعتناقه للإسلام إنما يرجع بدرجة كبيرة... إلى خططه للحصول على الامتيازات، لأن تنفيذ هذه الخطط دون تهيئة الرأي العام كان سيلقى سخطا شديدا وسيثير الشبهات حول ابن سعود".

والآن من الصعب التكهن إلى أي مدى سيتمكن فيلبي من تنفيذ خططه هذه، فرغم توافر بعض الظروف الملائمة لتعزيز النفوذ المطلق للإنجليز في قصر ابن سعود إلا أننا نلاحظ في الأونة الأخيرة عددا من الدلائل البارزة التي تنذر بظهور شريك جديد في اللعبة الإنجليزية السعودية، وعدم رغبة هذا الشريك في السماح بمواصلة تعزيز النفوذ الإنجليزي. وأقصد بهذا الشريك فرنسا.

إن ظهور لاعبين جدد من الأجانب على الساحة الاقتصادية والسياسية في المملكة السعودية أتاح لتيورياقولوف المزيد من فرص المناورة، فقد ظلت فرنسا لا تبالي بشبه الجزيرة العربية حتى بداية عام ١٩٣٠م، وكان دور قنصليتها في جدة (وكان يمثلها سكرتير القنصلية وهو موظف شاب يدعى جو) ينحصر كلية في تسجيل الحجاج الوافدين من المستعمرات الفرنسية ومراقبة المهاجرين السوريين... إلخ.

بيد أنه مع وصول حزب العمال إلى السلطة في إنجلترا تفاقمت العلاقات

الإنجليزية الفرنسية في الحجاز ونجد بشكل ملحوظ، حتى أن تيورياقولوف كان يرى أنها اقتربت من حد «التنافس».

من ناحية أخرى أدى نشاط التحركات الفرنسية في المنطقة إلى حدوث تحسن كبير في العلاقات الفرنسية السعودية، حتى وصل هذا إلى إمكانية أن تقوم باريس بترشيح أنصارها لشغل المناصب الحكومية في المملكة، ولعل من هذا القبيل أن قام الملك بتعيين خالد كاركاني، ابن طرابلس الكفء النشيط والعدو اللدود للطليان، في منصب مساعد المندوب الملكي في الحجاز، وكذلك تعيين نبيه الأودمة، السوري الموالي للفرنسيين، رئيسا لإدارة الجيش النظامي التي استحدثت مؤخرا. وكتب تيورياقولوف إلى موسكو بهذا الصدد يقول: "أشير بشكل خاص إلى أن خالد بن كاركاني الذي يعد وكيلا للشركات الفرنسية قد ارتقى بشكل ملحوظ وشغل منصبا مهماً للغاية هو منصب مساعد المندوب الملكي، وذلك بعد إلقائه سلسلة من الخطب الناجحة"، ثم يستطرد تيورياقولوف قائلاً: إن هذا أتاح إمكانية السيطرة لدرجة ما، بل وأحيانا الحد من قوة التأثير الكبير لفريق حمزة - فيلبي على الأمير فيصل.

كل هذه الحقائق مجتمعة تدل بلا شك على حدوث تطورات جوهرية في سياسة فرنسا تجاه المملكة العربية السعودية، فالبعثة الدبلوماسية الفرنسية في جدة التي كانت تتسم من قبل بعدم الاكتراث بدات تنشّط من عملها، إذ أبت كما هو واضح أن تظل في المملكة في موقف المتفرج غير المكترث، وبدوره أخذ الملك آل سعود في الاعتبار التوجهات الجديدة في السياسة

الفرنسية، ولذا لم يكن - على حد قول تيورياقولوف - "ضد أن يتحسس مدى جدية وصلابة الموقف الفرنسي بل وأن يستغله أحيانا في صالحه، مثلما حدث في مسألة الكوليرا". ومما أثلج صدر تيورياقولوف هو إدراج الفرنسيين في العمليات السياسية في المملكة قد حدث - كما هو واضح - على حساب البريطانيين.

لقد أصبحت الشخصيات المستجدة في حاشية الملك بمنزلة ثقل موازن لجماعة حمزة - فيلبي. وقد ساعد ظهورها بلا شك على تدعيم تلك القوى القليلة التي طالما حاربت من قبل من أجل كسر نفوذ هذه الجماعة ولكن دون جدوى. وبالطبع ساندت القوة الجديدة عبد الله سليمان وزير المالية المناهض للجماعة المذكورة، الأمر الذي مكنه من تركيز جميع وردات الحكومة من السلع في يده. ولو كان هذا الخبر صحيحا لكان معناه - على حد تأكيد تيورياقولوف - حرمان "حلف حمزة - فيلبي واحدا من أكبر مصادر الدخل غير المشروع لديهما".

وبما أن الهولنديين لم يكونوا «إمعة للإنجليز» في كافة القضايا على طول الطريق فقد تمكن المندوب المفوض من إقامة علاقات جيدة معهم أيضا، فعلى سبيل المثال تشير أوراق الدكتور موشكوفسكي الذي كان يعمل تحت إشراف البعثة الدبلوماسية السوفيتية إلى أن "الهولنديين في مسائل الحجر الصحي لا يبدون دائما تضامنا مع الإنجليز"، وتحولت القنصلية الهولندية في جدة شأنها شأن معظم القنصليات الأخرى إلى بعثة دبلوماسية. وتم تعيين القنصل السابق فان ميولين قائما بالأعمال، إلا أن هذا لم يحرك الهولنديين، فظلوا على ما هم عليه لا يبدون نشاطا سياسيا ملموسا ولا يعيرون الحياة السياسية

والاجتماعية في البلاد اهتماما ملحوظا. "فكل عملهم يتلخص في تنمية نشاط مؤسساتهم التجارية والمراقبة البوليسية للإندونيسيين"، هكذا كتب عنهم تيورياقولوف مشيرا في الوقت نفسه إلى أن "العلاقات الشخصية والثقافية بيننا وبين البعثة الهولندية مرضية تماما".

وفي بداية عام ١٩٣٠م كانت كافة شؤون المملكة تتركز عمليا في أيدي «الثلاثي» الذي كان يتكون من الأمير فيصل، والسوري فؤاد حمزة والإنجليزي عبد الله فيلبي وكان هذان الأخيران يؤثران على الأمير إلى حد ما، وقد كتب تيورياقولوف يبلغ رؤساءه: "إننا نلاحظ في الوقت الراهن تدهورا في نفوذ فيلبي، وجوا من عدم ارتياح الملك والنجديين تجاه فؤاد حمزة". وفي الوقت نفسه اتضح لقيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية من خلال رسائل تيورياقولوف أن هناك توزيعا جديدا للقوى في المملكة، حيث يمكن القول عن يقين إنه في نهاية العام المذكور نفسه (١٩٣٠) تشكلت هناك مجموعتان تضمان الأجانب والسعوديين على حد سواء، وتمتلكان فرصا متساوية للتأثير على سياسة الملك آل سعود وحكومته، ولكنهما تقفان على طرفي النقيض.

كانت تجري عمليات إزاحة تدريجية للشخصيات الموالية لإنجلترا من دائرة الملك، حتى أن الملك آل سعود -سعياً وراء الحصول على قرض- استدعى خبيرا مصرفيا هولنديا ليعمل مستشاراً مالياً، وفي الوقت نفسه أبدى عدم رغبته في أخذ أموال من إنجلترا، رغم أنها لم تكن ترفض منح القروض للحجاز. فمقابل القرض كانت لندن تحصل على فرصة لتطلب عددا

لا حصر له من التنازلات الإقليمية والاستراتيجية. وبات من الواضح أن البريطانيين قد بدؤوا يفقدون حظوتهم.

وقد تجلى ذلك عند تشكيل أول مجلس للوزراء في تاريخ الدولة السعودية، حيث تراس المجلس الأمير فيصل الذي شغل في الوقت نفسه منصبي وزير الداخلية ووزير الخارجية، ولم يضم المجلس إلى جانبه إلا عضوين آخرين وهما وزير المالية ورئيس مجلس الدولة. وكان نذير تيورياقولوف يرى "أن هذا التحرك في الواقع كما لو كان يزيد من رقابة الأمير فيصل على وزير المالية عبد الله سليمان الذي كان حتى ذلك الحين يتمتع باستقلالية كبيرة وكان مكروها للغاية بين طبقة التجار والدوائر الأجنبية في البلاد. من ناحية أخرى نلاحظ أن هذا التشكيل يستثني فؤاد حمزة ذلك السوري نصير الإنجليز والمشرف عمليا على الشؤون الخارجية، حيث وُضع في وظيفة مساعد وزير الخارجية. وفي اللحظة الأخيرة تم إدراج شقيق عبد الله سليمان وشريكه في النهج ضمن تشكيل المجلس بصفته عضواً كامل العضوية. حيث شغل منصب مدير القرارات المالية، وبهذا يضم المجلس جناحا نجديا قويا إذا أخذنا في الاعتبار تأثير عبد الله سليمان على الملك". وبالطبع أسعد هذا المندوب السوفيتي لأنه استطاع بفضل محاولاته أن يقيم علاقات طيبة للغاية مع فريق النجديين وخاصة عبد الله سليمان.

وفي غضون ذلك واصلت العلاقات السعودية الإنجليزية تفاقمها في عام ١٩٣١م، وكان السبب في هذه المرة هو الضغط المتزايد من قبل الإنجليز على الحدود الشمالية. حيث شرعوا في بناء التحصينات في الأراضي الأردنية

لحماية خط السكك الحديدية حيفا- بغداد، وفي الوقت نفسه تم الإعداد لفصل الجوف عن الحجاز. كما كان لسلوك الشركات الإنجليزية دور في تفاقم الوضع، حيث كانت تتصرف كما لو كان لها حق احتكار التجارة في الحجاز، أيضا الأزمة المالية ومحاولات استغلال الوضع الاقتصادي المتأزم لفرض قرض مجحف على النظام السعودي أثار بالطبع موجة حادة من السخط في المملكة.

وكانت البعثة الإنجليزية تحاول بكل السبل بمساعدة الهولنديين أن توعز إلى السعوديين أن المخرج الوحيد هو الخضوع لمطالب لندن، إلا أن وضع عبدالله فيلبي النصير غير الرسمي للسياسة الإنجليزية كان في ذلك الوقت قد تزعزع كثيرا، كذلك لم تلق الخطط الإنجليزية لتكوين ما يسمى بالفيدرالية العربية قبولا. كل هذا أدى إلى احتدام الصراع داخل الحكومة بين الفريق «السوري» الموالي للإنجليز على طول الخط وفريق النجديين بقيادة عبد الله سليمان، حيث قرر النجديون البحث عن مخرج من الوضع القائم عن طريق التعاون مع المؤسسات التجارية السوفيتية، فقاموا بإبرام صفقة مع مؤسسة "سويوز نفط اكسبورت" رغم المقاومة الشديدة والتخويف من قبل «الفريق البريطاني».

لقد كان هذا -في الواقع- تمردا ضد النفوذ البريطاني الذي كان قد فقد تأثيره، إذ حاولت لندن استغلال الأزمة الاقتصادية والمالية العالمية لإخضاع الحجاز بشكل كامل وقاطع، ولم يتجرأ نذير تيورياقولوف على تحديد "مدى صلابة هذه التحولات في الوقت الراهن". إلا أنه سرعان ما تأكد أن "الرأي

الأول والحاسم في كافة القضايا هو رأي الملك ابن سعود نفسه الذي أصبح أكثر استقلالية وشجاعة في سياسته تجاه الاتحاد السوفيتي، وهو أمر كان له أهميته لاسيما وأن المندوب السوفيتي قد بدأ تدريجيا في إقامة علاقات صداقة وود بمعنى الكلمة مع الأسرة المالكة.

الفصل الثالث

بين هموم العمل
وعمادة الدبلوماسيين

يحلّ السفير، وهو نفسه يربط ما حلّه،
مايفعله السفير فيه خير الشعب كله.
تانتراكهيايكا
(من كتاب المواعظ الهندي)

كانت الجزيرة العربية محط انظار الروس منذ زمن، حيث كانت تُنشَر مقالات حول ما يجري في شبه الجزيرة العربية منذ القرن التاسع عشر في مجلة «سوفريمينّيك» التي كان يصدرها الشاعر الروسي الكسندر بوشكين، وكان ما يهم روسيا في ذلك الوقت هو حماية مصالح مسلميها الذين يقومون بأداء فريضة الحج في الأراضي المقدسة،إلا أن البداية الحقيقة للعلاقات بين البلدين كانت في منتصف العشرينيات من القرن العشرين.

وقد جاء عمل نذير تيورياقولوف في منصب المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي في المرحلة الأولى لنشأة الدبلوماسية السوفيتية، حيث تطلب البدء في انتهاج سياسة خارجية إنشاء أجهزة خاصة تابعة للدولة، وفي هذا الإطار أصدر مؤتمر المجالس الثاني لعموم روسيا مرسوما بإنشاء اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية برئاسة تروتسكي، وكان يتعين على اللجنة تدبير أمورها في ظل عزلة دبلوماسية كاملة، حيث لم تكتف الدول الأوروبية برفض الاعتراف

بالسلطة السوفيتية، وإنما كانت تطلب من روسيا مواصلة الحرب، وكان أمام اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية ثلاث مهام رئيسة هي إنشاء الهيكل الوظيفي لها، والتوصل إلى إيقاف الحرب، والحفاظ على محفوظات (أرشيفات) وزارة الخارجية بروسيا القيصرية والاستفادة منها.

وضمت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية إدارتين إقليميتين (إدارة الشرق وإدارة الغرب) وعددا من إدارات العمليات والتشغيل (وهي إدارة التأشيرات وإدارة التسليف وإدارة الإعلام وإدارة حملة الحقائب الدبلوماسية وإدارة الاقتصاد والتشريعات ومكتب شؤون أسرى الحرب، ثم بعد ذلك تم إنشاء إدارة المحفوظات (الأرشيف) السياسي وإدارة المراسم وعدد آخر من الأقسام)، وفي مايو من عام ١٩١٨م صدر مرسوم بإلغاء كافة درجات السلك الدبلوماسي (درجة السفير والمبعوث... إلخ) وإدخال درجة مندوب مفوض، ثم تلا هذا المرسوم مرسوم آخر في أكتوبر من عام ١٩١٨م بإنشاء القنصليات، على أن يتم تعيين أعضائها بمعرفة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية. وكان المندوب المفوض لجمهورية روسيا الاتحادية السوفيتية الاشتراكية يُعد هو الممثل الوحيد لروسيا في الخارج، حيث كان له الحق في القيام بالاتصالات مع حكومات الدولة التي يعمل بها بالنيابة عن الحكومة الروسية. علاوة على ذلك كان من بين اختصاصاته الرقابة على نشاط المؤسسات الأخرى التابعة للدولة السوفيتية داخل أراضي الدول الخارجية.

وبحلول عام ١٩٢٢م كان عدد المندوبين الروس العاملين في الخارج قد وصل إلى أحد عشر مندوبا. وفي بعض الأحوال كانت الحكومة السوفيتية

تعيّن بالعمل القنصلي مواطنين من الدول الكائن بها قنصليتها. فمثلا في إنجلترا تم تعيين الزعيم النقابي المعروف جون ماكلين قنصلا منتدبا، وفي استوكهولم تم تعيين ستريم، وفي الولايات المتحدة الأمريكية جون ريد . وكان يعمل في اللجنة الشعبية في ذلك الوقت كل من تشيتشيرين وليتفينوف وكولونتاي وفوروفسكي وكراسين وراسكولنيكوف وكيرجينتسيف وغيرهم من الدبلوماسيين البارزين. وكانت اللجنة تقوم بممارسة نشاطها على الساحة الدولية في العشرينيات والثلاثينيات في ظل ما يعرف «بالحملة الصليبية» ضد الاتحاد السوفيتي والحظر، حتى أن الأمر قد بلغ حد الاستفزازات السافرة، ففي عام ١٩٢٣م اغتيل في لوزان المندوب المفوض فوروفسكي، وفي عام ١٩٢٦م اغتيل حامل الحقيبة الدبلوماسية نيتّه، وفي عام ١٩٢٧م اغتيل في وارسو المندوب المفوض فويكوف، وفي عام ١٩٢٦م قامت إنجلترا بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي (واستؤنفت في عام ١٩٢٩م).

ومع ذلك شهدت أعوام ١٩٢٤- ١٩٢٥م موجة واسعة من الاعتراف بالدولة السوفيتية كانت تتويجا لجهود متواصلة بذلتها الدبلوماسية السوفيتية على مدار سنين طويلة، حتى أن صحيفة "إزفيستيا" نشرت رسما كاريكاتوريا تصور فيه تشيتشيرين يتصبب عرقا وقد أنهكت قواه وهو يتسلم مذكرات الاعتراف من لفيف من الدبلوماسيين الأجانب الذين حاصروه. فعلى مدار عامين أعلن اعترافه بالاتحاد السوفيتي كل من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان والصين والمكسيك والسويد والنرويج والنمسا والدانمارك واليونان. وشهد مقر اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية في شارع كوزنيتسكي موست

بموسكو لقاءات رسمية مع السفراء الأوائل لهذه الدول. وبدأ نشاط الدبلوماسيين السوفيت يؤتي ثمارا ملموسة في بضع سنين، ففي النصف الثاني من العشرينيات ومطلع الثلاثينيات وقعت حكومة الاتحاد السوفيتي سلسلة من المعاهدات تنص على الحياد وعدم الاعتداء مع كل من تركيا وفارس وأفغانستان وفنلندة وألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

وبعد قيام الاتحاد السوفيتي انتقلت صلاحيات السياسة الخارجية لدى جمهوريات الاتحاد إلى السلطة الاتحادية المركزية، حيث تم إلغاء اللجان الشعبية للشؤون الخارجية بالجمهوريات. وفي ٦ يوليو ١٩٢٣م أنشئت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي، وفي مذكرة موجهة إلى الدول الخارجية بتاريخ ٢١يوليو ١٩٢٣م أعلن تشيتشيرين مفوض الشعب للشؤون الخارجية (رئيس اللجنة - المترجم) عن قيام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية والتعديلات التي أدخلت على نظام الدولة. كما أعلن أن كافة الاتصالات الدولية ستتم منذ هذه اللحظة من خلال اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي. وعُهِد إلى اللجنة الشعبية مهام إقامة العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفيتي والدول الخارجية، وحماية المصالح السياسية والاقتصادية للبلاد، والدفاع عن حقوق المواطنين السوفييت في الخارج والإشراف على تنفيذ المعاهدات والاتفاقيات الموقعة مع الدول الخارجية.

وكانت أجهزة اللجنة الشعبية في الخارج تتمثل في المفوضيات والقنصليات، إلى أن تم في عام ١٩٢٦م اعتماد الميثاق القنصلي للاتحاد السوفيتي الذي أصبحت المؤسسات القنصلية تنقسم بمقتضاه من حيث

أهميتها وصفتها القانونية إلى قنصليات عامة، وأقسام قنصلية بالمفوضيات، وقنصليات، ومكاتب نواب قنصل، ووكالات قنصلية.

وتطلب التوسع في نشاط اللجنة المسؤولة عن السياسة الخارجية السوفيتية تعيين كوادر جديدة، وكانت قيادة البلاد تدرك وقتها أن الإلمام بأحوال الدولة مقر العمل ومعرفة لغتها وعاداتها لابد أن يكون هو الشرط الأساس الواجب توافره في المرشحين للعمل الدبلوماسي، ولذلك أولي اهتمام كبير بالبحث عن أفراد يتمتعون بهذه الصفات ومخلصين في الوقت نفسه لمبادئ الثورة ومثقفين ثقافة شاملة ولديهم خبرة في العمل الحزبي والقيادي، وكان نذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض في المملكة العربية السعودية واحدا من هؤلاء.

ولا يمكن أن نتناول المسيرة الدبلوماسية لنذير تيورياقولوف دون أن نتطرق بعض الشيء إلى سلفه في هذا المنصب كريم حكيموف، حيث إن هذا سيمكننا من عمل تصور أكثر شمولا عن العلاقات السوفيتية السعودية وأحوال المملكة في الفترة التي تولى فيها تيورياقولوف منصب المندوب المفوض هناك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى سيساعد هذا على إدراك أسلوب العمل البرجماتي واللبق في الوقت نفسه والذي كفل الاحترام والتقدير لكلا الدبلوماسيين في المملكة، علاوة على فعاليته الكبرى في ضمان مصالح الاتحاد السوفيتي.

لقد سبق تعيين كريم حكيموف فترة من الاتصالات الأولى بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية والتوصل إلى اتفاق بشأن إقامة علاقات

دبلوماسية بين البلدين، الأمر الذي من شأنه أن يثير فضول الباحثين المعنيين بتاريخ الدبلوماسية. أضف إلى ذلك أنه رغم الاختلاف البين في الأصل ومستوى الثراء بين كلا الدبلوماسيين المتماثلين في العمر فإن هناك تشابها يثير الدهشة في تاريخ حياتهما قبل العمل باللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، وكذلك في تدرجهم بالسلك الدبلوماسي وما تلا ذلك من مصير مأساوي.

ولد كريم حكيموف عام ١٨٩٢م في قرية صغيرة على حدود بين بشكيريا محافظة أورينبورغ، وفي الثانية عشرة من عمره بدأ العمل أجيرا في أملاك الباي[١] المجاورة. وقضى كريم فترة صباه يتنقّل من مكان إلى مكان بحثا عن لقمة العيش فعمل بوابا وكنّاسا عند أحد التجار، وعاملا في السكك الحديدية، وعاملا بأحد مناجم الفحم الحجري، كما جرّب نفسه في العديد من المهن الأخرى، ومع ذلك كان دائما يبدي ميلا إلى الدراسة والتعلّم، ورغم الحالة المادية الصعبة التي كانت تعيشها أسرته ألحقه والده في طفولته بمدرسة القرية، حيث تعلّم الكتابة العربية وقراءة القرآن وغيره من كتب الدين الإسلامي، وفي الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٠م درس في كُتّاب في أورينبورغ ثم في أوفا التي كانت إلى جانب العلوم الدينية تقوم بتدريس مواد التعليم العام إلى جانب اللغة الروسية. وفي تلك الفترة لم يكن حكيموف يتخيل أن إلمامه بنمط الحياة والمعيشة والعادات والتقاليد لدى الشعوب الإسلامية في روسيا القيصرية، وكذلك التعليم الديني المتعمق الذي تلقاه، سيعينه بعد فترة وجيزة في عمله كدبلوماسي قادر على حسن تمثيل مصالح الدولة السوفيتية الشابة

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

(١) لقب كان يطلق على الأثرياء من أصحاب الأملاك في آسيا الوسطى قبل ثورة ١٩١٧م (المترجم).

في دول المشرق العربي. فحكيموف، شأنه شأن تيورياقولوف، انصقل في بوتقة الحرب الأهلية والعمل الحزبي بالدولة.

بدأ حكيموف مشواره الدبلوماسي في عام ١٩٢٠م عندما عُيِّن نائبا لمندوب روسيا المفوض لدى جمهورية بُخارى الشعبية السوفيتية. كما عمل قنصلا عاما في مشهد ورشت (في فارس)، وكان عضوا في اللجنة السوفيتية الفارسية المشتركة، وفي عام ١٩٢٤م رُقِّي إلى منصب جديد حيث أصبح أول وكيل دبلوماسي وقنصلاً عاماً في مملكة الحجاز في شبه الجزيرة العربية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في ديسمبر من عام ١٩٢٢م وخلال مؤتمر لوزان كان قد جرى لقاء بين تشيتشيرين مفوَّض الشعب (رئيس اللجنة الشعبية - المترجم) للشؤون الخارجية بجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية ولطف الله ممثل شريف الحجاز، وبعث تشيتشيرين بخطاب إلى نائبه ليتفينوف يبلغه فيه بمضمون محادثاته مع لطف الله حيث جاء في الخطاب: "... لقد تحدثت عن الرغبة في إعادة افتتاح القنصلية الروسية في جدة، وهو (لطف الله) أيضاً أبدى تصميمه الشديد على ذلك، وأنا بالفعل أرى أن من الأهمية الكبرى أن يكون لنا قنصل في جدة، فهي تقع بجوار مكة، ومكة ممنوع إقامة المسيحيين بها، أما جدة فهي عاصمة مملكة الحجاز، وقنصلنا هناك سيكون في قلب العالم الإسلامي لأن جميع الحجاج يمرون من خلالها، وكثير من الحركات السياسية التي تحدث في العالم الإسلامي وتغيب عن أعيننا الآن ستكون تحت نظر قنصلنا، وسياستنا تجاه العالم الإسلامي تتطلب منا -في رأيي- أن يكون لنا رجلنا في قلب العالم الإسلامي".

واستمرت المفاوضات بشأن إقامة علاقات رسمية بين الاتحاد السوفيتي والحجاز قرابة العامين على فترات، ولم تستقر الاتصالات المنتظمة إلا في نهاية عام ١٩٢٣م عندما وصل لطف الله إلى إيطاليا مبعوثاً للحجاز في روما التي كان يوجد بها بعثة للاتحاد السوفيتي. وفي الثالث من أبريل عام ١٩٢٤م بعث تشيتشيرين بخطاب إلى يورينيف المندوب السوفيتي لدى إيطاليا يبلغه فيه بقرار موسكو بتعيين كريم حكيموف قنصلا عاما للاتحاد السوفيتي في الحجاز، حيث كتب تشيتشيرين بهذا الصدد يقول: "إن قرار الدخول في علاقات دبلوماسية مع الحجاز اتخذته أعلى هيئة [المكتب السياسي لحزب البلاشفة] منذ أن كنت في لوزان... وقد تم تنفيذ هذا القرار... فالاتحاد السوفيتي شأنه شأن كافة الدول الأخرى سيكون له قنصل عام في الحجاز، والحجاز سيكون لها مبعوث في موسكو... ومن الأهمية الكبرى بالنسبة لنا أن ندخل إلى مكة، ولهذا السبب تحديدا قررنا تعيين مواطن مسلم في منصب القنصل العام كي يمكنه التواجد في مكة. وفي الوقت نفسه لم نجد مسلمين يناسبون هذا المنصب غير الرفيق حكيموف رغم أننا بحثنا طويلا. والرفيق حكيموف به بعض العيوب، ولكن عيوب المرشحين الآخرين أكبر بكثير، والرفيق حكيموف اعتاد على سياستنا لأنه شغل مناصب لدينا على مدار سنوات عدة. ولقد قررنا أن يغادر الرفيق حكيموف البلاد متوجها إلى الحجاز في أقرب وقت".

وفي الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٢٤م تسلمت موسكو برقية من وزير خارجية الحجاز جاء فيها أن المكاتبات بين الاتحاد السوفيتي والحجاز

من خلال المبعوث الحجازي في روما قد أوضحت أن لدى الحجاز «رغبة كبرى» في إقامة علاقات رسمية مع الاتحاد السوفيتي، وذكر الوزير الحجازي في برقيته قوله "إننا في انتظار مندوبكم الذي قمتم بتعيينه حسب رؤيتكم". وفي اليوم نفسه قام ميخائيل كالينين بتوقيع أوراق الاعتماد الخاصة بتعيين كريم حكيموف وكيلا دبلوماسيا وقنصلا عاما للاتحاد السوفيتي في الحجاز.

وفي يونيو ١٩٢٤م غادر أول ممثل للاتحاد السوفيتي في الجزيرة العربية موسكو متوجها إلى الحجاز، حيث وصل إلى جدة مع أسرته وأعضاء القنصلية العامة في أواخر يوليو، وقد سُمح له بصفته مسلما بتسليم أوراق اعتماده في مكة إلى حسين شريف الحجاز، وكان ذلك في التاسع من أغسطس ١٩٢٤م، واصبحت بعثة الاتحاد السوفيتي في جدة أول تمثيل رسمي سوفيتي في البلدان العربية، وقضى حكيموف في عمله بالحجاز أربعة أعوام.

وجاء الوكيل الدبلوماسي والقنصل العام الجديد نذير تيورياقولوف ليحل محل حكيموف في هذا المنصب في سبتمبر من عام ١٩٢٨م، بعد أن تم تعيين حكيموف مندوبا لهيئة التمثيل التجاري السوفيتي في الشرق الأوسط «بليجفوستوكينتورغ» في اليمن. ومن الواضح أن تلك الفترة الحرجة كانت تتطلب أن يشغل منصب المندوب المفوض في المملكة السعودية رجل قادر ليس فقط على تعزيز ما تم تحقيقه من تقدم، وإنما أيضا رجل دبلوماسي في مقدوره أن يثبت ذاته -في أفضل صورة وفي أقل زمن- في الدولة مقر العمل، وقد أظهرت الأعوام الثمانية التي قضاها تيورياقولوف في منصب المندوب المفوض في المملكة العربية السعودية أنه قد اضطلع بالمهمة الموكلة إليه على أكمل وجه.

ولكن دعونا نعود إلى الظروف التي بدأ فيها تيورياقولوف مباشرة مهامه الجديدة. كانت شبه الجزيرة العربية آنذاك تشهد أحداثا مهمة، حيث تمكّن حاكم سلطنة نجد -قوي العزم والإرادة عبد العزيز آل سعود- من الإطاحة بحكومة الشريف حسين حاكم الحجاز ساعيا بذلك إلى توحيد أكبر قدر من الجزيرة العربية تحت سلطته. ولهذا السبب وضعت قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية من بين مهامها "... الحفاظ على علاقات الصداقة مع الحجاز... مع عدم تفويت فرصة التواصل مع القوة الجديدة التي ظهرت في الجزيرة العربية وهو ابن سعود"، لأن مصالح الاتحاد السوفيتي كانت تقتضي توحيد أراضي الجزيرة العربية في كيان واحد، "فإذا انتهج ابن سعود سياسة توحيد العرب فسيتفق هذا ومصالحنا، وسيتعين علينا محاولة التقارب معه مثلما فعلنا مع الشريف حسين الذي كان يبذل محاولات لتوحيد الجزيرة العربية".

في تلك السنوات تم تقسيم العالم العربي إلى مناطق نفوذ بين إنجلترا وفرنسا بموجب اتفاقية "سايكس - بيكو"، ولم يكن هناك سوى دولتين وحيدتين من الدول العربية تتمتعان بالاستقلال الفعلي هما دولة اليمن ودولة الحجاز ونجد. ولذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن حدد الاتحاد السوفيتي هاتين الدولتين بالذات ليكون له فيهما تواجد سياسي وتجاري. وفي يناير من عام ١٩٢٦م تم إعلان عبد العزيز آل سعود ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها وكان يبلغ من العمر أربعة وأربعين عاما، وقام بأداء مهمته التاريخية كسليل لعشيرة بدوية عريقة، حيث وحّد مختلف أجزاء شبه الجزيرة

العربية مترامية الأطراف في دولة واحدة. إلا أنه واجه موقفا صعبا لأن مملكته لم يكن لديها سند خارجي متين، فبريطانيا كانت ضد توحيد الجزيرة العربية، وألمانيا لم تكن قد تعافت بعد من الهزيمة، أما الولايات المتحدة الأمريكية فلم تكن في ذلك الوقت تعير المملكة الصحراوية أي اهتمام.

وفي هذه الفترة العصيبة كان من الأهمية الكبرى للدولة السعودية أن تجد لنفسها «حليفا» قويا في العالم، ولذا عندما مدَّ الاتحاد السوفيتي إليها «يد العون» كان ذلك في الوقت المناسب تماما، حيث كان الاتحاد السوفيتي أول دولة في العالم تعترف بالمملكة الجديدة في شبه الجزيرة العربية، وكان ذلك في ١٦ فبراير ١٩٢٦م عندما تسلم آل سعود مذكرة رسمية جاء فيها: "انطلاقا من مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها... تعلن حكومة الاتحاد السوفيتي اعترافها بكم ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها، وبناءً عليه تعتبر الحكومة السوفيتية نفسها في حالة علاقات دبلوماسية طبيعية مع حكومة جلالتكم". وردا على هذا بعث آل سعود بمذكرة أعرب فيها عن "استعداده الكامل لبناء علاقات مع حكومة ومواطني الاتحاد السوفيتي على نفس مستوى علاقات المملكة مع الدول الصديقة".

إن موقف الحكومة السوفيتية التي كانت أول من اعترف بدولة آل سعود كان له أهمية كبرى في تعزيز وضع المملكة السعودية دوليا، ففي حقيقة الأمر دفع الاعتراف السوفيتي إنجلترا وغيرها من الدول الكبرى إلى الاعتراف بالمملكة، رغم أنه من الواضح أنهم كانوا مضطرين لذلك بسبب هزيمة أنصار بريطانيا داخل السلطة في الحجاز.

ومن الواضح أن قرار الحكومة السوفيتية بالاعتراف بالدولة الجديدة في شبه الجزيرة العربية كان خطوة مهمة من قبل دولة ذات نفوذ في العالم وخطوة لها ثمنها، وقد قدّر الملك آل سعود تحركات موسكو حق التقدير، وبذلك وُضِعَت اللبنة الأولى للعلاقات بين الدولتين.

ولكن الوضع الذي كان فيه الملك أملى عليه مواصلة الالتفات إلى لندن، فقد كانت بريطانيا تحتفظ بمكانة قوية في شبه الجزيرة العربية، ولم تكن ترغب في التخلي عن نفوذها في المنطقة الذي ظلت تحارب من أجله عشرات السنين، وقد كتب لورنس العرب عن هذا بنغمة لا تخلو من الفخر بأمّته حيث ما فتئ يؤكد أن المواطنين البريطانيين الذين خدموا في المشرق العربي قد "أسعدهم الحظ بأن جمعوا بين... الإلمام بظروف المنطقة من ناحية والخبرة والفراسة من ناحية أخرى" مما ترك على سبيل المثال انطباعا كبيرا لدى الشريف عبد الله (النجل الثاني للشريف حسين شريف مكة) لدرجة أن "هذا الرجل، رغم أنه كان لا يثق في أحد على الإطلاق، كان يعتبر تدخلهم الحذر ضمانا كافيا لبدء الانتفاضة ضد تركيا، وظل على ثقته بسمعة البريطانيين طيلة الحرب رغم ما كانت تعج به هذه الحرب من مواقف مريبة وخطيرة".

كذلك «ورث» الحاكم الجديد للحجاز إلى حد ما هذه الثقة العمياء في بريطانيا خلال فترة الصراع مع تركيا، الأمر الذي تطلب من تيورياقولوف جهودا ضخمة ليتمكن من النهوض بمكانة البعثة السوفيتية من ناحية ورفع مكانته الخاصة بالمجتمع الدبلوماسي في جدة من ناحية أخرى، ويبدو أنه في نهاية عام ١٩٢٩ وبداية ١٩٣٠م كانت هذه المسائل تُناقَش بشكل موسع في

القصر الملكي والحكومة الحجازية والدوائر الدبلوماسية، لذلك كان تيورياقولوف في رسائله إلى موسكو في هذه الفترة يتطرق كثيرا إلى المسائل الخاصة بوضع البعثة.

ففي ذلك الوقت كانت إدارة الشؤون الخارجية بالحكومة الحجازية تفكر بين الحين والآخر في إنشاء بعثات دبلوماسية لها في الخارج، وكذلك رفع درجات المبعوثين الأجانب المعتمدين لدى الملك، حيث أشار فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة أن من المزمع إيفاد مبعوث واحد إلى إنجلترا وهولندا ومبعوث إلى فرنسا وسويسرا (أو ألمانيا) ومبعوث إلى الاتحاد السوفيتي وتركيا. وهذا يرجع إلى عدم توافر الكوادر ولأسباب اقتصادية. وقد أثارت مسألة البعثات السعودية بالخارج قضية رفع درجات المبعوثين الأجانب في جدة وعلى رأسهم المبعوث الإنجليزي بوند الذي كان في ذلك الوقت على درجة قائم بالأعمال.

وبالطبع لم يكن في مقدور تيورياقولوف التأكد مما ستنتهي إليه هذه الأفكار. وهل سيستوي الجميع في الدرجات أم أن المبعوث الإنجليزي سيكون أعلى من الآخرين، ولكن يمكن الإشارة هنا إلى أن فؤاد حمزة بحكم موالاته السافرة لبريطانيا كان حريصا على حل هذه المسألة لصالح الإنجليز. أما موقف فرنسا وهولندا وإيطاليا وتركيا في هذا الشأن فظل مجهولا. وفيما يخص الاتحاد السوفيتي فإن موضوع إنشاء سفارة سوفيتية كان قد طرح أيام حكيموف ولكن الوضع قد تغير الآن. وفي هذا الصدد كتب نذير تيورياقولوف إلى لجنة الشؤون الخارجية يقول: "إن المبادرة على قدر علمي ستأتي هذه

المرة من الحكومة الحجازية. وبناء على ذلك وفي ضوء هذا الوضع الجديد يُطْرَح السؤال: ما الموقف والتكتيك الذي يتعين علينا اتباعه، هذا أولا. وثانيا ماذا بشأن وضع القطاع القنصلي في بعثتنا. فطبقا لتصنيف اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية يوجد لدينا قطاع قنصلي يترأسه طبقا للائحة وطبقا للتقليد الساري الرفيق تويميتوف. وانطلاقا من ضرورة البدء في الاستعداد لإمكانية تغيير وضع بعثتنا أرجو إصدار المستندات اللازمة لرئاسة تويميتوف للقطاع القنصلي حتى اتمكن من تسجيل هذا الوضع هنا في اللحظة المناسبة".

جدير بالذكر أن القيادة في موسكو كانت تعي أيضا أهمية اختصار الوقت والجهد وكانت في أغلب الأحيان لا تهمل في الرد على مقترحات تيورياقولوف، فمثلا بخصوص فصل المهام القنصلية طلبت اللجنة الشعبية من مندوبها إرسال مقترحات محددة، حيث كتبت إليه تقول: "نحن حتى الآن نرى إمكانية أن توكلوا المهام القنصلية إلى أحد أعضاء البعثة خاصة وأن حجم هذه المهام في الحجاز ليس كبيرا، ونحيطكم علما بأن فصل المهام القنصلية في البعثات الدبلوماسية لا يتم بالضرورة عن طريق إنشاء قنصلية منفصلة أو حتى قطاع قنصلي، ومثال ذلك السفارة الفارسية في موسكو، فرغم أن حجم الأعمال القنصلية بها كبير للغاية إلا أنه من الناحية الشكلية لا يعمل بها موظف قنصلي واحد، والسكرتير الثاني بالسفارة هو المكلّف بالمهام القنصلية".

إن سبق الاتحاد السوفيتي في الاعتراف باستقلال الدولة السعودية والشكر الذي كثيرا ما أعرب عنه القصر الملكي والحكومة على هذا الاعتراف

أعطى أملا كبيرا في إمكانية أن يتطلع المندوب المفوض السوفيتي إلى مكانة رائدة في التدرج الدبلوماسي في السعودية، ونلاحظ أن تيورياقولوف قد تطرق إلى هذه المسألة دوما في مذكراته إلى قيادة اللجنة الشعبية. إلا أن هذا الموضوع قد طُرح بشكل قوي في نهاية عام ١٩٢٩م، حيث أكد المندوب المفوض قوله : "إننا هنا نتنازع منذ زمن، من عهد حكيموف بشأن عمادة الدبلوماسيين، وحكيموف لم يتمكن من حل هذه المسألة بوسائله ولا يزال. وكان تكتيكنا في هذا الشأن يتلخص في ترشيح الدبلوماسي التركي، ولكنه للأسف كان دائما يفسد الأمر بتنازله لصالح الإنجليزي وكأن هذا تنازل شخصي منه، وغدا الاثنان يحاولان تدريجيا تثبيت عمادة الإنجليزي كتقليد سار، وكانت آخر محاولة من هذا النوع في الرابع عشر من يوليو خلال الاحتفال بعيد باستيليا بالقنصلية الفرنسية، رغم أنني أبلغت ساني بيه مسبقا من خلال الرفيق تويميتوف بوجهة نظرنا في عمادة الدبلوماسيين ورغبتنا في أن يتحدث هو في احتفال الفرنسيين باسمنا جميعا" .

ترى كم كانت دهشة تيورياقولوف ورفاقه من الدبلوماسي التركي الذي قبل الاقتراح في البداية ثم فجأة قام بأداء دور آخر تماما غير الدور المتفق عليه؟ يروي تيورياقولوف القصة فيقول : "جرى أمام أعيننا هذا المشهد العجيب: بدلا من أن يقوم التركي حسب اتفاقنا بدور كبير الدبلوماسيين نهض في حضور القناصل وممثلي الدولة السعودية وقام بدور مترجم بسيط يترجم كلمة الإنجليزي إلى اللغة العربية، وبدا المترجم قائلا : "المندوب الإنجليزي الموسييه بون يتفضلون بالقول..." . وقد أراد الإنجليزي بهذه الطريقة أن يمرر

قراره خلسة ولو على سبيل السبق. وردا على ذلك قمت باستمالة الفارسي وفي الذكري الثالثة لإعلان الجمهورية التركية سبقت الإنجليزي والقيت كلمة ترحيب باللغة العربية باسم جميع أعضاء السلك الدبلوماسي".

وبعد هذه الحادثة التي فهمها الجميع على أنها عدم رغبة منّا في التنازل عن حقنا تطرق وزير الخارجية في حواره معي إلى موضوع الأسبقية التي ستتبعها الحكومة الحجازية تجاه رؤساء البعثات الدبلوماسية، حيث صرح بأن الحكومة الحجازية ترى أن المركز الأول سيشغله من وجهة نظرها ساني بيه الثاني أنا والثالث موسييه بوند والرابع موسييه ميغريه (الفرنسي). وسألني ف. (فؤاد حمزة -المؤلف) عن رأيي في هذا، فصرحت أنني ليس لدي أي اعتراضات على هذا الترتيب، وعلى هذا الأساس أصبحت أشغل المرتبة الأولى في كل مكان (نظرا لتغيب التركي)، وعززت في نفس الوقت من أسبقيتي على الإنجليزي، ففي الحفل الذي أقامه المحافظ على شرف الأمير فيصل كان مكاني إلى يمين الأمير ولم يعترض أحد من الآخرين على ذلك، وبهذا الشكل يكون ساني بيه قد وُضِع في المرتبة التي كان يتنازل عنها لصالح الإنجليز. وتنتشر هنا حاليا شائعات تقول أن ساني بيه لن يعود، وأن من المتوقع أن يحل محله سكرتير السفارة التركية في مصر (وهو شاب في الخامسة والثلاثين أو السادسة والثلاثين من عمره، من حاشية محي الدين باشا)، وإذا لم يرجع ساني بيه فعلا فهذا معناه أن العمادة ستكون لنا". ومع ذلك كان تيورياقولوف يدرك بنفسه، ويحاول أن يبلغ قيادة اللجنة الشعبية أن الحديث لا يدور بعد عن الإقرار بريادته بين أعضاء السلك الدبلوماسي وإنما يدور فقط عن اعتراف الحكومة السعودية بأسبقيته.

وفي غضون ذلك كانت هيبة تيورياقولوف ونفوذه بين الدبلوماسيين الأجانب في تزايد مستمر، وقد ساعد على ذلك بدرجة كبيرة سعة ثقافته ومعرفته للغة وقدرته على الموازنة بين مصالح أطراف عديدة في آن واحد، وكذلك علاقاته الوثيقة مع الإدارة المحلية، فاقترابه من شغل مرتبة عميد الدبلوماسيين كان نتيجة منطقية لعمله المتميز.

وفي خطابه إلى ليتفينوف مفوض الشؤون الخارجية السوفيتي بتاريخ ١٦ أبريل ١٩٣٠م كتب تيورياقولوف يقول إن "نزاعنا التاريخي مع الإنجليز من أجل عمادة الدبلوماسيين يعتبر قد انتهى لصالحنا، فكما تعلمون حتى الآونة الأخيرة لم نكن «نلتقي» مع الإنجليز (بوند)، فهم لم يرغبوا أن يبادروا بزيارتنا، ومع وصول المبعوث الإنجليزي السير اندريو ريان انفرج الموقف حيث قام السير ريان بزيارتنا (وكنت وقتها أؤدي فريضة الحج)، والآن تطبعت العلاقات بيننا وبين الإنجليز تماما. وفي الاحتفالات الرسمية أشغل أنا المرتبة الأولى وريان الثانية والموسيه ميغريه القائم بالأعمال الفرنسي الثالثة وعين المُلك الرابعة. وأشير هنا إلى أن ريان يتصرف معي بأدب بالغ حيث يتعامل معي في بعض الأحيان بصفتي عميد الدبلوماسيين". وظل الغموض يخيم على وضع التركي ساني بيه «منافس» تيورياقولوف في الصراع على منصب العميد، ولكن لم تصل أي أوامر من أنقرة بشأنه فأصبح غير راض عن وضعه هذا مما جعله يبتعد عن حضور الاحتفالات حتى «لا يجلس في الصفوف الخلفية».

وسرعان ما أقر الدبلوماسيون الأجانب بالوضع الجديد لتيورياقولوف، ففي احتفالات التتويج التي جرت في وادي فاطمة في التاسع من يناير عام

١٩٣٠م ألقى تيورياقولوف بصفته «عميد الدبلوماسيين» كلمة ترحيب باسم أعضاء السلك الدبلوماسي، كما أصبح الجميع يتوجهون إليه تحديدا في حالة ظهور أي نزاعات أو سوء فهم سواء في المجتمع الدبلوماسي أو الدوائر الأجنبية بشكل عام، فقد حدث هذا مثلا عندما ظهرت بين الإنجليز فكرة إنشاء ناد أوروبي، وقد كتب تيورياقولوف عن هذا يقول: "بوند يترأس الموضوع، وفيلبي «الشارجيه دافير» (القائم بالأعمال - المترجم) الإنجليزي في صفوف المعارضة، حيث يطالب بمشاركة جميع الأوروبيين في هذا الموضوع ويتهم بوند بالاستعجال في هذه المسألة، رغم أنه من المفترض أن يغادر بوند جدة قريبا". حتى أن فيلبي ارتأى من الضرورة أن يرسل إلى تيورياقولوف نسخة من مكاتباته مع بوند بهذا الخصوص مسجِّلا عليها عبارة "إلى تيورياقولوف بصفته عميد الدبلوماسيين". ومن جانبهم أرسل القائمون على تنظيم النادي إلى البعثة السوفيتية ميثاق النادي الذي قاموا بصياغته. ورد تيورياقولوف على فيلبي بكل ما يملك من دبلوماسية قائلا إنه "لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه مناقشة موضوع يخص مجموعة محدودة من الأوروبيين".

ومن بين القضايا الرئيسة التي كانت تشغل تيورياقولوف هو وضع البعثة التي تُعد في حقيقة الأمر واجهة الدولة، ولاسيما أن المجتمع الدولي كان في ذلك الوقت يعطي أهمية كبيرة لهذه المسائل التي يبدو للوهلة الأولى أنها مسائل شكلية، ولذلك كان هذا الموضوع يشغل دائما حيزا في مكاتبات تيورياقولوف إلى موسكو، حيث يقول في إحدى مذكراته: "وانتقل إلى موضوع درجات البعثات الدبلوماسية حيث يمكنني إبلاغكم بما يلي: خلال محادثاتي

الأخيرة مع ف. سألته عن تصوراته بشأن الدرجات وإيفاد البعثات الدبلوماسية إلى الخارج، وكرر شكواه القديمة من ضرورة التزام الحكومة بترشيد الإنفاق وعدم توافر الكوادر المناسبة، وأضاف في الوقت نفسه فإن الحكومة تود منحي والإنجليزي والتركي والفرنسي درجة واحدة، مثلا درجة سفير، وأن الفرنسي الموسييه ميغريه (أيضا قدم أوراقه بصفة «شارجيه دافير» (قائم بالأعمال - المترجم) وكان حتى هذا الوقت بدرجة قنصل). وردا على سؤالي حول الموعد والمدة أجاب فؤاد حمزة بأنه سيبلغني بهذا مسبقا. ويمكن التكهن بأن الحجازيين يودّون أولا أن يعرفوا راي لندن بخصوص المندوب الإنجليزي في جدة. وأنا أود - إذا وافقتم على هذا - أن أعلن في اللحظة المناسبة رأينا المبدئي في هذه المسألة وهو أن الجميع سواسية وليس هناك من وجهة نظرنا دول «كبيرة» ودول «صغيرة». وأنا في انتظار تعليماتكم".

وجاء الرد على الفور من موسكو يقول: "نرسل إليكم طي هذا البريد أوراق اعتمادكم مندوباً مفوضاً (مع التمتع بحقوق مبعوث فوق العادة ووزير مفوض). ولإصدار المستندات الخاصة بذلك لابد من استصدار قرار شكلي من اللجنة التنفيذية المركزية وسنقوم بإبلاغكم بهذا لاحقا عن طريق البرق. ونأمل أن تتمكنوا من تحويل القنصلية العامة إلى بعثة بالنظام المعمول به وعدم التخلف عن بقية الأجانب".

بيد أن تيورياقولوف لم يتمكن مع ذلك من تنفيذ تعليمات اللجنة الشعبية بصورة كاملة، ولكنه لم يكن له ذنب في ذلك، فبعض رجال السلطة السعودية

كانوا لا يزالون ينطلقون في تحركاتهم بشأن كافة القضايا ذات الأهمية آخذين لندن في الاعتبار بشكل كبير. ولم يكن من قبيل الدهشة أن حكومة الحجاز لم تعطِ موافقتها على تحويل مكتب التمثيل السوفيتي إلى بعثة دبلوماسية إلا بعد أن وافق «الفورين أوفيس» (وزارة الخارجية البريطانية - المترجم) في ديسمبر ١٩٢٩م على رفع درجة تمثيله في جدة.

ومع ذلك شهدت الأيام الأولى من عام ١٩٣٠م تبادلا للمراسلات بين الحكومة الحجازية وتيورياقولوف بشأن تغيير صفة الوكالة الدبلوماسية السوفيتية. حيث بعث المندوب السوفيتي برسالة إلى فؤاد حمزة تضمنت الآتي: "استنادا إلى بيان فخامتكم بتاريخ ١٤ ديسمبر من العام الجاري أتشرف بإبلاغكم نيابة عن حكومة بلدنا بما يلي: إن بيان فخامتكم بشأن موافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها على تحويل الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة للاتحاد السوفيتي في جدة إلى بعثة دبلوماسية قد قوبل بارتياح كامل، وأود أن أضيف أن قيام البعثة الدبلوماسية يتمشى ورغبة ومساعي حكومتنا التي أعربت عن ذلك في حينه. وأتشرف بإبلاغ فخامتكم بتحويل الوكالة الدبلوماسية والقنصلية العامة للاتحاد السوفيتي في جدة إلى بعثة دبلوماسية. وبهذه المناسبة أعرب عن أملي في أن يساعد هذا على مواصلة تحقيق المزيد من تعزيز وتوسيع علاقات الصداقة القائمة بين حكومتي بلدينا".

ورد فؤاد حمزة على الرسالة بالقول: "أتشرف بتأكيد استلامنا لخطابكم المؤرخ في ١ يناير ١٩٣٠م (١٣٤٨/٨/١هـ) والذي تبلغونا فيها بقرار حكومة

اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية بتحويل وكالتها الدبلوماسية في جدة إلى بعثة دبلوماسية اعتبارا من تاريخ خطابكم المذكور أعلاه. وبهذه المناسبة أتقدم إليكم بالتهاني وأعرب عن أملي في أن يكون هذا التغيير بداية عهد جديد في علاقات البلدين".

وفي ٢٦ فبراير عام ١٩٣٠م سلم تيورياقولوف إلى الأمير فيصل في مكة أوراق اعتماده الجديدة ليصبح مبعوثاً مفوضاً فوق العادة (وهي أعلى درجة دبلوماسية في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت - المؤلف). ولعل من الطريف هو وصف تيورياقولوف في يومياته للظروف التي أحاطت بتسليم أوراق اعتماده حيث يقول: "يوم السادس والعشرين من فبراير ١٩٣٠م، في مكة مرة أخرى، في الساعة العاشرة مساء (وهذه الساعة المتأخرة سببها أننا كنا في شهر رمضان) وصلت إلى الحميدية (في مواجهة الكعبة) برفقة الرفيق تويميتوف وخالد بيه ياور الأمير ملتزمين بكافة بنود النظام المعمول به في السلك الدبلوماسي. يقف حرس الشرف ولفيف من ذوي الفضول، وبعد انتظار دام من ثلاث إلى أربع دقائق في مكتب الاستقبال قام الأمير فيصل باستقبالي في حضور أعضاء وزارة الخارجية. وبعد أن تبادلنا الكلمات قمت بتسليم أوراق الاعتماد. وقد تم اختيار هذه الليلة بالذات التي توافق «ليلة القدر» لتقديم أوراقي. وفي ذلك لمحة مجاملة واهتمام بشخصنا، فهذه الليلة طبقا للعقيدة الإسلامية تعد أفضل الليالي المباركة. ولننتظر ماذا يعد لنا القدر في مكة". وهكذا سلم نذير تيورياقولوف في مكة أوراق اعتماده في منصبة الجديد إلى نائب الملك في الحجاز، وتبادل الجانبان الكلمات، وفيما يلي نصها:

كلمة نذير تيورياقولوف:

صاحب السمو!

لقد أولتني اللجنة التنفيذية المركزية الشرف، وأوكلت إلى مسؤولية كبرى بتعييني وزيرا مفوضا ومبعوثا فوق العادة لدى شخص صاحب الجلالة عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.

والهدف من هذا التعيين هو تدعيم وتعزيز علاقات الصداقة القائمة بين البلدين لحسن حظنا.

وسأبذل كل ما في وسعي لتحقيق هذه المهمة، معتمدا على مشاعر الود السامية وعلاقات التعاطف التي شرفت بها من جانب صاحب الجلالة الملكية ومن جانب سموكم، وأيضا من جانب رجال الدولة منذ وصولي إلى هذا البلد، وآمل أن أحظى بالود نفسه والتعاطف في منصبي الجديد.

وأرجو من سموكم التكرم بإبلاغ صاحب الجلالة الملكية ودي واحترامي وأطيب أمنياتي لجلالته ولأعضاء الأسرة الملكية ولهذا البلد.

كما أرجو من سموكم إبلاغ جلالة الملك وشعبه النبيل أطيب أمنيات رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بالاتحاد السوفيتي. واسمحوا لي أن أقدم لسموكم أوراق اعتمادي الخاصة بتعييني في منصبي الجديد، وأرجو من سموكم تقبل عميق تقديري لشخصكم.

كلمة الأمير فيصل ردا على كلمة تيوريافولوف:

السيد الوزير المفوض والمبعوث فوق العادة!

يسرني أن أتسلم من سيادتكم نيابة عن صاحب الجلالة أوراق اعتمادكم، التي تفضّل بإرسالها السيد رئيس اللجنة التنفيذية المركزية والخاصة بتعيينكم وزيرا مفوضا ومبعوثا فوق العادة لدى شخص صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها.

إن علاقات الود الكريمة التي تكرمتم سيادتكم بالإشارة إليها، والأمنيات الطيبة التي أعربتم من خلالها عن حرصكم على مواصلة علاقات الصداقة والعلاقات الطيبة وتعزيزها إنما هي مشاعر مشتركة تجمع بيننا.

ولاشك لديّ أننا نبدأ اليوم عهدا جديدا في علاقات بلدينا وأن هذا يضع الأساس المتين للصداقة بيننا.

وإني على ثقة من أن سيادتكم ستلقون كل تعاطف وعون من قبل صاحب الجلالة الملكية في أداء المهمة الموكلة إليكم، أما من جانبي ومن جانب رجال الدولة فستجدون رغبة صادقة في مساعدتكم في كل ما من شأنه تعزيز علاقات الصداقة بين البلدين.

وبهذه المشاعر أتسلم أوراق اعتماد سيادتكم نيابة عن والدي الجليل صاحب الجلالة الملكية، وأرجو من سيادتكم التكرم بإبلاغ أسمى التحيات وأطيب الأمنيات إلى فخامة السيد رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بالاتحاد السوفيتي وإلى شعبه النبيل نيابة عن صاحب الجلالة الملكية وشعبه.

وأتمنى لسيادتكم التوفيق في عملكم.

وتعليقا على هذا الحدث ذكرت صحيفة "إزفيستيا" في عددها الصادر في ٣ يونيو ١٩٣٠م أن مسمى «الوكالة والقنصلية العامة» كان يطلق عادة على مكاتب التمثيل في الدول التي "لا تتمتع بالسيادة الكاملة" وأن "إقرار الاستقلال الفعلي والشكلي لدولة ابن سعود كان نتيجته إلغاء هذا الشكل القديم من مكاتب التمثيل الأجنبي". ومع ذلك كانت جهود تيورياقولوف وراء اكتساب مكتب التمثيل السوفيتي في جدة الوضع الذي يليق به، ليس هذا فحسب وإنما أكدت هذه الجهود مجددا مكانة الاتحاد السوفيتي على الساحة الدولية. وهذا ما أكده الدبلوماسيون الأجانب على الفور، فما أن تم إبلاغ كافة البعثات الدبلوماسية بتحويل التمثيل السوفيتي إلى بعثة دبلوماسية وتعيين تيورياقولوف مندوبا مفوضا حتى قام كل من «الشارجيه دافير» الفرنسي والإنجليزي (رغم أن الإنجليزي لم يبلغ البعثة السوفيتية بتحويل التمثيل الإنجليزي إلى بعثة دبلوماسية) وكذلك القنصل الإيطالي بإرسال خطابات إلى تيورياقولوف يهنئونه فيها بالمنصب الجديد، بينما قام بقية الدبلوماسيين بالتوجه إليه للزيارة.

وأبلغ توريقولوف موسكو بنغمة لا تخلو من الفكاهة بكامل تفاصيل عملية تحويل التمثيل الدبلوماسي السوفيتي إلى بعثة دبلوماسية ونظرة الدبلوماسيين الأجانب والصفوة السعودية لهذا الحدث، وكذلك «ترَقّيه» حتى وصل إلى عميد الدبلوماسيين، ومن الملاحظ في مذكراته بهذا الشأن انتباهه إلى التفاصيل الدقيقة التي تبدو لأول وهلة تافهة، ولكنها تعد في الواقع مهمة للغاية لمواصلة العمل. ففي إحدى المذكرات نجد ما يلي: "بالنسبة لإبلاغ

مبعوثي الدول الصديقة برفع تمثيلنا سأقوم به بعد تسليم أوراق الاعتماد. وقد جرت مراسم تحويل القنصلية الإنجليزية إلى بعثة يوم الثاني والعشرين من ديسمبر. وأرسل المبعوث الإنجليزي بمذكرة إلى كافة البعثات ماعدا بعثتنا يبلغهم فيها بهذا التحويل وأيضا بتعيينه قائما بالأعمال. وهو مازال يواصل النزاع القديم بشأن عمادة الدبلوماسيين ولذا لم يقم بزيارتي حتى الآن، رغم أنني في كافة الاحتفالات والمآدب التي تقيمها الحكومة أجلس في المقعد الأول (على يمين الأمير) وهو في المقعد الثاني، وبعد كلمته التي ألقاها في القنصلية الفرنسية (في ١٤ يوليو ١٩٢٩م) وترجمها له ساني بيه (؟) قمت أنا بإلقاء كلمة باللغة العربية في العيد الوطني للجمهورية التركية نيابة عن أعضاء السلك الدبلوماسي بصفتي عميد الدبلوماسيين، وقتها رد هو بكلمة باسمه باللغة الفرنسية، وبعده تحدث كل من الموسييه ميفريه والسنيور سولاتسو. وبعد هذه المرة لم يعد بوند أول المتحدثين، مع أنه يحاول بكل السبل التأكيد على أنه يعترف بي عميدا للدبلوماسيين".

وفي مذكرة أخرى نقرأ: "في الثامن والتاسع من يناير ١٩٣٠م جرت احتفالات تتويج في قندارة، على بعد فرسخين من جدة، وفي المساء أقيمت مادبة على حساب خصمنا محافظ جدة، وقد حضرها الأمير وجلست أنا على يمينه وأحمد زكي باشا على يساره، بينما جلس المحافظ على يميني وبعده بوند. وألقى حمزة خطابا مطولا وصف فيه شخصية الملك وكفاحه من أجل استقلال بلاده "مذ كانت الجزيرة العربية ترزح تحت نير الدخلاء". ثم تطرق بعد ذلك بالتفصيل إلى الحالة الداخلية والخارجية للبلاد، مشيرا في حديثه عن

الإنجازات إلى تحويل أربع قنصليات إلى بعثات دبلوماسية (وهي بعثات إنجلترا والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبلاد فارس)... كما تحدث عن إنجازات ابن سعود في إقرار النظام بالبلاد وفي مجال النشاط الثقافي. بعد ذلك -حسب التقليد المعمول به- قام مندوبو المؤسسات المختلفة بإلقاء الخطب والأشعار.

وقد قررت تأجيل كلمتي إلى مأدبة أخرى كان من المقرر أن تتم في اليوم التالي في وادي فاطمة(بين مكة وجدة)، حيث كانت هذه المأدبة تمولها مدينتا مكة وجدة ولها طابع شعبي أكثر من تلك. أيضا لم يتحدث بقية الدبلوماسيين. بعد ذلك جاء حمزة للتحدث معي واتضح أنه كان يتوقع أن أقوم بإلقاء كلمة ردا على خطابه، فقلت له إنه في مثل هذه الأحوال لابد أن يتفق معي مسبقا".

وأثناء الاحتفالات كان تيورياقولوف يواصل عمله، ولم ينس مراقبة وتسجيل العلاقات والتعاملات بين رجال السلطة السعودية مما ساعده على تقييم توزيع القوى السياسية في البلاد وإبلاغ إدارة اللجنة الشعبية بذلك، فنراه يكتب في أحد تقاريره: "لقد حدث شيء يسترعي الانتباه وهو أن حمزة بصفته المسؤول عن ترتيب الحفل لم يسمح «لمندوب جدة» بإلقاء كلمته ووقع خلاف بين حمزة والمحافظ قام الأمير بتسويته في اليوم التالي، حيث رفض المحافظ المشاركة في احتفالات وادي فاطمة، إلا أن الأمير تمكن من إقناع الرجل العجوز بصعوبة وأصلح بينهما، وقبل نهاية الاحتفال غادر حمزة إلى مكة. وقد حضر الاحتفال هذه المرة مندوبون من مكة وجدة على حد سواء، وكان ترتيب الجلوس وفق نظام اليوم السابق نفسه.

وفي اللحظة المناسبة ألقيت كلمة باللغة العربية. بعدها تحدث بوند (باللغة الإنجليزية)، ثم ميفريه (بالفرنسية). وكان تعاطف العرب مع كلمتي واضحا، فقد قوبلت كلمتي بهتافات جماعية من الحضور بينما مرت كلمتا بوند وميفريه دون أي دلالات للتفاعل، وقد حضر الاحتفال -إلى جانب الصحفيين المصريين- عدد كبير من السوريين والكويتيين ولفيف من زعماء البدو. ورغم أنني تحدثت باسم البعثات الدبلوماسية فإن كلمة بوند كان لها هدف واحد، وهو أن يبدي أنه لا يزال يصر على موقفه القديم بعدم الاعتراف بعمادتي، علاوة على دعم هيبة الاسم الإنجليزي أمام رعايا المستعمرات، كل ذلك يؤكد أن بوند قد قرر الاستمرار في موقفه إلى أن يصل المبعوث الإنجليزي الجديد الذي من المفترض أن يقوم بزيارتنا بصفته عضواً مستجداً بالسلك، ويسوي العلاقات بيننا. والعرب يراقبون علاقاتنا «الشخصية» بفضول".

إن رفع مرتبة التمثيل الدبلوماسي للاتحاد السوفيتي و«منصب عميد الدبلوماسيين» هي أحداث يمكن اعتبارها أعيادا بالنسبة لتيورياقولوف في غمرة العمل الروتيني الثقيل والمنهك الذي كان يقوم به، بيد أن هذا العمل لم يكن هو الأصعب، فتيورياقولوف كان يحب عمله ويعكف عليه بتفان وحماس، ولم يكن في الواقع يؤدي عمله خوفا وإنما مراعاة للضمير، ومع ذلك لم يكن رؤساؤه يتفهمون دائما أن هذا التفاني يتطلب جهدا كبيرا وبالتالي لابد من الراحة، حتى أنه اضطر لأن يطلب في إحدى خطاباته إلى اللجنة طلبا شخصيا نادرا ما يحدث، حيث كتب يقول: "أرجو من الإدارة ومنكم شخصيا

حل الموضوع الخاص بي، فمنحي إجازة في يناير هو استهزاء، فبما أنني ليس لدي ملابس شتوية وفي حاجة إلى الراحة وإلى تحسين صحتي فإنني مضطر لطلب تأجيل القيام بهذه الإجازة إلى الصيف". إلا أن المسألة لم تكن تكمن في السعي نحو الرفاهية وأسباب الراحة، وإنما كان هناك سبب آخر في رأي تيورياقولوف وراء عدم إمكانية قيامه بالإجازة الممنوحة له في شهر يناير، الا وهو أن الحياة السياسية في البلاد كانت تدب فيها الحياة في الشتاء، قبيل موسم الحج، وتواجده هناك في هذا الوقت من السنة كان ضروريا، "... فالعودة إلى الاتحاد السوفيتي في الشتاء بغرض الراحة والعلاج أمر لا معنى له"، لذلك فهو يؤجل إجازته إلى الصيف عندما "تتجمد الحياة في البلاد (حتى الحروب تتوقف في هذا الوقت من السنة)، ويكون هناك إمكانية في الاتحاد السوفيتي سواء للراحة أو لتلقي البرنامج العلاجي المعروف".

كذلك كانت الحياة الداخلية والعمل اليومي بالبعثة يتطلب منه رعاية دؤوب، حيث ظلت مشكلة الكوادر من مترجمين ودبلوماسيين وأطباء... إلخ هي إحدى همومه الرئيسة طيلة الأعوام التي قضاها في العمل في جدة، ففي أحد خطاباته الأولى المفصلة إلى اللجنة والموجّه إلى باستوخوف يطرح تيورياقولوف «مسألة المترجم» الذي يؤدي دوراً كبيراً في نجاح مهمته - على حد تأكيده، إذ كتب يقول "لقد توفي الرفيق حكمت بيكينين ليلة السبت العشرين من يوليو في الساعة الثالثة صباحا. وستعرفون سبب وظروف الوفاة من تقرير الدكتور عبد الفتاح (من القنصلية الهولندية). وبعد أن أكد الطبيب الوفاة تم على الفور دفن الجثمان بمقابر أم الحواء في يوم الوفاة نفسه. ولم

يتم تشريح الجثة، لذلك لم يتحدد تطور المرض ونهايته إلا نظريا، استنادا إلى التشخيص.

أما بخصوص ملابسات إصابة بيكينين بالدوسنتاريا الباسيليارية (؟) فهي بالتقريب كما يلي : في صباح أول يوم لزم فيه الفقيد الفراش سألَنا عن أعراض الدوسنتاريا، ويبدو أن اهتمامه بأعراض هذا المرض كان يرجع إلى بداية إصابته به. وفي اليوم التالي (يُذكر أن المرض قد استمر من تسعة إلى عشرة أيام لا أكثر) استفهمت حرمنا نينا تيورياقولوفا من المريض وتوصلت إلى أنه قبل إصابته بيوم أو يومين شرب ماء (غير مغلي بالطبع) في السوق وبعدها أحس بتوعك. وذهب الفقيد فقرأ العديد من الكتب العلمية وعمل بالترجمة لبعض الوقت مع الدكتور باباجان، مستهينا بصحته وضرورة علاجه، زد على ذلك أنه في اليوم الأول من مرضه تناول عشر بيضات (بالصفار) مما زاد من تدهور حالته. واللافت للنظر أنه في الوقت الذي يقوم فيه بغسيل أواني البيت بالصابون كان في الوقت نفسه يسمح لنفسه بشرب الماء قبل غليه وأكل الخضر في الأسواق والبيوت. وقد لوحظ في اليومين الأول لمرضه بداية تعرضه لحالة هوس واضطراب نفسي، وفي اليوم الثالث والرابع بدأ يتخيل أشباحا، وبدأ يمزق ملابسه ويحاول القفز من النافذة بالطابق الثالث، كما فقد تدريجيا إمكانية التعرف على الناس والأشياء، وربما كانت هذه حالة نادرة للغاية من حالات الورم الدماغي.

وطبقا لعادات أهل البلد هنا لا يمكن ترك جثمان الميت في المنزل أكثر من يوم واحد. ثم إن الظروف المناخية هنا لم تكن تسمح بذلك. والباخرة لم

تكن قـد وصلت حـتى ذلك الحين. وفي ظل هذه الظروف اضطررنا لدفن الفقيد على الفور مع الالتزام بالمراسم الواجب اتباعها في بلادنا".

ولم ينس تيورياقولوف وهو ينعى الفقيد ويتألم لرحيله المهام الموكلة إليه حتى في هذه الظروف العصيبة، فنراه يبعث بتقرير إلى موسكو عن كافة رجال السلطة السعودية الذين حضروا الجنازة، كما يبلغ اللجنة الشعبية عن الفرص والإمكانات التي تتفتح أمام البعثة السوفيتية نتيجة الالتزام بتقاليد البلد في الجنازة، فهذا التصرف لم يبدو رياءً لأنه لم يكن به شيء مصطنع يتعارض مع ما كان يؤمن به بيكينين، ولم يكن مجرد رغبة في ترك انطباعات طيبة لدى أهل البلاد.

كتب تيورياقولوف يقول: "حضر الجنازة ساني بيه المندوب التركي ونجل لاري أفندي (القنصل الفارسي)، كما شارك فيها كافة أعضاء جاليتنا هنا. وجاء لتقديم العزاء كل من طه مساعد المحافظ ورئيس الشرطة وسكرتير وزارة الخارجية، وحمدي بيه القائم بمهام المبعوث الفرنسي (حيث أن ميفريه الآن في بيروت وجو في فرنسا) وممثله حسن بيه، بالإضافة إلى التجار ومعارف الفقيد وأصدقائه. كما جاء اليوم لتقديم العزاء أيضا محمد ناصف المعروف.

والخلاصة أن هذه الوفاة قد رسّخت في ذهن الحكومة والدوائر الاجتماعية حقنا في دفن موتانا بمقابر المسلمين، أي أحقيتنا في الذهاب إلى مكة، أما سمعة بيكينين بصفته رجلاً متديناً، فقد عززت هذا الحق. وربما هذا يبدو غريبا بالنسبة لكم ولكنه واقع. من ناحية أخرى التزمنا بالمبادئ الإسلامية في الدفن والجنازة، فلم نضع أي دلالات تظاهر أو أي علامات

مميزة على القبر! وبهذا سيواصل الفقيد تقديم خدماته لنا، أما أسرته فسيكون لها حق الحصول على بعض الإعانات من الدولة".

ومع ذلك ازدادت مشكلة المترجم حدة بوفاة بيكينين، بالطبع لم يكن تيورياقولوف نفسه يواجه صعوبات كبيرة بحكم إتقانه للغات الأجنبية، فقد كتب يقول: "في اتصالاتي بحمزة (وزير الخارجية) لا يزال وسيظل بإمكاني الاستغناء عن المترجم". ولكن عمل البعثة كان يسير في اتجاهات كثيرة، منها على سبيل المثال التعامل مع الصحافة المحلية الذي كان يتطلب مستعربا على درجة من الكفاءة. ولذا نقرأ في مذكرة تيورياقولوف: "والآن ننتقل إلى الحديث عن الأحياء، فنحن بحاجة إلى مترجم. وقد فهمنا من برقية الرفيق أركاديف (هل حل محل مورغونوف؟) أن هناك شخصا مرشحا للعمل مترجماً، ونحن لا نعرف من هو، لذلك رشحت افتراضا الرفيق بلالوف الذي كان يعمل بإدارة الإعلام قسم الصحافة العربية باللجنة الشعبية للتجارة، وأنا أعرفه من دار النشر المركزية حيث كان يعمل بالترجمة إلى اللغة البشكيرية، كما يعرفه أيضاً أعضاء مكتب تمثيل بشكيريا في موسكو، وصفاته: شاب مجتهد قليل الكلام، ليس عضوا في الحزب، أعزب. إذا لم يكن هناك أي موانع كبيرة ضد تعيين بلالوف فإننا نرجو العناية بترشيحنا له، لأننا معنيون بالحصول على شخص ذي خبرة. كما نرجو التعجيل بحل هذه المسألة تجنبا لتدهور عملنا الإعلامي في الصحافة".

وفي مطلع عام ١٩٣١م عندما كان يتم النظر في مسألة سفر تويميتوف أقرب مساعدي تيورياقولوف لقضاء إجازته في أبريل، ثم سفر تيورياقولوف

نفسه في الصيف. كان مندوب المفوض قلقا للغاية من أن البعثة لن يبقى فيها أحد من الذين يتقنون اللغات الأجنبية إتقانا جيدا. وقد كتب في هذا الصدد يقول: "... سيبقى ماتيوشكين بمفرده، وهو لا يتقن لا اللغات الأوروبية ولا اللغة العربية بالقدر اللازم. ومن الواضح أنه لا يمكنه البقاء بمفرده إلا إذا وافقتم على إبقائه خلال الصيف كقائم على إدارة البعثة فحسب، دون تكليفه بأي عمل يخص البعثة سواء في الشؤون الوطنية أو في الاتصال بالمجتمع المحلي. وإذا لم توافق اللجنة الشعبية على هذا فعليها أن تفكر في إرسال أحد الرفاق في الوقت المناسب على أن يكون مؤهلا لهذا العمل ويتحدث اللغات الأجنبية ولو الفرنسية والتركية. وأنا أقول لكم هذا انطلاقا من أنكم ربما تفكرون في أخذ أحد من تركيا مؤقتا. وبالمناسبة اتضح أن ماتيوشكين اكثر كفاءة وإدراكا من كاتيشيف وأكثر مما كنا نتوقع. وأتمنى أن يلم بأعمال تويميتوف قريبا. أما بخصوص اللغات الأجنبية فنعتقد أنه لن يبدأ التحدث قبل مرور عام، وكما يقال: (من لسعته الحية يخاف من الحبل)، فكاتيشيف لم يكن يتقن حتى اللغة الروسية. أيضا المستوى الثقافي للشخص له أهمية كبرى، وأنا لدي أمل كبير في ماتيوشكين، وأتمحك على طريقة نطقه فأجبره على نطق كل كلمة عدة مرات زاجا به في بحر اللغة العربية، وهو لا يضجر، وأحيانا يخطئ في القراءة، ولكنه يجتهد دائما في إخراج «العين» و «الضاد» وما أشبه ذلك. أدعو الله ألا أكون مخطئا في تقديري، والمستقبل كشاف".

بعد وصول ماتيوشكين جرى في البعثة إعادة توزيع للمهام، وكان من المفترض أن يعمل هذا من ناحية على تيسير الأمور. ولكنه من ناحية أخرى

أضاف المزيد من الأعباء. "فتويميتوف يجذب الرفيق ماتيوشكين تدريجيا إلى الإلمام بالأعمال التي كان يقوم بها، حيث يعدّه للاضطلاع بكافة مهامه (المهام القنصلية والحسابات وشؤون المقر وغيرها)... وقد تم تعيين ماتيوشكين سكرتيرا للبعثة براتب مترجم لأن الإمكانات المتاحة لدينا لا تسمح لنا بحل هذه المسألة بشكل آخر. والرفيق تويميتوف ينوي السفر في أبريل، وذلك انطلاقا من انه أولا لا يمكنه العودة إلى الاتحاد السوفيتي في الشتاء بعد أن قضى فترة طويلة في بلد حار، وثانيا لأن البعثة في حاجة إليه في الوقت الحاضر، ولذلك قررنا تغيير راتب الرفيق ماتيوشكين إلى راتب سكرتير بعد سفر الرفيق تويميتوف. ولكن الرفيق ماتيوشكين يطلب الآن تعيينه براتب سكرتير، مستندا في ذلك إلى القرار الإداري الصادر بتعيينه في وظيفة مدير شؤون. أرجو النظر في هذه المسألة وإعطاءنا تعليمات قاطعة مع رجاء تأكيد موافقة اللجنة الشعبية. واستنادا إلى هذا يتعين على اللجنة التفكير في إرسال عضو جديد مناسب بحلول شهر أبريل حتى لا تبدو البعثة خالية بعد سفر تويميتوف وتيورياقولوف".

كان العجز في الكوادر المؤهلة يجبر تيورياقولوف على الا يقتصر عمله على مهامه المباشرة، وإنما يتعداها إلى ترشيح الموظفين وإعداد البدائل، فنراه يكتب إلى موسكو: "استنادا إلى قلة كوادر المستعربين في موسكو أرى ضرورة أن نتجه إلى نظام الإيفاد في مهمات تدريبية لحل المشكلة القائمة لدينا، حيث يمكن إيفاد أحد خريجي معهد الدراسات الشرقية أو طلاب السنوات الأخيرة به في مهمة تدريبة للعمل في جدة، وفي الوقت نفسه يتم تأهيل المتدرب

للعمل في الوكالات والبعثات مستقبلا، وبهذه الطريقة يمكننا توفير مجموعة كبيرة من الكوادر التي تتقن اللغة العربية ليس من الناحية النظرية فحسب وإنما من الناحية العملية أيضا.

فإذا تحدثت هنا باللغة المكتوب بها القرآن فلا تستطيع حتى أن تشتري علبة كبريت من السوق. ورغم ذلك فجامعاتنا ومعاهدنا لا تخرج مستعربين وإنما - نقول مجازا - متخصصين في علوم القرآن غير قادرين على التخاطب إلا مع الأموات والملائكة. إلى جانب ذلك فإن الإيفاد في مهمات تدريبية من شأنه أن يشجع على إقبال الطلاب على قسم اللغة العربية. إذ أن هذا يضمن لهم فرص العمل في المستقبل بشرط توافر قدرتهم على العمل، وفي هذه الحالة لابد من الحد من عدد الطلاب بالقسم العربي في معاهدنا بحيث يكون في حدود المطلوب تجنبا لحدوث «فائض في الإنتاج».

وهناك بالتأكيد مستعربون أقوياء - كأكشورين مثلا - تخرجوا في معهد ناريمانوف ويعملون في اللجنة الشعبية للتجارة في غير تخصصهم، بعد أن أنهوا دراستهم في القسم العربي بامتياز. وبالمناسبة أوجه انتباه سيادتكم إلى الرفيق أكشورين أيضا لترشيحه للعمل كمترجم، فإلى جانب مستواه الجيد في اللغة العربية هو مؤهل أيضا للعمل بالشئون الاقتصادية، وإتقانه للغة الروسية لا غبار عليه مما يمنحه أفضلية على بِلالوف، والمرحوم بيكينين لم يكن لايعرف الروسية فحسب وإنما أيضا لم تكن لديه رغبة في تحسين وتعميق معارفه في هذا المجال، مما كان يضطرنا إلى الترجمة من لغة بيكينين الروسية إلى اللغة الروسية الفصحى، وكان هذا يضيّع وقتا كبيرا عند إعداد المواد الإعلامية لموسكو".

ولكن كانت هناك حالات في عمل البعثة كان رحيل «المترجم العظيم» فيها بمنزلة رحمة من الله بالنسبة لأعضاء البعثة، ومن بين هذه الحالات ما حدث مع المترجم كاتيشيف، فبعد رحيله إلى أرض الوطن كتب تيورياقولوف إلى موسكو متنفسا الصعداء: "... إنني سعيد بأننا بعد رحيل كاتيشيف وأسرته ومجيء إنسان هادئ الطباع أصبحنا نعيش في هدوء بعد الفضائح التي لايمكن أن تراها إلا في ساحات المحاكم الشعبية في موسكو، وكنا نلتزم الصمت. أف!، أنا حتى لم أكن أستطيع أن أوجّه له ملاحظة، فأول وآخر ملاحظة مني لكاتيشيف كانت بأن الرقص حتى الصباح وإحداث ضجيج... بينما يجلس ضيوف غرباء تحتهم (وهو ما كان يحدث بالفعل) هو شيء غير لائق، وكانت النتيجة أن اتهمني كاتيشيف وزوجته بالبيروقراطية... إلخ، حتى أن الحديث وصل إلى حد الدموع التي كانت تُذرَف في أي لحظة. أيضا كنت مضطرا لالتزام الصمت عندما ضرب كاتيشيف زوجته ضربا مبرحا وراحت تصرخ وتستغيث. بعد هذا يبدأ الإنسان في التعامل مع كل شخص جديد بارتياب. إنني أروي لكم كل هذا لا لشيء إلا لأؤكد على أهمية الدقة في انتقاء الموظفين من جميع النواحي".

كذلك كانت هناك مشاكل في الخدمات الطبية بالبعثة، ففي السنوات الأولى كان يلجأ أعضاء البعثة في أي مشكلة تواجههم إلى أي اختصاصي متاح، وأحيانا كانت زوجة تيورياقولوف تنقذ الموقف حيث إنها كانت تحمل شهادة الطب، غير أن هذا لم يكن ضمن اختصاصاتها المباشرة، ولذا كان لابد من طلب إيفاد اختصاصي من موسكو. وجاءت وفاة بيكينين لتكون على حد ما

كتبه تيورياقولوف "دليلا محزنا على وضعنا الصعب. وأنا شخصيا لا أنوي المرض، ولكني أرى من الضروري والمفيد وجود طبيب بالقنصلية لعلاج أعضاء البعثة وأفراد الجالية السوفيتية في المقام الأول". أما فيما يخص الشروط التي أرى ضرورة توافرها في هذا الشأن فهي أن يكون الطبيب (أو الدكتور) له خبرة في مجال تخصصه وأن يكون رجلا بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، ويفضل أن يكون مسلما. وإذا كانت لديه زوجة تمارس الطب أيضا فهذا أفضل. وفي الوقت الراهن تقوم بعلاجنا الطبيبة (اليونانية) Petridis والدكتور الهولندي الجاوي الأصل عبد الفتاح (الذي كان يعالج بيكينين)، وهذه مسألة غير مريحة بالمرة. أضف إلى ذلك أن الأهالي هنا يتساءلون إذا كان سيتوفر لدينا هنا طبيب أم لا، ورغم أن الرفيق تويمتيوف يرى أنه من الأفضل التوقف عن استقبال المرضى للعلاج بالعيادة تجنبا «للأقاويل» كما كان يحدث في الماضي إلا أنني أظن أنه من الممكن بل والمفيد بالنسبة لمصالحنا المشتركة أن نواصل استقبال المرضى من الرعايا السوفييت للعلاج وعدم حصر نشاط طبيبنا داخل جدران القنصلية. وفي الوقت الحاضر نقترح دعوة زوجة الدكتور باباجان للعمل موظفة محلية، وهي من المفترض أن تصل قريبا على الباخرة «لوسيا» وتبدي موافقتها على العمل لدينا على حد ما ذكره الرفيق حكيموف، وقد وصلتنا بالبرق موافقة الرفيق أركاديف بهذا الخصوص. وبشكل عام أنا أفضل أن يكون لدينا هنا في الوكالة سيدة أخرى ولو بصفة طبيبة، وإذا توخّيتُ الحذر الشديد في هذا الشأن لن يكون هناك ضرر علينا. وأنا أقول هذا انطلاقا من الثقافة والتقاليد المحلية السائدة هنا.

وهكذا نجد تيورياقولوف يطرح مرارا وتكرارا مسألة إيفاد طبيب وليس طبيبة انطلاقا من التقاليد المحلية وليس بسبب «كراهيته للمرأة» بتاتا، حيث نراه يقول: "مازالت تعمل لدينا الطبيبة تيفيل (باباجان)، وهي تعمل موظفة محلية، وأنا مازلت أتمسك بوجهة النظر «الإسلامية» بأنه يفضل رغم ذلك أن يكون لدينا طبيب وليس طبيبة، صحيح أن طبيبتنا تؤدي عملها جيدا، ونالت شهرة بين نساء المجتمع، فهي تقوم يوميا بالكشف على نحو ٢٥ - ٣٠ مريضا. وانطلاقا من مبدأ الحرص تقوم بناءً على نصيحة منا بإرسالهم إلى الأطباء الآخرين (السوريين) حتى لا يشكو في أنها «تختطف» المرضى. والأهالي هنا راضون تماما، ورغم ذلك أرجو منكم المساعدة في تبديلها برجل. وقد عرفت بطريقتي الخاصة أن موضوع الدكتور موشكوفسكي قد لاقى صعوبة، وإذا كان هذا صحيحا فإنه أمر يدعو للأسف. ألا يمكن التعجيل بحل هذه المسألة بالشكل الذي نبغيه؟".

وأخيرا استجابت الإدارة لإلحاح تيورياقولوف في الطلب، وقبيل عام ١٩٣٠م غادر إلى الحجاز - «برفقة البريد» - "الطبيب موشكوفسكي (وهو عالم على درجة عالية من التأهيل متخصص في أمراض المنطقة الاستوائية) للعمل بالأبحاث العلمية في المقام الأول ومساعده الطبيب ناخاشفيلي للمساعدة في العمل والتدريب الإكلينيكي بشكل أساس. ورغم أنكم لم تخبرونا حتى يومنا هذا بشأن التأشيرة الخاصة بناخاشفيلي فإننا نأمل في أن تتمكنوا من الحصول عليها، وإلا سيتعين عليه السفر لفترة إلى الحُدَيّدة والانتظار هناك لحين الحصول على تأشيرة للقدوم إلى الحجاز".

وفي مذكرة التغطية اقترحت اللجنة على تيورياقولوف الاستفادة من عمل الأطباء الجدد لتعزيز الصلات مع الدوائر السياسية المحلية، خاصة وأن هذا النهج قد أثبت فاعليته من قبل.

ولهذا تم إرسال خطاب بالبريد "من الرفيق سيماشكو رئيس اللجنة الشعبية للصحة إلى وزير الصحة بالحجاز (وإذا لم يكن هناك وزير للصحة فيمكن تسليم الخطاب إلى الهيئة المختصة بهذا المجال). ونظن أنكم ستستغلون هذا الخطاب لإنشاء علاقة عمل بين الرفيق موشكوفسكي والسلطات الحجازية، ونحيطكم علما أن عيادتنا في صنعاء وخاصة الدكتور باباجان تؤتي ثمارا طيبة، وقد تحولت إلى إحدى قنوات نفوذنا السياسي والثقافي. واللجنة الشعبية للصحة معنية للغاية بالأعمال العلمية للرفيق موشكوفسكي، حيث إن نجاحها سيتوقف عليه مواصلة النشاط الطبي في الحجاز، فعمل الرفيق موشكوفسكي لابد بالفعل أن يكون له أهمية علمية كبرى. ولكل هذه الأسباب نرجو منكم تهيئة كافة الظروف الممكنة لعمل الرفيق موشكوفسكي مع الأخذ في الحسبان احتياجه لناخاشفيلي بصفته أقرب مساعديه".

لقد انفتح أمام موشكوفسكي مجال واسع للعمل في المملكة العربية السعودية، وذلك بحكم تخصصه في الأمراض البكتريولوجية، حيث استطاع كعالم ومتخصص في الملاريا أن يقيم علاقات عمل مع المسؤولين عن الشؤون الطبية في الحجاز وكذلك الأطباء الذين ساعدهم كثيرا في بدء العمل بالنشاط البكتريولوجي في جدة، كما كان موشكوفسكي طبيباً يتمتع بمكانة

كبيرة لدى الحجازيين، كذلك كانت البعثات الأجنبية تتعطش للاستفادة من خدماته، بيد أن علاقاته كانت أقوى ما يكون مع الهولنديين. وقد كتب تيورياقولوف يقول: "ولكن جدوى عملنا الطبي قد تكشفت للحجازيين بشكل خاص بعد المحاولات التي قام بها الجانب الإيطالي لإعلان خطر انتشار الكوليرا خلال موسم الحج وذلك بسبب ظهور حالة إصابة غامضة. وقد عرض الدكتور موشكوفسكي خدماته على الحجازيين وأجرى عددا كبيرا من التجارب التي أثبتت أن الحجاز خال من الكوليرا".

ومن الواضح أن إسهامات أبحاث موشكوفسكي البكتريولوجية في إثبات خلو الحجاز من الكوليرا، وكذلك التفسيرات والتوضيحات حول سير أعماله التي كان يصرح بها - بعلم تيورياقولوف - لبعض الدبلوماسيين (ريان وميفريه وغيرهما)، كل هذا -كما كتب المفوض السوفيتي- قد "هدأ من انشغال الطليان بموضوع «الكوليرا» وهم الآن يتراجعون أمامنا. وبالمناسبة أقول: إن التكتيك الذي كان يتبعه الأستاذ الدكتور موشكوفسكي بناءً على تعليمات مني يتلخص في حصر نشراته ما أمكن في إطار مواد أبحاثه سواء كانت هذه النشرات كتابية (للحكومة الحجازية) أو شفهية (للأجانب والدكتور صالح مندوب المجلس الدولي للحَجْر الصحي الذي كان يتابع عن كثب أعمال طبيبنا). بعبارة أخرى تجنب طبيبنا إلقاء الظل على النشرة القادمة من مصوّع رغم أن نتائج أعماله، على الأقل في منطقة الحجاز وحدها، قد ألقت بظلال الشك على صحة وشرعية إجراءات الحَجْر التي يتخذها المجلس والتي ترتكز في المقام الأول على التقارير

الإيطـاليـة، وهـو مـا ينبـغي اسـتنتـاجـه مـن تصـريح الجنرال ديوغـيـه كـبيـر مفتشي المجلس".

في «قضية الكوليرا» كان تيورياقولوف غالبا ما يتصرف على مسؤوليته الخاصة، ولم يتجرأ على الاحتجاج على إدارته إلا بعد أن بدت بوادر نجاحه في هذا التصرف، إذ أرسل يقول: "... إننا لم يكن لدينا ولا يزال أي تعليمات بخصوص السلوك الذي كان يجب أن نسلكه في قضية الكوليرا، حيث كنا نتصرف طبقا لما يمليه علينا عقلنا، وهذا بالطبع أمر غير مقبول. ونرفق طيّ هذا الخطاب مذكرة خاصة تتعلق بهذا الشأن أيضا، ستجدون فيها كافة ما يخص تصوراتنا عن وضع القطاع الطبي التابع للبعثة. وبالمناسبة أرجو أن تحركوا اللجنة الشعبية للصحة ومكتب الإعلام الخارجي وأن ترجوهما الاهتمام بشكل أكبر بتوسيع الاتصالات معنا، فالأمر يتطلب أن يشعر أطباؤنا هنا بأنهم دائما تحت نظر موسكو. ومع ذلك فموشكوفسكي ليس لديه أي تعليمات، والأمر ينتهي عند المعلومات الخاصة والخطابات. إلى جانب ذلك لابد من منح الأطباء الإجازات والعطلات في موعدها حتى لا ينفر الآخرون إذا استدعى الأمر البحث عن موظفين جدد للعمل في جدة. وموشكوفسكي حتى الآن لا يعلم ماذا سيكون بعد، وهذا لا يسمح له بوضع برنامج ثابت لعمل القطاع الطبي الذي يُعد -مع ذلك- جزءًا شبه قانوني من البعثة".

لاشك أن تيورياقولوف قد تمكن من أن «يظفر» بخبير على أعلى مستوى وهو الأستاذ الدكتور موشكوفسكي، والدليل على ذلك هو على الأقل تلك الثقة والاحترام الذي كان يكنّه له مندوبو هولندا التي لم يكن لديها في ذلك الوقت

علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي. وقد كتب تيورياقولوف: "رغم أن الهولنديين يعدون بشكل عام «إمعة» للإنجليز، فإنهم في بعض المسائل كمسائل الحَجْر مثلا لا يبدون دائما تضامنا مع الإنجليز كما هو واضح من تقارير الدكتور موشكوفسكي. والعلاقات الشخصية والثقافية بيننا وبين البعثة الهولندية جيدة تماما، فقد تكرّم فان ميولين وسمح لموشكوفسكي باستخدام ما يلزمه من الوثائق الرسمية والتقارير في أرشيف البعثة الهولندية. وبدوره قام موشكوفسكي بدعوة من فان ميولين وبعد موافقتي بعلاج المرضى من أبناء جزيرة جاوة الذين يخدمون في البعثة، كما قام بعمل دراسات علمية على باخرة هولندية كان على متنها مرضى يُشْتبَه في إصابتهم بالعدوى، كذلك يقوم بتدريب طبيب البعثة الجاوي الأصل عبد الفتاح على بعض الطرق الحديثة في العمل بالدراسات البكتريولوجية، ويتبادل معه الأخبار العلمية. ورغم عدم وجود علاقات رسمية بيننا فإن فان ميولين حريص على المحافظة على العلاقات الودية «التقليدية»، وقبل سفره (في يوليو) في إجازة جاء إلينا في زيارة وداع وفي حواره معي أفاد بأن وزارة الخارجية الهولندية توصيه في تعليماتها بأن يحافظ على أفضل العلاقات الشخصية معنا". وهكذا كان الطب يساعد على مد الجسور الدبلوماسية...

وبناءً على هذا ظهر لدى نذير تيورياقولوف المزيد من التصورات والأفكار بشأن تعزيز العلاقات السوفيتية السعودية، وسارع بإبلاغ رؤسائه بها، حيث كتب في أحد خطاباته يقول: "لقد توصلت إلى استنتاج مؤداه أنه يتعين على موشكوفسكي تطوير علاقاته مع الحكومة الحجازية من خلال عمله، ولهذا

الفرض سيقوم موشكوفسكي في هذا العام بالعمل في موضوع «الكوليرا» مرة أخرى. وقد حدد (لنفسه) مهمة القيام بفحص مصادر المياه التي ربما تكون - على حد افتراضاته- مصدرا لجراثيم الكوليرا، ولكن هذه مهمة علمية بحتة، ورغم وجود الظروف المواتية لموشكوفسكي فإننا استطعنا أن نعطيه دفعة للأمام ليشغل المركز الذي يليق به ويجبر الجميع على الاعتراف بمكانته، والأجانب يتساءلون في تلهف متى سيرحل موشكوفسكي من المملكة. وأنا كنت مرنا مع المبعوثين الأجانب، فبناءً على طلب مني وفي حضوري قام موشكوفسكي في مقر بعثتنا بالإدلاء بتفسيرات علمية للسفير الإنجليزي ريان وللطليان مع إبلاغ الحكومة الحجازية بذلك، والحكومة راضية عن نتائج عمله، ففي الآونة الأولى كانوا يتوجسون خيفة، ولكن المعاملة الحسنة أثبتت أننا لا ننوي أن نخذل الحجازيين، وفي هذا العام أعتقد أن الأمر سيكون أفضل وسيكون هناك اتصالات وثيقة".

وعند سفر موشكوفسكي توجه الدكتور محمود مدير الصحة بالحجاز إليه برسالة أشار فيها أن الحجاز ستظل تتذكر دوما عمله القيم، وأعرب عن عميق الشكر له.

ومع ذلك لم يدم إيفاد الأطباء طويلا، ففي نهاية ديسمبر عام ١٩٣٠م غادر ناخاشفيلي جدة عائدا إلى أرض الوطن، وبقي الأستاذ الدكتور موشكوفسكي بمفرده، وكان على حد ما جاء في مذكرة تيورياقولوف "يتعصب كثيرا بسبب البلبلة التي تحدث في موضوع الشقق في موسكو، فلابد من مساعدة أفراد أسرته (أخته) ما أمكن ليحافظوا له على حقوقه، ويفضُل لو

كتبتم له كلمتين لتهدئته بهذا الصدد". وفي الوقت نفسه أبلغ تيورياقولوف موسكو بأنه "بعد موسم الحج لن نبقي على موشكوفسكي أو بالأحرى لن نستطيع الإبقاء عليه! وإذا أردتم تقليص عملية تبديل الأطباء فابعثوا بمن يحل محلَّه في الوقت المناسب (ولو بحلول شهر مايو). وأرجو أن تنتبهوا لهذه المسألة، فنحن لن نكتب بصددها مرة أخرى". ولكن للأسف لم تلق دعوة تيورياقولوف استجابة، وتوقف النشاط الطبي مع سفر موشكوفسكي لأنه رغم كل الإصرار و"الخطابات الخاصة التي أرسلها الرفيق كاراخان إلى الرفيق فلاديميرسكي في العاشر من يونيو لم تتمكن اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية من اختيار طبيب مناسب للعمل في جدة"، ولم يتم هذا الموضوع إلا في نهاية العام عندما أمكن استخراج المستندات اللازمة للطبيب فيلينسكي والطبيبة كودلايفا وغادرا إلى الحجاز في السادس والعشرين من يناير عام ١٩٣٢م ولكنهما لم يمكثا هناك طويلا. وربما كان هذا لحسن الحظ كما أثبتت الأيام فيما بعد، فرغم المدة القصيرة التي قضاها فيلينسكي في العمل في جدة إلا أن هذا كان كافيا ليلحق أضرارا بالغة بسمعة وممتلكات العيادة التابعة للبعثة.

ولكن تيورياقولوف لم يكلّ من محاولة إقناع إدارة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية بضرورة إنشاء عيادة دائمة تتبع البعثة، حيث كتب يقول: "في الخامس عشر من يوليو ١٩٢٣م وصل الدكتور جوكوف خوفانسكي، وفي السادس عشر منه بدأ مباشرة العمل الذي اقتضت الضرورة أن ينحصر في البداية في ترتيب العيادة وحصر ممتلكاتها. وجدير بالذكر أننا قبل وصول الدكتور جوكوف

خوفانسكي قمنا بعمل أيام «خدمة عامة» للقيام ذلك، ولكن هذا لم يكن كافيا بالمرة للاطمئنان على أحوال العيادة، وقد قام ولا يزال الدكتور جوكوف بالقدر الأكبر من العمل لتنظيف العيادة التي أصبحت تشبه «مقلب القمامة»، وهذا العمل لم ينته حتى الآن، ويمكنكم عمل تصور أكبر عن هذا الموضوع من التقرير الخاص بحالة العيادة الذي يعده الدكتور جوكوف بنفسه. كل هذا يسمح بعمل استنتاج عن الحالة المزرية التي ترك فيلينسكي العيادة عليها".

كان يتعين على تيورياقولوف الدخول في التفاصيل لأنه هو الوحيد الذي كان يتوقف عليه موافقة موسكو على تقديم المساعدات المالية التي كانت تتطلبها العيادة، ناهيك عن ظهور عجز مبتذل للغاية بعد سفر الفريق الطبي السابق الذي كان يتعرض لشكاوى عديدة حتى أثناء عمله. وقد كتب تيورياقولوف في هذا الصدد يقول: "إننا في حاجة لهذا العمل أولا لأنني لابد أن أعرف بالضبط الشكل والحجم الذي ينبغي مساعدة العيادة به (من أدوية ومعدات وتجهيزات)، وخلال أعمال الجرد تبين أنه بالرغم من قيام فيلينسكي بتسريب بعض الأدوية المسجلة من العيادة (ويجري الآن التحقق من هذا وسنخبركم به من خلال العاملين في البواخر) فإنه لا يزال لدينا اكتفاء في بعض المستحضرات الطبية، صحيح أن هناك عددا من الأدوية التي تُعد العيادة في أشد الحاجة إليها، ولا يمكننا الحديث عن هذا كله بالتحديد إلا بعد الانتهاء من جرد كافة متعلقات العيادة، وهذه هي المهمة الأولى التي نأمل أن نتمكن من حلها في سبتمبر".

وسعيا وراء المزيد من تعزيز مكانة السوفييت في المملكة كان تيورياقولوف يرى ضرورة مواصلة التحرك من خلال الأطباء الذين كان يذيع صيتهم في

الحجاز يوما بعد يوم، ولذا طرح فكرة إنشاء معمل خاص السوفييت، حيث بعث يقول: "الأشياء الأساسية -الميكروسكوبات والقاعدة العلمية- موجودة، فقط يحتاج الأمر إلى مساعدة بسيطة من جانبنا والمعمل يصبح جاهزا". والسبب وراء هذا الاهتمام الكبير من قبل تيورياقولوف بإنشاء المعمل كان يرجع إلى عدم إمكانية قيام العيادة بعملها على مستوى مهني بمعنى الكلمة إلا بوجود مثل هذا المعمل.

ومع ذلك "فالنشاط المعملي في المملكة يعد حِكْرا على الطبيب الهولندي والطبيب الأنجلوهندي الذي لا يفقه شيئا في هذا المجال، ولا داعي لأن نعتمد عليهم ولو بصورة غير مباشرة، ومؤسسات الصحة في الحجاز ليست قادرة بعد على إنشاء معمل خاص بها". وفي الختام كان آخر المهام التي طرحها المندوب السوفيتي هي "وضع لائحة لتنظيم عمل القطاع الطبي بالبعثة...".

ونال تيورياقولوف مكافأة على إصراره، حيث أرسلت موسكو إليه طبيبا اتضح أنه خبير على درجة عالية وأثبت ذلك من أول يوم، وبفضله ظفرت البعثة بمكانة كبيرة وشكر من أهالي البلاد. وقد كتب المندوب السوفيتي بشأنه يقول: "بالطبع بدأ الدكتور جوكوف الكشف على المرضى بعد أسبوع من وصوله، وهو يعمل من الثامنة صباحا حتى الواحدة ونصف بعد منتصف الليل، وانطلاقا من سمات المجتمع هنا قررنا العمل بالنظام التالي: يوم للكشف على الرجال ويوم للنساء، والكشف يتم بتذاكر (حسب الدور)، أما الأطفال فيجري الكشف عليهم خارج الدور. والآن يتم الكشف على نحو ٣٠ - ٤٠ مريضا في اليوم، ومنذ وصوله حتى الآن قام الدكتور جوكوف بالكشف

على نحو ٧١٠ مرضى. ومن بين المظاهر المستجدة أشير إلى أن عيادتنا تخدم تقريبا كل أفراد الحامية العسكرية بالمدينة (ومعظمهم من النجديين)، والجنود النجديون يقولون عن طبيبنا: «doxtur albalshefik zayin»، وعندما يُعرض عليهم التوجه إلى دكتور الحكومة يردّون بالرفض".

كان غالبية السكان يعانون من الملاريا والرمد الحبيبي (التراخومة) وأمراض الأطفال وأمراض النساء والأمراض الزهرية، وكانت أكثر الطبقات تعرضا للأمراض هم الفقراء والتجار والجنود ورجال الشرطة والموظفون، وكثيرا ما كان يلجأ الأجانب أيضا إلى العيادة السوفيتية. وقد ازداد توافد المرضى مما دعا تيورياقولوف إلى إدخال نظام سداد قيمة العلاج، حيث يقول: "إننا نحاول تحصيل ولو قيمة رمزية مقابل الأدوية، أما المرضى الأغنياء فنحاسبهم بأسعار أعلى، وقيمة الكشف المنزلي جنيه واحد.

وسيتم إدراج موضوع تجهيز منزل الطبيب من دخل الكشف المنزلي في اللائحة التي سنقوم بإرسالها إلى الإدارة في حينه. وحتى الآن دخل العيادة ضعيف للغاية، وبدون مساعدة منّا لن تقف على أقدامها. وإذا كانت العيادة من الناحية الشكلية تتبع اللجنة الشعبية للصحة فهذا لا يمنع من أن أعتبرها جزءًا من كياننا يؤدي وظيفة محددة، وبناءً عليه قمت باستغلال ما أوفّره من الموارد الداخلية للبعثة في تنفيذ كافة الأعمال المستعجلة واللازمة لتحسين ظروف العمل بالعيادة (من طلاء للحوائط وأرفف جديدة بالمخزن وأثاث وأحواض غسيل)، علاوة على أنني عيّنتُ من هذه الموارد موظفا عربيا (وهو رجل ذو فطنة ومجتهد للغاية) للعمل بالعيادة (مع تسجيله شكليا على قوة

البعثة)، كما اشتريت في مكة مستلزمات جديدة للصيدلية بأسعار زهيدة من صيدلي تركي أعرفه يدعى Sokasun".

إن نشاط العيادة السوفيتية في ظل تدني مستوى مؤسسات الصحة في الحجاز قد أسهم إسهاما ملحوظا في الدعاية للسياسة الخارجية للدولة السوفيتية وترويج منجزاتها. وكان تيورياقولوف يدرك أن الفضل الأول في ذلك يرجع إلى الدكتور جوكوف خوفانسكي ولذلك لم يخف إعجابه بهذا الرجل الخبير. وكان يهتم كل الاهتمام بظروف حياته اليومية. إذ كتب لرؤسائه في هذا الصدد يقول: "... لقد أعلنت للدكتور جوكوف أنني سأقدم له دائما المساعدة في حدود ما تسمح به إمكاناتي لكي يتم تنظيم عمل العيادة كما يجب ولكي يتمكن من إظهار كل قدراته العلمية. وهو راض أيضا للغاية عن أحوال وظروف العمل. وأنا أرى أنه يتعين علينا مساعدته ثم بعد ذلك نطالبه، ونبقي عليه في هذه الوظيفة مدة أطول. فالأطباء المتجولون مدة عام يضرّون ولا ينفعون. لأن الطبيب عندما يقضي في العمل فترة أطول فإنه يدرس اللغة والناس وأحوال المعيشة... إلخ. وبناءً عليه أحاول تلبية طلبات الدكتور جوكوف إلى أقصى درجة لكي نثبّته معنا فترة طويلة.

وهناك مسألة مهمة أخرى وهي بخصوص راتب الدكتور جوكوف. فالعقد ينص على راتب قدره ١٩٠ دولار أمريكي، ونتيجة لهبوط سعر الدولار يخسر الدكتور جوكوف شهريا ما يصل إلى ١٠٠ روبل ذهبي، وإذا أخذنا في الاعتبار حجم راتبه وغلاء الأسعار هنا (حيث نأكل ونشرب سلعا مستوردة في الغالب) فإن هذا المبلغ يُعد خسارة كبيرة بالنسبة له. ولذلك لابد من السعي بكل

الطرق لتغيير هذا الوضع. وقد تقدم الدكتور جوكوف بطلب في هذا الشأن (مرسل إليكم صورة منه)، وأرجو من الإدارة ومنكم التكرم بدعم طلبه".

كذلك كان تيورياقولوف ينجح بهذه الطريقة في حل العديد من المسائل سواء السياسية أو المعيشية، أما على الساحة الدبلوماسية البحتة فكان ينافس بنجاح بالغ المندوبين الغربيين الذين كانوا يفوقونه في الخبرة بدرجة كبيرة، فلكي يقاوم بيروقراطية الموظفين بفاعلية في ظل الروتين اليومي كان لابد أن تتوافر فيه الخصائص الفطرية للسياسي الماهر، أما إلمامه بواقع البلد الذي يعمل فيه فقد ساعده على تجنب الأخطاء المزعجة، ليس هذا فحسب وإنما أيضا نيل احترام الصفوة المحلية وزملائه الدبلوماسيين.

كما نرى، رغم رتابة العمل اليومي المليء بالمشاكل والهموم كان تيورياقولوف يتميز حقا بسعة الأفق في معالجة كل ما كان يصطدم به في عمله الدبلوماسي، فقد كان يدرك جيدا كافة دهاليز التصارع الدبلوماسي ليس في الشرق الأوسط فحسب وإنما على الساحة الأوروبية والعالمية أيضا، فتركيزه على النتيجة النهائية في الدفاع عن المصالح القومية لدولته، وفطنته، ونشاطه الذي لا ينضب، وطموحه القوي، ومهارته وولعه بالعمل، كل ذلك جعل من تيورياقولوف شخصية بارزة في تاريخ الدبلوماسية السوفيتية.

الفصل الرابع

سبيل الله وسبيل التجارة

جرب إن كانت ستناسبك حياة الإنسان الفاضل.

الراضي بعدالة الأفعال وراحة البال.

مارك أفريلي

في كتابه «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي» الذي أثار ضجة ذكر صمويل هانتينجتون أن "العلاقات بين الإسلام والمسيحية - سواء في الشرق أو الغرب - كانت في أغلبها علاقات عاصفة. فكل منهما كان غريبا بالنسبة للآخر. والصراع بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية في القرن العشرين لم يكن إلا ظاهرة تاريخية عابرة وسطحية مقارنة بالصراع العميق غير المنقطع بين الإسلام والمسيحية. ومن آن لآخر كان يسود التعايش السلمي، لكن في الأغلب الأعم كان التعامل يتحول إلى منافسة حادة أو حروب حامية الوطيس تختلف في ضراوتها... وعلى مر العصور كان مصير العقيدتين تناوب الازدهار والانحدار كموجة عارمة يعقبها هدوء ثم موجة مضادة".

وإذا تحدثنا عن المملكة العربية السعودية فإن مدى تأثير الإسلام على السياسة الخارجية للدوائر الحاكمة في مختلف مراحل هذه الدولة يختلف في درجته. ويتوقف سواء على الوضع الدولي وطبيعة القضايا التي تسعى

الدولة إلى حلها أو على شخصية الحاكم. وكان مؤسس الدولة عبد العزيز آل سعود يحاول ضمان تأييد بريطانيا له في صراعه مع منافسيه، كما بعث اعتراف الاتحاد السوفيتي بدولته على السعادة الكبيرة لديه. وكان الملك يرى أن أهم إنجاز حققه في سياسته الخارجية هو إبرام معاهدة ١٩٢٧م بين إنجلترا والسعودية، وفي الوقت نفسه كان هو صاحب المبادرة بانعقاد مؤتمر العالم الإسلامي في مكة عام ١٩٢٦م.

لقد كان العامل الديني يترك أثره في كل نواحي الحياة في الحجاز في سياستها الخارجية والوضع الداخلي بها، وهذا بالضبط ما لمسه أيضا نذير تيورياقولوف خلال عمله، حيث كان يدرك جيدا وهو في قلب العالم الإسلامي أنه ربما لم يكن لينجح في حل قدر كبير من المشاكل لو لم يبد التفهم الكامل للحياة الدينية في الحجاز والاحترام الواجب للعبادات والعادات الإسلامية. وفي الوقت الذي كان فيه الدبلوماسيون الغربيون والتجار يسعون لتعزيز مكانتهم في الشرق الأوسط من خلال اعتناقهم الإسلام وارتدائهم للملابس المحلية والتخلي بمحض إرادتهم عن نمط حياتهم السابق لم يكن نذير تيورياقولوف في حاجة للجوء إلى الحيل كي يبدو "مؤمنا". فأصله وتربيته وتعليمه، كل هذا كان يدل على إيمانه، وكان هذا يفتح أمامه المزيد من الأبواب والقلوب في المملكة العربية السعودية، ولم يرتكب الهفوات والأخطاء التي كان من الممكن أن يرتكبها شخص غير عالم بدقائق وتفاصيل حياة المسلم الحق، فقد كانت هداياه «في محلها»، كما كان يعرف أين ومتى يلتقي بذوي النفوذ الذين يحتاج إليهم، ولم يكن من قبيل المصادفة أنه كان يقوم أثناء أدائه

فريضة الحج بإجراء اللقاءات والمحادثات التي كان من غير الممكن إجراؤها في الأحوال العادية.

ولكي نقيم أهمية النهج الذي وقع اختيار تيورياقولوف عليه لابد أن نتذكر أن الدخل من الحج ظل هو المصدر الرئيس للخزانة السعودية وميزانية المملكة حتى بداية «عصر النعيم النفطي»، لذلك ليس هناك ما يثير الدهشة في أن «العنصر الديني» كان من أهم المسائل في التفاوض بشأن إبرام معاهدة سياسية واتفاقية تجارية بين البلدين.

وقد خرج تيورياقولوف من لقاءاته العديدة مع الملك بانطباع أن الملك قد قرر التمسك في هذه المسائل بسياسة الترقب، حيث إنه لم يكن يرغب في احتدام المواجهة مع الإنجليز. ولذا كان يتجنب عن جهد تسوية عدد كبير من المسائل في العلاقات السوفيتية السعودية، رغم أن تسوية هذه المسائل كان بمقدورها النهوض بهذه العلاقات إلى مستوى نوعي جديد، حيث كان الحديث يدور عن إبرام معاهدة سياسية وتعديل النظام المفروض على عمليات التجارة السوفيتية مع المملكة.

وفي ذلك الوقت كانت الأسواق الغربية تقاطع المنتجات السوفيتية، ولذلك كانت التجارة مع الشرق تكتسب أهمية كبرى بالنسبة لموسكو، وقد وصلت أولى البضائع الروسية إلى الجزيرة العربية في عام ١٩٢٦م ولاقت رواجا كبيرا، إلا أن دخول السوفييت إلى الأسواق لقي مقاومة شديدة ومنسقة من قبل أصحاب رأس المال البريطانيين والهنود الذين تعودوا على السيطرة الكاملة على أسواق شبه الجزيرة، أما الحكومة الحجازية والقصر فقد كانا

يتطلعان بالفطرة إلى أي مساعدة من قبل الحلفاء القدامى، ومع أنهما كانا يعلنان عن أطيب مشاعرهما تجاه الاتحاد السوفيتي لم يسرعا في الوقت نفسه في فتح الأسواق على مصراعيها أمام المنتجات السوفيتية. وتعيَّن على نذير تيورياقولوف بذل الجهد لتحريك هذه المسألة وإزالة العقبات من طريق التجارة السوفيتية السعودية.

وجاء الاتفاق بين الأمير فيصل نجل الملك آل سعود (وملك المستقبل) ومولوتوف رئيس الحكومة السوفيتية في موسكو عام ١٩٣٢م ليكون بمنزلة خطوة حاسمة على هذا الطريق، وازداد الطلب في المملكة على البضائع السوفيتية مثل السكر والثقاب والأخشاب والفلايات والكيروسين. وهل كان من الممكن وقتها أن يدور بمخيلة أحد أن المملكة العربية السعودية ستمتلك أكبر احتياطات بترول في العالم؟!

ومع ذلك تم نقل رغبة موسكو في توقيع المعاهدة وتعزيز الصداقة إلى الملك لأول مرة في ١٥مايو ١٩٢٨م، غير أن الملك كان صريحا وأقر بأن إبرام معاهدة مع الاتحاد السوفيتي في ظل «حالة الحرب السائدة عمليا» مع إنجلترا قد يستفز لندن للقيام بتحركات يصعب التكهن بها. وكان الملك في كل لقاء مع تيورياقولوف يبدي مشاعره الحارة، مؤكدا أنه يذكر دائما أن الاتحاد السوفيتي كان أول من اعترف به، ومع ذلك كان الملك يحيد عن الموضوع كلما دار الحديث عن أشياء محددة، ففي يوليو ١٩٣١م تهرب مجددا من مناقشة الموضوع، معلنا للمندوب السوفيتي أن علاقاته مع الاتحاد السوفيتي "حميمة للغاية لدرجة أنها لا تحتاج إلى تسجيلها في معاهدة" . وفي الوقت نفسه لم يكن العاهل السعودي

يشك في أنه -على حد قوله- "إذا جاءت أوقات عصيبة فإنني أعرف أن الاتحاد السوفيتي سيكون هو درعي الواقي".

وعلى كل حال مهما كانت التبريرات الشكلية التي كان يطرحها الملك فإن الأسباب الحقيقية وراء عدم رغبته في الإقدام على وضع صيغة قانونية لعلاقاته مع الاتحاد السوفيتي كانت تتعلق في المقام الأول بعدم استقرار الوضع السياسي الداخلي وقدرة إنجلترا على التأثير على هذا الوضع، على الأقل كان هذا جوهر ما نقله تيورياقولوف من تحليل للعلاقات السوفيتية السعودية في تلك الفترة، حيث من المؤكد أن ما يزيد أيضا من حالة التزعزع التي تعتري مواقف آل سعود هو نفاد موارد الخزانة الملكية.

فقد أدت الأزمة الاقتصادية التي أصابت العالم في الفترة من ١٩٢٩م إلى ١٩٣٣م إلى انخفاض عدد الحجاج الذين كانوا المصدر الرئيس للدخل في الحجاز، ففي عام ١٩٣١م لم يتعد عدد الحجاج الأربعين ألفا وهو ما يعادل نصف مثيله في العام السابق، وهذا وحده أدى إلى انخفاض دخل الحكومة من الضرائب المباشرة والتحصيلات بما يقرب من ٥٠٠ ألف جنيه إسترليني، وبالتالي انخفضت الضرائب غير المباشرة المحصلة من الحجاج الذين كان أهل الحجاز يسخّرون لهم خصيصا كافة الأنشطة التجارية وأنشطة النقل والمواصلات، وأسفر انخفاض عدد الحجاج وافتقار السكان عن هبوط حاد في حجم الوردات مما انعكس بدوره على انخفاض تحصيلات الرسوم الجمركية رغم رفع نسبة الجمارك عدة مرات، علاوة على ذلك لجأت الحكومة إلى الوسيلة المعروفة لتعويض عجز الخزانة وهي طلب المساعدة من البنوك الأجنبية وعلى رأسها البنوك الهولندية، والاضطرار إلى الاقتراض

الداخلي من تجار الحجاز الذين كانوا غير راضين تماما عن إرسال الأموال إلى نجد لمساعدة قبائل البدو.

واستمر تدهور الوضع مما أجبر الملك على تقديم تنازلات للتجار والتصديق في الثالث عشر من نوفمبر ١٩٣١م على بدء سريان موازنة الدولة التي بلغ جانب المصروفات بها بالريال ما يعادل مليون جنية إسترليني ذهبي، وازداد الوضع سوءًا بسبب الجفاف الجزئي والدمار الناجم عن انتشار الجراد، ثم إن فترة الصدام المسلح المضني بين آل سعود والشريف حسين التي سبقت قيام الدولة السعودية، وكذلك إخماد تمرد فيصل الدويش، والاضطرابات التي كانت تندلع من آن لآخر في عسير وعلى الحدود مع الأردن، كل ذلك استمر يعلن عن نفسه، أضف إلى ذلك أن العديد من القبائل التي كانت تقوم بنقل الحجيج على الحمير والإبل فقدوا فجأة لقمة العيش مع ظهور السيارات في البلاد.

وفي ظل تفاقم الأزمة وتزايد المشاكل المالية نتيجة الانخفاض الواضح في عدد الحجاج راحت القيادة السعودية تبحث عن مخرج على كافة الأصعدة الممكنة، ورغم تعيين مستشار مالي هولندي للملك وفرض ضريبة على العقارات بالمدن فإن هذا للأسف لم يسفر عن تحسن ملموس. وفي نهاية يونيو ١٩٣٢م قام وفد برئاسة الأمير فيصل بزيارة إلى لندن، وطلب قرضا من الحكومة البريطانية، ولكن الطلب قوبل بالرفض كما حدث من قبل في موسكو، وقد علقت الدوائر السياسية على هذا الرفض بأنه عدم رغبة من جانب إنجلترا في القبول أو بالأحرى التسليم بسيطرة آل سعود على الحجاز.

ومهما كان الأمر فإنه في ضوء طبيعة العلاقات الإنجليزية السعودية لم يكن يتعين على الرياض أن تعلق الآمال على هذا القرض من إنجلترا، وفي ظل هذه الظروف تنظر حكومة الحجاز إلى موسكو من جديد، وتجس النبض من خلال الوزراء ومستشار الملك يوسف ياسين لإبرام معاهدة مع الاتحاد السوفيتي، وتجري مفاوضات مع البعثة السوفيتية حول شروط منح قرض سلعي طويل الأجل، غير أن المفاوضات تسير ببطء، فالتدقيق في التفاصيل الصغيرة والمسائل البروتوكولية (مثل "أولوية مناقشة القضايا، ونص الخطاب الذي ينبغي أن نتبادله قبل الدخول في المفاوضات") استغرق أعواما وليس أياما وشهورا من فترة عمل تيورياقولوف في البلاد. أما السبب الرئيس وراء تباطؤ الجانب السعودي -وهو أمر واضح تماما- فكان يرجع في ذلك الوقت أولا إلى تخوف الرياض من "أن تثير حفيظة البريطانيين"، وثانيا الرغبة "في إلهاب تحمسنا لهذه المفاوضات والحصول على القرض من أي جهة كانت".

وفي ظل هذه الظروف قرر الملك استئناف المفاوضات بشأن القرض السوفيتي الذي كان من المقرر منحه على النحو التالي: "١- يقدر حجم القرض السلعي بمليون جنيه إنجليزي، ٢- تسلم السلع بقيمة هذا المبلغ على مدار ثلاث سنوات على دفعات، ٣- تسدد الحكومة الحجازية قيمة السلع على ١٥ سنه، ٤- تقوم الحكومة الحجازية بسداد جزء من قيمة القرض في شكل منتجات عربية".

وأصبحت هذه المسألة، إلى جانب تنسيق مواد معاهدة الصداقة، موضوعا لمفاوضات منتظمة بين المندوب السوفيتي ومفوض الملك يوسف ياسين، وظلت مشكلة الأوقاف والحجاج هي حجر العثرة على طريق إبرام

المعاهدة. ففي مشروع المعاهدة الذي سلمه يوسف ياسين كانت المادة الخامسة تنص على ما يلي: "تقر الحكومة السوفيتية بقدسية الحجاز. وتتعهد بتسليم الحكومة الحجازية جميع عوائد الأوقاف الخاصة بالحجاز في الاتحاد السوفيتي والمتراكمة منذ إعلان الحرب العالمية حتى لحظة توقيع هذه المعاهدة، كما تتعهد بتسليم العوائد المذكورة سنويا".

ويبدو أن المندوب السوفيتي كان يفلح أحيانا في اللعب أيضا على الخلافات القائمة داخل القيادة السعودية. فقد علم من حديثه مع محافظ جدة أن أهل الحجاز كانوا غير راضين عن وضعهم في ذلك الوقت. كما أشار المحافظ، الذي نشأت بينه وبين تيورياقولوف علاقات حميمة، إلا أن "الحكومة حتى هذه اللحظة لم تدرس الموقف بشكل جدي، ونحن نود أن توضحوا للملك أن الطرف الخاسر من عدم وجود اتفاقية تجارية بيننا وبينكم هم الحجازيون، لأن الإنجليز يستغلون الموقف ويبيعون لهم الكيروسين والبنزين والخشب والدقيق والسكر والقمح بأسعار مرتفعة. ولو كانت هناك تجارة مع السوفيت لما حدث ذلك. فالسماح بالتجارة السوفيتية في الحجاز من شأنه أن ياتي بالفائدة على الحجازيين والنجديين. وإلى أن يتطبع الوضع في السوق على أساس المنافسة الحرة بين الجميع سيظل الشعب يتكبد الخسائر. أما الاتحاد السوفيتي فلن يخسر شيئا كبيرا من عدم تواجده في السوق الحجازية، لأن حجم هذه السوق ضئيل للغاية مقارنة بالسوق العالمية التي يروج فيها بضائعه. ولابد من توضيح هذه النقطة بالذات للملك، ولابد من شرح كل هذا بشكل ما. فجلالته لا يفهم في مسائل التجارة، كما لا يفهم فيها

فؤاد حمزة ويوسف ياسين، وعدم توافر اتفاقية تجارية إنما يرجع بالضبط إلى أنهم لا يفقهون شيئا في مسائل التجارة.

ويمكنني بصفة شخصية أن أتولى توكيل شركاتكم، في البداية سآخذ كميات صغيرة، بالتقريب الكميات التالية: شهريا من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ كيس سكر، ومن ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ صندوق من الكيروسين، ومن ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ صندوق من البنزين.

هذا بشرط أن تصل البضاعة على بواخر سوفيتية باسمي، كما يمكنني أيضا أن أشتري لنفسي إذا كنت سأستفيد من ذلك، أرجو أن تبلغوني بقراركم. أقصد التحدث مع الملك شخصيا والحصول منه على تصريح بتجارة السلع السوفيتية".

ويبدو أن أصحاب المبادرة من السعوديين الذين يعرفون من أين تؤكل الكتف لم يكن يسوءهم غياب اتفاقيات رسمية بشأن التجارة بين البلدين، حيث كانت هناك عروض أخرى للوساطة. ففي أبريل من عام ١٩٣١م زار مقر البعثة السوفيتية المواطن السعودي التركي الأصل مصطفى الشبوكشي، وهو تاجر ويترأس مركزا تجاريا، وكان يُعد أكبر تاجر جملة في الحجاز قبل الحرب، وخلال انتفاضة الشريف حسين تكبد هذا المركز التجاري خسائر كبيرة، فقد شارك الشبوكشي في تأليب الرأي العام بين أهالي البلاد ضد الشريف حسين وعليّ الذي حلّ محلّه، وبعدها لم يعد يؤدي دروا كبيرا في التجارة المحلية، وكان على علاقة حميمة مع التاجر خالد كاركاني ومن خلاله توطدت علاقاته مع الألمان.

روى الشبوكشي للسوفيت الانطباعات التي تولدت بين أفراد المجتمع بعد ظهور الأسمنت السوفيتي في جدة الذي جلبه مركز عبد الله فضل التجاري، حيث أفاد بأنه بعد أن علم خالد كاركاني شريك القنصل الألماني بوصول الأسمنت السوفيتي إلى جدة أبلغ الملك أن السوق تشهد وضعا لا يحتمل، فمن ناحية عندما كان ينوي الاتجار بالسلع السوفيتية قيل له أنه لم يحن الوقت بعد لذلك، ومن ناحية أخرى يقوم عبد الله فضل باستيراد الأسمنت من الاتحاد السوفيتي، أما عبد الله فضل نفسه فقد أفاد بأنه قام بشراء هذا الأسمنت من مصر، وتم احتواء الموقف بأن تعهد عبد الله فضل بعدم جلب سلع سوفيتية بعد ذلك.

ويرى الشبوكشي أن كل ذلك لعدد من الأسباب "لا يروق للحجازيين لأن الحكومة تحمي رجالها من النجديين (عبد الله فضل من أبناء نجد)، والتعهد الذي أخذه فضل على نفسه ما هو إلا مناورة لتهدئة بقية التجار، وعبد الله فضل قد ربح بالفعل من الأسمنت السوفيتي، والأسمنت السوفيتي تسلل إلى السوق الحجازية وبذلك يكون نظام التمييز المفروض على البضائع السوفيتية قد تم انتهاكه".

فضلا عن ذلك كانت السلع السوفيتية تتسلل إلى المخازن رغم كل الحواجز، فطبقا لمعلومات الشبوكشي قامت شركة إنجليزية بشراء دفعة كبيرة من السكر السوفيتي بسعر ٦.٥ جنيه للطن (تسليم بومباي)، بينما كان السعر العالمي للطن تسعة جنيهات، وهذا السكر كان من المفترض نقله على دفعات من الهند إلى الحجاز وبيعه بالأسعار العالمية، ومن الواضح أن فرق السعر كان

من المفترض أن يبقى في الهند، وبما أن الحجاز كانت تُعد مستهلكا فحسب فإنه - على حد تأكيد تيورياقولوف - من الأحرى للحكومة الحجازية في ظل الحالة الصعبة التي كانت سائدة آنذاك أن تفتح السوق أمام البضائع السوفيتية وتسمح بالمنافسة لتطبيع الأسعار.

وقد جاء الشبوكشي للمندوب السوفيتي يطلب الاستفادة من علاقاته وخبرته بعد أن يتم تسوية مسألة التجارة السوفيتية في الحجاز وتبدأ المؤسسات التجارية السوفيتية عملها. وعرض خدماته كوسيط مقابل عمولة، معربا عن أمله في أن الجانب السوفيتي سيفضله على غيره بحكم كونه مديرا لمركز تجاري يتمتع بسمعة غير ملوثة، ورد تيورياقولوف على هذا بالقول بأن التجارة السوفيتية من وجهة نظر رجال الأعمال في الحجاز تأتي بالنفع عليهم وعلى المواطنين، ولذا ينبغي عليهم هم أنفسهم المبادرة أمام حكومتهم وشرح فوائد هذه المسألة لكل من يهمه الأمر. أما الناحية التجارية للقضية فستقوم بوضعها المؤسسات التجارية السوفيتية التي ستقوم -أيضاً- باختيار التجار المحليين الذين ستتعامل معهم مقابل عمولة أو بشروط أخرى، وهذا الاختيار سيتوقف في المقام الأول على دور وأهمية هؤلاء التجار في قيام الحكومة بمعالجة هذه القضية لصالح جميع الأطراف.

وخلال حديثه مع المسؤولين والتجار السعوديين حول العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفيتي والمملكة استطاع تيورياقولوف بالطبع أن يستنتج أن السلطات السعودية لا يزال يعلق بذهنها العديد من «الأوهام»، بما في ذلك الاعتقاد بأن الحكومة السوفيتية مستعدة لأي تضحيات من أجل أن «تتقدم»

من البريطانيين. فلسبب ما كانت جدة تظن أن الاتحاد السوفيتي معني للغاية بالدخول إلى السوق الحجازية لدرجة أنهم بإمكانهم الا يبخلوا على أنفسهم بطرح شروط مبالَغ فيها، علاوة على ذلك لم يستبعد تيورياقولوف أن تقوم الحكومة الحجازية بوقف المفاوضات لأسباب من قبيل «المساومة». حيث يقول: "لم يكن يوسف ياسين ساذجا حين أبلغني بأن ثمة عرضا بتقديم قرض من قبل مؤسسة تجارية غير إنجليزية، محاولا بذلك تعجيل موافقتنا على رغبة الحجاز بشأن القرض. وأنا أعتقد أنه لا داعي لأن نستاء من هذا، فكما لخصت في تقريري الشخصي في موسكو وجهة نظري بشأن تكتيكنا في المرحلة المقبلة... فإن الموقف يتطلب حزما مع أقصى درجات الهدوء وعدم تقديم تنازلات بأي حال من الأحوال في القضايا ذات المبدأ".

وفي تلخيصه لنتائج المفاوضات المبدئية ذكر تيورياقولوف أن بعضا من هذه الأباطيل لدى الجانب السعودي قد تبدد، فمن الناحية السياسية يمكن اعتبار انعقاد المفاوضات في حد ذاته ظاهرة إيجابية لأنها أعادت إلى ذهن الملك آل سعود من جديد الفوائد التي بإمكانه أن يجنيها إذا غيّر من سياسته بشأن التجارة مع الاتحاد السوفيتي.

وأخيرا وفي السادس عشر من فبراير عام ١٩٣٢م بعث الأمير فيصل برسالة إلى نذير تيورياقولوف يبلغه فيها أنه بعد خمس سنوات من الجدل "زال كابوس نظام التمييز الذي كانت تخضع له التجارة السوفيتية في السعودية، والذي كان دائما يمثل عبئا ثقيلا على العلاقات السعودية السوفيتية ويعوق تطبيعها". ولكن للأسف جاء هذا متأخرا ولم يتم دون

ضغوط مالية، غير أن هذه الضغوط كانت هذه المرة على الجانب السعودي، حيث كان من المطلوب دفع تعويضات على تأخر مدفوعات «صفقة البنزين»، وأقدمت حكومة آل سعود على إلغاء لكافة القيود التي كانت مفروضة على التجارة السوفيتية بالكامل، صحيح أن الاتحاد السوفيتي رفض رغم ذلك تقديم القرض للرياض.

وفي يونيو ١٩٣٢م أكد تيورياقولوف للملك خلال محادثات مفصلة معه في قصره بمكة أن رفض تقديم القرض لا يعني مطلقا أن سياسة الصداقة السوفيتية تجاه المملكة قد أصابها تغيرات ذات شأن، وفي الوقت نفسه ألمح تيورياقولوف إلى انه يأسف على أن إلغاء نظام التمييز لم يحدث قبيل زيارة فيصل إلى موسكو وإنما في بداية عام ١٩٣٢م كما حصل. ومن اللافت للنظر هنا هو أقوال الملك آل سعود خلال هذا الحوار. فقد تحدث عن اعتماده «على الله» أولا ثم على الاتحاد السوفيتي وتركيا وفارس، معلنا أن "الاتحاد السوفيتي هو أساس كل الأسس"، ولخّص سياسته - كما هو مسجل في تقرير تيورياقولوف - في الصياغة التالية: "إنني بحاجة إلى المساعدة السوفيتية، وأود الحصول على دعم الاتحاد السوفيتي في القضايا السياسية والعسكرية. فليأخذ السوفييت بيدنا. أنا ومن خلفي قوتي سنسير وراء السوفيت، بإمكان السوفيت أن يدبروا أمورنا كما يشاؤون بما فيه صالح الاتحاد السوفيتي والعرب". وإلى جانب القرض السلعي الذي كان يتضمن -بناءً على رغبة الجانب السعودي- الأسمنت والحديد والأخشاب وغيره "طرح الملك أيضا مسألة شراء الأسلحة «بكافة أنواعها» من الاتحاد السوفيتي". وفي تحليله

لهذا الحوار يتوصل تيورياقولوف إلى استنتاج مفاده أن الملك يتعمد طرح هذا الطلب إبان تدهور العلاقات السعودية الإنجليزية بالذات، حيث يقول تيورياقولوف: "إذا قيّمنا بعض مراحل التوجه السوفيتي في سياسة سعود فإنه يجب ملاحظة أن إقباله على تقديم التنازلات لنا وإبداء استعداده للتقارب معنا إنما يتوقف على مدى تدهور موقفه".

ومع ذلك لم تجد كل الجهود التي بذلها تيورياقولوف لتنشيط التجارة وغيرها من العلاقات التي لم تلق التقدير اللازم من جانب الإدارة في موسكو، حيث تشير كل الدلائل إلى أن مؤشر السياسة الخارجية السوفيتية كان يتحول في ذلك الوقت نحو الغرب تماما، فقد أرسل كاراخان خطابا يتضمن توجيهات إلى تيورياقولوف بتاريخ ١٩٣٤/٤/١٢م يشير فيه إلى أن المفاوضات التي طال أمدها بشأن إبرام معاهدة صداقة لا داعي لأن تترك انطباعا وكأن الاتحاد السوفيتي معنيٌّ للغاية بالمملكة العربية السعودية (يُذكر أنه صدر أمر ملكي بتاريخ ١٩٣٢/٩/١٨م بتغيير اسم الدولة من مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها إلى المملكة العربية السعودية)، وجاء في خطاب كاراخان: "إننا معنيّون بالمعاهدة مع الحجازيين بقدر ما نحن معنيّون بالمعاهدات مع الدول الأخرى". أما بخصوص طلبات آل سعود بشأن القرض السلعي والعسكري فقد أعطى كاراخان تعليمات بالإعلان بأنه نتيجة لتأخر السعوديين في سداد دين «النفط» أصبحت الظروف غير ملائمة بالمرة لبحث هذا الموضوع، وفي الوقت نفسه تم التشديد على أن هذه المديونية بالذات لابد أن تكون القضية الأولى في عمل البعثة، بمعنى ضرورة العمل من أجل أن يقوم الجانب

السعودي على الأقل بسداد القسط الأول منها. أما مذكرة باستوخوف رئيس إدارة الشرق الأولى باللجنة الشعبية للشؤون الخارجية فقد تضمنت توضيحا أكبر للأمور حيث جاء فيها "... لا تزال نظرة مؤسساتنا التجارية إلى مسائل التجارة في منطقة البحر الأحمر تتأثر سلبا بعدم سداد وكلائنا للديون المستحقة عن التوريدات السابقة".

ورد تيورياقولوف بمذكرات إلى موسكو أشار فيها إلى أن آل سعود قد تحدث أكثر من مرة عن استعداده أيضا -على الأقل كما كرر هو نفسه مرارا - لتوقيع معاهدة سياسية مع الاتحاد السوفيتي، ولكن من الواضح أنه كان يعلم مسبقا أن موسكو لن تقبل الشروط التي يطرحها وهي دفع «تعويضات» في شكل عوائد على أراضي الأوقاف[١] في الاتحاد السوفيتي والتي كانت في ذلك الوقت قد تم تأميمها منذ زمن، وكذلك شرط مساعدة المسلمين على تأدية فريضة الحج.

وفي حوار خاص مع فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة استطاع تيورياقولوف الحصول على إجابة مباشرة عن الكثير من الأسئلة حول أشكال التعاون بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية. حيث ألمح حمزة بشكل خاص إلى أن حل كافة المسائل المختلف عليها في العلاقات السوفيتية الحجازية يرجع إلى شيء واحد وهو أن حكومة الملك كانت في حاجة إلى دعم مالي وفي هذا السياق كانت مضطرة لطرح مسألة الأوقاف والحج. أما

(١) الأوقاف في الدول الإسلامية هي الأملاك العقارية وغير العقارية التي أوقفتها الدولة أو شخص معين للأغراض الدينية (ملاحظة المؤلف).

بخصوص التعويضات فالجانب السعودي كان يقصد تحديدا مسألة المعونة المالية من قبل الحكومة السوفيتية، وأوضح حمزة أن "شكل هذه المعونة لا يؤدي دوراً كبيراً بالنسبة للحجازيين، فيمكن تقديمها في أي شكل وفي أي صيغة، ظاهريا يمكن أن نصيغ هذه المعونة في شكل عوائد الأوقاف. ومعونة مالية مبلغها زهيد ولا تمثل أي عبء للحكومة السوفيتية قد تكون في الوقت نفسه مهمة بالنسبة للحجاز، وقد تترك انطباعا كبيرا لدى صاحب الجلالة. نحن لسنا ضد اقتراحكم بعزل مسألتي الأوقاف والحج جانبا في الوقت الراهن، ونقترح إفراد مساحة خاصة لمناقشتهما خارج دائرة الاتفاقية التجارية، ولكن يُفضّل لو سمعنا الآن موافقة مبدئية من الجانب السوفيتي على تجاوب الحكومة السوفيتية بشأن قضية الأوقاف، حيث ينبغي قول أي شيء بخصوص حجم المعونة المادية التي يمكن للحكومة السوفيتية تقديمها للحكومة الحجازية. ونحن قد طرحنا هذه المسألة نفسها من قبل على حكيموف ولم يعترض من حيث المبدأ".

ورد تيورياقولوف عليه بالقول: إن طرح المسألة بشكل لا يقيّد الجانب السوفيتي بشروط يبدو له أوقع. "فالحكومة السوفيتية كانت دائما على استعداد لتقديم أي معونة للحجاز، وأقصد هنا المعونة المادية، وفي ظل الظروف القائمة بإمكاننا أن نقدم هذه المعونة ولو في شكل سلع يحتاج إليها الجانب الحجازي، وقد ذكرت لكم ذلك بالتفصيل في الجزء الرسمي من محادثاتنا، فإذا دخلت حكومة صاحب الجلالة في صفقة معنا فهذا أولا لن يعني خضوعها لإرادتنا، وثانيا ستوفر الحكومة مبالغ طائلة من أموال الخزانة،

وأنا على استعداد لبلورة هذه المسألة معكم مرة أخرى، ولكني مضطر الآن أن ألفت انتباهكم إلى نقطة معينة وهي أن قرار الحكومة الحجازية بعدم السماح بالتجارة السوفيتية في الحجاز قد ترك في موسكو انطباعا شديد الوطأة، حيث أثار هذا القرار لدينا شيئا من الحيرة، ولا أخفي عليكم أن هذا الانطباع لا يزال قائما حتى الآن، ويجب على الجانب الحجازي وهو يطرح مسألة التعويضات أن يسارع في ترك انطباع آخر لدى موسكو، ووقتها سنبدأ معا بكل صراحة دراسة كافة القضايا التي تهم البلدين دراسة مفصلة" .

لقد ظلت قضيتا الأوقاف والحج حجر العثرة الرئيس على مدار السنوات الطويلة التي قضاها نذير تيورياقولوف في الكفاح من أجل إلغاء القيود التجارية المفروضة على الاتحاد السوفيتي، حيث استمر يتشاور دوما مع موسكو بشأن إمكانية حل هاتين المشكلتين بأقل خسارة مادية وسياسية للاتحاد السوفيتي، معربا دائما عن تصوراته الشخصية في هذا الصدد. فمثلا بخصوص مشكلة «أملاك الأوقاف» كان تيورياقولوف يقترح اتباع التكتيك التالي: كبداية نحاول تمرير صياغتنا (للمادة ١١) والتي تقضي بحل المسألة من جانب واحد. وفي حالة إذا لم يُقبل هذا العرض ينبغي اقتراح عدم التطرق إلى هذه المسألة في المعاهدة بالمرة، وأخيرا وكصياغة ثالثة يجب علينا طرح اقتراح بالإقرار بتخلي الجانبين عن المطالب الخاصة بالأوقاف. وعلى كل حال فمن غير المقبول تماما بالنسبة لنا أن تنص المعاهدة على الحق في الأوقاف الواقعة داخل أراضي الاتحاد السوفيتي" .

ومن المحادثات مع فؤاد حمزة وغيره من كبار رجال الدولة اقتنع تيورياقولوف أن القيادة السعودية ستطرح أثناء هذه المفاوضات مسألة

«المقابل» السياسي والمادي الذي بإمكان الحكومة السوفيتية تقديمه مقابل حقها في التجارة في الحجاز والمكاسب المحصلة من هذه التجارة، وكان المقصود هنا الحجاج السوفيت والسماح بدخول «المطوِّفين». وكان لدى تيورياقولوف كافة المبررات للافتراض بأن كل هذا كان ذرائع مفتعلة، وأنه إلى أن يتم حل هذه المسألة التي تعد المسألة الأساسية بالنسبة للجانب السوفيتي لا يفضل الدخول في مفاوضات والمخاطرة بإفشالها "على يد خصومنا بالحجة التي تروق لهم".

ففشل المفاوضات يمكن تفسيره للشعب على أنه يرجع إلى تحريم الحج في الاتحاد السوفيتي والتعليق عليه بأنه نتيجة لسياسة الحكومة السوفيتية التي لا تقوم أبدا على مبدأ المعاملة بالمثل، لذلك ارتأى تيورياقولوف أن من الأفضل الإدلاء بتصريح للملك بأن الحكومة السوفيتية "التي اقترحت في حينها صياغة العلاقات السوفيتية الحجازية في معاهدة، قد استقبلت عرض الملك بإبرام معاهدة بارتياح، وأنها تنظر إلى هذه الخطوة من قبل آل سعود على أنها دلالة على ثقته ووده تجاه الاتحاد السوفيتي، ولكنها ترى أن التفاوض بشأن هذه المسألة لابد أن يتم في الوقت الذي تراه حكومتا البلدين مناسبا لمصالحهما، وترجو من الملك إبداء وجهة نظره بشأن توقيت المفاوضات".

وبعد أن لخصت حكومة الملك شروطها كتابيا واستؤنفت المفاوضات السوفيتية السعودية بالحجم نفسه الذي كانت عليه طرح نذير تيورياقولوف في أبريل عام ١٩٣١م وجهة النظر السوفيتية، وبعث بتصوراته إلى قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، حيث كتب خاصة يقول "سواء البعثة

السوفيتية أو القنصلية لن تعملا بالتجارة. ونحن لم نسع للحصول على هذا الحق لأن هيئاتنا الدبلوماسية والقنصلية في الخارج لا تعمل في الغالب بالنشاط التجاري، وإذا كان ولا يزال لدى الحكومة الحجازية مخاوف ما من أن البعثة والقنصلية في حال اشتغالها بالتجارة واستغلالها لامتيازاتها ستتهرب من خضوعها للقوانين المحلية فإن مثل هذه المخاوف ليس لها أساس، فالنشاط التجاري تقوم به مؤسسات متخصصة.

والجانب السوفيتي ليس لديه اعتراضات، فنحن لا نسعى إلى أي امتيازات دبلوماسية أو قنصلية أو تجارية لمندوبي مؤسساتنا التجارية، ولا يوجد اعتراضات من جانبنا، فمندوبو مؤسساتنا التجارية يخضعون في نشاطهم للقوانين المحلية، وهم لا يمثلون الدولة السوفيتية وإنما يمثلون المؤسسات التجارية السوفيتية، وفي هذا البند يجب -بالطبع- أن تتطابق وجهة نظرنا مع وجهة النظر الحجازية، مادام لم يكن هناك خلاف بين الجانبين بخصوص البندين الأول والثاني، وليس لدينا أي اعتراضات على وجهة النظر الحجازية، فنحن نسدد عند دخول بضائعنا قيمة الرسوم الجمركية نفسها التي تحصَّل على بضائع الدول الأخرى.

أما قضية الأوقاف فهي قضية صعبة للغاية وتتطلب دراسة دقيقة للملف، وليست لها علاقة مباشرة بموضوع إلغاء الحظر على التجارة السوفيتية، ونحن لا نتهرب من بحث هذه القضية، وإنما يتعين إدراجها ضمن مجموعة القضايا موضوع تفاوضنا بشأن الاتفاقية التجارية .

كما أنه من غير الممكن أن يتعهد الجانب السوفيتي بالمساعدة على أداء

المواطنين السوفيت فريضة الحج، فهذا التعهد في الحقيقة لم يكن معمولا به في أي مكان، أما فيما يخص ترانزيت الحجاج عبر الاتحاد السوفيتي فإن مؤسسة «سوفتورغفلوت» للنقل البحري والسلطات السوفيتية كانت قد قدمت للحجاز حتى ذلك الحين الكثير من الخدمات في هذا الشأن. ويكفي أن نذكر هنا مثالا واحدا حتى ندرك مدى أهمية ترانزيت الحجاج عبر الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت، وهو أن السفر عبر أراضي الاتحاد السوفيتي كان يختصر المسافة بالنسبة للحجاج الكشغريين على سبيل المثال مدة أربعة أو خمسة أشهر، ولكن تسجيل هذا الترانزيت كتعهد وربطه بقضية التجارة السوفيتية في الحجاز هو في رأي المندوب السوفيتي أمر سابق لأوانه.

أما بخصوص دخول مواطني البلدين كل إلى البلد الآخر فلم يكن هناك خلافات بين الجانبين حول جوهر هذا الموضوع، حيث يقول تيورياقولوف: "نحن لدينا أيضا عدد من القضايا ، إلا أننا نرى أنه لا يفضل ربطها بالقضية الرئيسة الخاصة برفع الحظر عن التجارة السوفيتية في الحجاز، وبناءً على ذلك -ولصالح المفاوضات- نرى من الأجدى إدراج مناقشة البنود ٥ و ٦ و ٧ من المطالب الحجازية ضمن التفاوض بشأن الاتفاقية التجارية".

إن مثل هذا الرد كان من المفترض النظر إليه على أنه مجرد عرض مبدئي لوجهة نظر الجانب السوفيتي بشأن القضايا المطروحة من قبل الحكومة الحجازية، حيث يقول تيورياقولوف: "لقد وضّحنا إلى أقصى حد القضايا التي تهم الحكومة الحجازية والمتعلقة بشكل مباشر بإلغاء حظر التجارة السوفيتية في الحجاز. وهذا الرد يحدد الموقف السوفيتي بوضوح

وهو أنه إن كنا نسعى لشيء فإنما نسعى إلى مساواتنا مع الآخرين في الحقوق. ومن علاقات الصداقة القائمة بين الحجاز والاتحاد السوفيتي وتوافر حرية التجارة في الحجاز نستنتج أن نظام الاستثناء تجاه التجارة السوفيتية يجب إلغاؤه. والآن نحن ننتظر من الحكومة الحجازية أن تقوم بهذه الخطوة بالذات، أي إلغاء نظام الاستثناء".

إن التجارة السوفيتية حسب تأكيد تيورياقولوف لم تؤدّ قط إلى إثارة الفوضى في السوق الحجازية، وهو ما ثبت أكثر من مرة من تجربة «العامين الماضيين». أما السماح بالتجارة السوفيتية في الحجاز في ظل الظروف المستجدة فتزداد أهميته يوما بعد يوم لصالح الحجاز نفسها في المقام الأول، فالفرق في الأسعار بين اليمن والحجاز، وخاصة أسعار المنتجات البترولية التي كانت الحكومة الحجازية تحتاج إليها أكثر بكثير من الحكومة اليمنية، إن دل فإنما يدل على شئ واحد، ألا وهو "أن السوق الحجازية تسودها حالة غير طبيعية بالمرة من تجارة المضاربة"، ثم إن هذا كان يحدث في وقت كانت أسعار النفط العالمية تشهد فيه انخفاضا بسبب الأزمة. وكان تيورياقولوف يرى أن "السبب وراء هذه الظاهرة يرجع في المقام الأول إلى حظر التجارة السوفيتية".

واستطرد تيورياقولوف قائلا: "علاوة على ذلك يمكنني التأكيد بأن الحكومة الحجازية إذا طلبت من الحكومة السوفيتية السلع التي تحتاج إليها فإن بإمكانها أن تعول على المساعدة المعروفة سواء بخصوص الأسعار أو بخصوص القرض، فالحكومة السوفيتية عادة لا تعطي قروضا على سلع

الدرجة الأولى، ولكنها في هذه الحالة مستعدة لعمل استثناء لحكومة صاحب الجلالة، وبإمكان الحكومة الحجازية أن تتأكد من هذا بسهولة باتخاذ خطوات جادة ومناسبة في هذا الاتجاه، فمهمة الحكومة الحجازية أن تستغل هذه الإمكانية لصالحها.

إن مفاوضاتنا تُستأنف بكامل حجمها، والحكومة السوفيتية تظل مخلصة لسياستها، إذ لا تضع حكومة الحجاز في موقف صعب، وانطلاقا من هذا المبدأ تعلن أنه إذا ارتأت الحكومة الحجازية لظروف واعتبارات ما أن إبرام اتفاقية تجارية معنا في الوقت الراهن يعد أمرا سابقا لأوانه فإن الحكومة السوفيتية لا تعارض في أن توضع المفاوضات بشأن معاهدة الصداقة في المقدمة، واستنادا إلى أن الحكومة الحجازية لم تبد من قبل أي اعتراضات على مشروع معاهدة الصداقة الذي قمت بتقديمه فإنني اقترح أن ننهي عملنا في هذه الجزئية في أقرب وقت ونوقع معاهدة صداقة بين البلدين".

ومن الواضح أن نذير تيورياقولوف وهو يقترح مثل هذه التدابير كان يرى أنه من الأجدى التحول إلى تكتيك المماطلة في المفاوضات ما أمكن لحين تكشّف الوضع السياسي في المملكة، ووقتها يمكن للجانب السوفيتي اتخاذ ما يراه مناسبا من التحركات. أما في الوقت الراهن فالجانب السوفيتي - كما ذكر تيورياقولوف لكبار المسؤولين في المملكة - غير مستعد لبحث القرض السلعي طويل الأجل مع الحكومة السعودية إلا بعد إبرام المعاهدتين السياسية والتجارية، وإذا ارتأت الرياض لسبب ما أن الوقت غير مناسب لإبرام معاهدة تجارية فإن الاتحاد السوفيتي، سعيا نحو تعزيز علاقات الصداقة، على

استعداد للاكتفاء مؤقتا بتوقيع المعاهدة السياسية، ولكن في هذه الحالة "نحن لا نرى مانعا من إبرام صفقات قصيرة الأجل بالاتفاق مع شركاتنا التجارية".

وجاء على الفور رد اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية وكان حادا وقاطعا، حيث أبلغت اللجنة تيورياقولوف بأنه "بخصوص الحجاج السوفيت والسماح بدخول المطوّفين إلى بلادنا نحن نتخذ موقف الرفض، وهذا لابد من توصيله إلى آل سعود في صيغة لينة ولكن قاطعة وبتكتيك مناسب، ومن المستبعد أن يتلقى الملك هذا بامتعاض، لأن مصير هذه القضية ليس أفضل حالا في تركيا وإلى حد ما في فارس اللتين تعدان -مع ذلك- دولا إسلامية، فكما تعرفون هناك إجراءات تُتَّخذ سواء في تركيا أو فارس لتخفيض نسبة الحجاج. أما فيما يتعلق بنا فنحن رغم قلة عدد الحجاج السوفيت لدينا رحلات خاصة ونقوم بتوصيل الحجاج إلى الحجاز وخاصة الأجانب، ولا يجب التعويل على أكثر من ذلك من جانبنا".

كانت معلومات موسكو صحيحة، فالانخفاض السنوي في عوائد الأوقاف القادمة من مصر بمقدار ٧٠ - ٨٠ ألف جنيه مصري و٢٠ - ٢٥ ألف أردب من القمح كان بالفعل بمنزلة دافع قوي للغاية لكي يعجل آل سعود بحل هذه القضية. وكما هو الحال مع الاتحاد السوفيتي لم يستطع الملك الحصول من مصر على عوائد الأوقاف عن السنوات العشر الأخيرة رغم سعيه الحثيث لذلك.

أما تيورياقولوف فكان مقتنعا حتى النهاية أن تلبية موسكو لمطالب مكة بشأن الأوقاف قد يكون له أهمية سياسية «ضخمة»، وقد يعزز مكانة الدولة السوفيتية في دول العالم الثالث إذا أخذنا في الاعتبار أن مثل هذه العوائد

كان من المفترض أن تقوم بأدائها مصر والأردن وغيرهما من الدول الإسلامية. أما فيما يخص الحجاج فكان يرى أن المساعدة في مرور ما يقرب من ١٠ - ١٥ ألف شخص عبر الأراضي السوفيتية سنويا من شأنه أن يترك "انطباعا جيدا للغاية وأن يزيل الاتهام باضطهاد الإسلام".

في الحقيقة كان تيورياقولوف يبرر توصياته في تقاريره إلى إدارة اللجنة الشعبية التي كانت تنم عن إلمامه بجوانب القضية، فقد قام بزيارة إلى عبدالله رضا محافظ جدة الذي تطرق بنفسه إلى قضية الحج، حيث راح المحافظ يشكو من سوء الأحوال وانخفاض عدد الحجاج وغياب الحجاج السوفيت، وأشار تيورياقولوف له أن المسلمين الروس ينبغي عليهم أولا "إعمار اقتصادهم ثم بعد ذلك يفكرون في المسجد، كما جاء في الحديث النبوي". أما الحكومة السوفيتية فمثلها مثل حكومة تركيا لا تضع العراقيل أمام الحج. وأبدى المحافظ اعتراضه قائلا أن تركيا تقلّد الاتحاد السوفيتي، وأن إعمار الاقتصاد لا يمنع الحج.

وفي مذكراته إلى الإدارة كان تيورياقولوف يسوق البراهين التالية: "لو قدم من الاتحاد السوفيتي ألف حاج لما ألحق هذا ضررا كبيرا بمائة وثمانين مليون، فهذا من شأنه أن يترك انطباعا جيدا للغاية في الدول الإسلامية، ولن يقال: إن الاتحاد السوفيتي معاد للإسلام وأن الاتحاد السوفيتي يحرّم الحج. هذا رأيي الشخصي". أما في محادثاته مع الشخصيات السعودية فكان الأمر يتطلب منه الحرص على توصيل فكرة أن هذه المسألة يجب بحثها بعيدا عن المشاكل السياسية والاقتصادية.

إن قدرة تيورياقولوف على الاستعانة بالقرآن في الوقت المناسب قد أدّت إليه الكثير من الخدمات الجليلة. كذلك مما لا يقل أهمية بالنسبة لمكانته داخل المجتمع السعودي هو حرصه على الالتزام إلى أقصى درجة بمبادئ الإسلام وتعاليمه مستفيدا من سمعته كمسلم متدين أكبر استفادة، زد على ذلك قيامه بأداء فريضة الحج والعمرة أكثر من مرة، كما استغل مناسبة عيد الفطر لتوسيع علاقاته «الإسلامية» الشخصية، فكما يقول: "تبادلنا التهاني مع ما يزيد على ١٠٠ شخص، كما كان عندنا حفل استقبال للمعارف الذين جاءوا للمعايدة".

إن الحج هو أحد أركان الإسلام الخمسة، وتؤدّى شعائره في مكة، حيث يتوافد إليها سنوياً ملايين المؤمنين لأداء مناسك الحج. والحج واجب على كل مسلم قادر بدنيا وماديا، ومن الواضح أن القادرين بدنيا وماديا كانوا قلة في الاتحاد السوفيتي في العشرينيات والثلاثينيات، ولكن المؤتمرات الإسلامية العالمية التي انعقدت في مكة في النصف الثاني من العشرينيات كان يشارك فيها وفود عظيمة الشأن نيابة عن المسلمين السوفيت، وكان يُطلَب من هذه الوفود تنشيط مشاركتها في بحث كافة القضايا الإسلامية سواء العامة أو الخاصة. ورغم أن الإلحاد كان هو السائد في الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت إلا أن الكريملين لم يمانع حتى في العشرينيات والثلاثينيات أن تقوم سنويا مجموعات صغيرة منظمة من مسلمي التتار وبشكيريا وجمهوريات آسيا الوسطى بأداء فريضة الحج.

ولكن كان هناك عدد أكبر بكثير ممن كانوا مضطرين لأداء هذه الفريضة المقدسة بطرق غير مباشرة. وبالطبع كان مصير هؤلاء يثير قلق المندوب

المفوض السوفيتي، حيث حاول قدر المستطاع مساعدة مواطني جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية الذين تسللوا إلى الحجاز عبر الهند بصورة غير شرعية وواجهوا مشاكل مالية ضخمة. فبعث برسالة خاصة إلى كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية يرجوه فيها حل مسألة عودتهم إلى وطنهم، مستندا في ذلك إلى التجربة الناجحة للسلطات الإنجليزية والإيطالية في مثل هذه الأحوال. ومقترحا جدولا محددا لترحيلهم.

وقد وصل الأمر لدرجة أن تجرأ تيورياقولوف على التوسط لدى السلطات السوفيتية لتسوية المسائل المتعلقة بمصير من بقي في أوزبكستان من أقارب المواطنين السوفيت الذين غادروا إلى جدة، هذا ما حدث على سبيل المثال مع المدعو موسى بيفييف وكذلك مع ميان قدرات وهو من عشيرة أكبر ملاك الأراضي ومنتجي القطن في فرغان قبل قيام الثورة، وكان يعقد كل آماله على المندوب السوفيتي.

كذلك تملّك تيورياقولوف القلق بشأن مصير الحجاج الأجانب الذين وصلوا على متن السفينة السوفيتية «فانسيتي» التي لم تفلت من الغرامة إلا بمحض الصدفة، فهي سفينة ركاب لم تكن مجهزة كما يجب، وكانت تحمل على متنها ٢٠٠ حاج من فارس، ورفض لازاريني وكيل مؤسسة «سوفتورغفلوت» للنقل البحري إبقاء السفينة لإعادة هؤلاء إلى الخليج العربي، وكتب تيورياقولوف مستاءً يقول: "لابد من إبلاغ اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية أن مؤسسة سوفتورغفلوت» إذا كانت تأخذ الحجاج في موسم

الحج من الخليج العربي فعليها أن تجهز بواخرها كما يجب، بحيث يتم تسكين الحجاج في عنابر وليس على السطح".

وبعث برسالة إلى موسكو يذكر فيها تاريخ بدء موسم الحج بالتحديد، حيث كتب يقول: "إن ردي المبدئي على استفساراتكم كان تقريبيا حيث يستند إلى التقويم، وأنتم تعلمون أن بداية شهر رمضان ونهايته تتحدد على أساس رؤية الهلال التي لا تتطابق دائما مع التقويم، ومن هنا يكون التقويم تقريبيا، والآن وبناء على منشور وزارة الخارجية في مكة يجب إبلاغ ذلك إلى هيئات ووكلاء «سوفتورغفلوت» العاملين في مجال استقبال ونقل الحجاج، ورجاء أن يقوموا بتدقيق مواعيد مغادرة بواخرنا من أوديسّا".

وكان المندوب النشيط يجد الوقت ليلمّ بكافة الأحداث الجارية، وذلك من خلال تنشيط اتصالاته ليس بالعديد من «الأعيان» السعوديين فقط وإنما أيضا بالدبلوماسيين الأجانب. كذلك لم يكن يفوته الالتقاء بمختلف الشخصيات الوافدة لأداء فريضة الحج، بما في ذلك أبناء بلده في المهجر. وكان م. الطيب رئيس البوليس السياسي في الحجاز قد حكى له ذات مرة عن نصير الوحدة الإسلامية المعروف عبد الرشيد ابراهيموف السيبيري الأصل الذي استقر في تركيا، والذي قدم للملك آل سعود في عام ١٩٣١م مذكرة تتضمن اقتراحا بإنشاء "الجمعية الإسلامية العالمية في مكة لمساعدة ابن سعود وبحث كافة قضايا المسلمين منتهزاً فرصة الحج". ولكن الملك لم يستقبل عبد الرشيد ابراهيموف وقتها لأن -على حد افتراض تيورياقولوف- "هذا العرض قد أثار فزعه".

وكانت مكة في موسم الحج مكانا مناسبا أيضا لعقد اللقاءات مع الحجاج من كبار المسؤولين في دول العالم الثالث، مثل أحمد خان وزير الخارجية الأسبق لدى الأمير الأفغاني أمان الله الذي أطيح به في عام ١٩٢٩م. حيث حاول الوزير إقناع نذير تيورياقولوف بولاء أمان الله للاتحاد السوفيتي وأن الثورة «الثانية» ستقوم لا محالة وسيسقط نادر شاه. وكانت مثل هذه الموضوعات - لنَقُلْ - الحساسة تتطلب من تيورياقولوف أقصى استعداد وقدرة على التصرف بالشكل الذي كانت تمليه مصالح الدولة السوفيتية في ذلك الوقت. حيث يقول: "في موضوع أمان الله ونادر شاه تصرفت بتحفظ شديد". وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى الموقف المتعلق بوصول الأمير الأفغاني السابق وحاشيته لأداء فريضة الحج، حيث ألحت السلطات المحلية وعين المُلْك القائم بأعمال دولة فارس في طلب مشاركة أعضاء السلك الدبلوماسي في استقبال أمان الله في ميناء جدة، وأمام هذا الإلحاح ارتأى تيورياقولوف بصفته عميد الدبلوماسيين ضرورة الامتناع عن هذا الاستقبال تجنبا لوقوع رد فعل سلبي من السلطات الرسمية في كابل.

كذلك كانت تظهر في موسم الحج شخصيات غريبة لم يكن هدفها واضحا في كل الأحوال، ولكنها كانت تجبر على الافتراض بأن همها الأول هو المعلومات، ومن هذا القبيل ما أبلغه تيورياقولوف لموسكو من أن "الخوجا غلام محمد لاغوري الهندي قد عاود الظهور، واستقبله سكرتير البعثة حيث قال إنه قد جاء للحج لأغراض سياسية، وسأل عما إذا كنّا نعرف عبيد الله أفندي الذي يعيش في مكة منذ ٢٦ عاما، وعندما أفاد السكرتير بأن هذه المسائل لا تهمه جرى الحوار التالي بينه وبين الهندي:

- إنني أرغب في دراسة دستور الاتحاد السوفيتي، ألا يمكنكم إعطائي بعض الإيضاحات؟

- يوجد كتب في هذه الشأن باللغة الإنجليزية، أما تفسير الدستور للأفراد فلا يدخل ضمن اختصاصاتي القنصلية.

- مؤسستنا في حاجة إلى الأموال، وبما أنها تعمل بالتجارة بهدف الحصول على الأموال ألا يمكنكم المساعدة في شراء السلع السوفيتية بالأسعار الجديدة حتى ننفق الأرباح على الدعاية.

- دعم التجارة في الهند لا تدخل ضمن اختصاصاتي بالمرة.

- إنني أرى أن سيادتكم تنظرون لي بارتياب، إذا كنتم تشكون أنني أمارس نشاطا مريبا يمكنني أن أحضر لكم صحف مؤسساتنا وستجدون اسمي بها.

- هذا أمر لا يعنيني.

وهذا الهندي يبدو حتى أنه ليس مسلما، لأنه لا يتقن لغة الأوردو التي يتحدث بها كل مسلمي الهند".

وفي موسم الحج حضر إلى مكة لأغراض شخصية غالب بيه الضابط التركي السابق، وكان يعمل في ذلك الوقت مدرسا بالمدرسة العسكرية العليا في صنعاء، وهو عربي الأصل، وفي أفكاره متعصب للقومية العربية. وقد أعلن انجذابه إلى الاتحاد السوفيتي، وطلب من تيورياقولوف أن يحضر له من موسكو خرائط جغرافية وأطالس (مجموعة أو مجموعتين) للمدرسة التي يعمل بها، وتوجه تيورياقولوف بهذا الصدد إلى اللجنة الشعبية

للشؤون الخارجية وأوصى بحكم عمله في طباعة الكتب سابقا بالتوجه إلى دار النشر المركزية "التي تتوافر بها خرائط وأطالس يمكن وضع البيانات عليها بأي لغة".

وآتت هذه المقابلة ثمارها، إذ تبادل غالب بيه مع تيورياقولوف انطباعاته عن مكة، ليس هذا فحسب وإنما أدلى إليه أيضا بمعلومات مهمة عن اليمن وخاصة عن جبهة «الزرانيق»، حيث كتب تيورياقولوف يقول: "أفاد غالب بيه بأن جبهة الزرانيق قد تم تصفيتها، والمدرسة العسكرية سيتم تدريجيا عمل إعادة هيكلة لها، حيث من المخطط أن يتم تحسين مستوى تدريب الشباب بالمدرسة، وذلك على يد ستة من اليمنيين درسوا الطيران في ميلانو وعادوا إلى اليمن، والصورة العامة للاتحاد السوفيتي في الحجاز جيدة، والعلاقات بين اليمن والحجاز تتحسن، وإبان الغارات الجوية الإنجليزية كان غالب بيه - على حد قوله- في صنعاء وشارك في تنظيم الدفاع وتركيب المعدات المضادة للطائرات".

ولأن المسائل الخاصة بالتجارة لم يكن قد تم تسويتها بعد فقد وصل الأمر إلى ترتيب مأمورية الرفيق حكيموف للحجاز على أنها رحلة لأداء فريضة الحج وتم طلب التأشيرة له على هذا الأساس. "وبعد الحملة الأخيرة على الكنائس التي وصلت أخبارها إلى الحجاز عبر الصحافة المصرية سألني الكثيرون عن وضع المساجد في الاتحاد السوفيتي، وموقف السلطات السوفيتية من المسلمين، وموقفنا الشخصي من الحج... إلخ"، وأعطى تيورياقولوف الإيضاحات اللازمة في مثل هذه الأحوال، مشيرا إلى

أنه سيقوم بأداء فريضة الحج مع غيره من المسلمين في أقرب فرصة. "أظن أننا سنبذل أنا وحكيموف كل ما في وسعنا كي نكتفي بتنفيذ أهم ما يلزم تنفيذه أثناء الحج إذا تطلبت الظروف ذلك. أما فيما يخص الجانب التجاري لزيارة الرفيق حكيموف فهو يتلخص - كما يبدو لي - في أن يقوم بالتعاون معنا بدراسة الظروف المستجدة في السوق وصياغة سياستنا في النشاط التجاري (حتى نتجنب أخطاء الماضي) وتوسيع دائرة اتصالاتنا التجارية".

ومن بين الحوارات المهمة بالنسبة لتيورياقولوف أثناء الحج كان ذلك الحوار الذي جرى مع أحمد خان وزير الحربية لدى الأمير الأفغاني السابق أمان الله والذي سبقت الإشارة إليه، حيث يقول: "لقد صرح لي أحمد خان أنه جاء على أمل اللقاء هنا بالسفير الأفغاني السابق لدى تركيا ميرزا غلام جيلاني خان (والذي جاء أيضا إلى هنا بالفعل)، وتحدث كثيرا عن ولاء أمان الله للاتحاد السوفيتي، وعدم رضاء الشعب عن نادر شاه، وحتمية قيام الثورة «الثانية» في أفغانستان ثم إسقاط نادر شاه، وأنبأني بخبر جديد وهو الاتفاقية التي أبرمت منذ فترة قريبة بين الإنجليز والشركتين الألمانية لانش والفرنسية كليمانكو بشأن امتياز بناء خط حديدي في أفغانستان، وهذا الامتياز (العقد) قد أبرم -على حد قوله- مع الألمان والفرنسيين. ولكن الألمان والفرنسيين لا يملكون أدوات فعلية للتأثير على أفغانستان في حالة ظهور خلافات، ويشعرون -وهو الأهم- بهشاشة هذه الصفقة بحكم تعارضها ومصالح إنجلترا، ولذلك عقدوا اتفاقا مع الإنجليز، وبناءً عليه وبعد هذا التآمر اتخذت الصفقة طابعا آخر غير

مقبول للأفغان. ووعد أحمد خان بزيارتنا في جدة. وبخصوص موضوع أمان الله ونادر شاه تصرفت بتحفظ شديد".

ووصل الأمر إلى أن جاء للحج وفد بولندي يضم الكونت راتشينسكي ومفتي بولندا يعقوب شينكوفيتش بهدف مد الجسور مع المملكة العربية السعودية، حيث أعلن الوفد رسميا اعتراف بولندا بالدولة السعودية ورغبتها في إقامة علاقات سياسية وتجارية مع الحجاز، وردت الحجاز بتوفر نفس الرغبة. وفي هذا الصدد ذكر تيورياقولوف أن المحاولات البولندية "لإقامة علاقات صداقة وعلاقات تجارية" مع الحجاز تتزامن مع تزايد نشاط الفرنسيين في المنطقة، وأن "بولندا - على ما يبدو - ما كانت لتشرع في إبداء اهتمامها الكبير بالشؤون الحجازية ورغبتها في إقامة علاقات دبلوماسية مع الحجاز إلا بإرشاد من باريس، أما الوفد الثاني الذي وصل على الباخرة «كراكوف» فلم يضم إلا العسكريين فقط، وجاء محملا بالهدايا للملك".

إن وجود المفتي ضمن الوفد البولندي الأول كان له -في رأي تيورياقولوف- مضمون سياسي معروف وموجّه ضد الاتحاد السوفيتي بشكل سافر، فالقرار الذي اتخذه مسلمو وارسو في أيام عيد الأضحى، والذي يطلبون فيه من بابا روما وأسقف كينتربري أن يتولّيا برعايتهما الإسلام المضطهد في الاتحاد السوفيتي على حد زعمهم، من المفترض أن يكون بمنزلة شهادة لدى المفتي عند تقديمه للملك آل سعود، بيد أن بولندا لم تكن تُعد «دولة إسلامية» بحكم قلة عدد المسلمين بها وضآلة ثقلهم الديني والاجتماعي.

ويتوصل تيورياقولوف إلى استنتاج يفيد بأن النوايا الفرانكوبولندية لم تكن تتضمن الكشف قبل الأوان عن خطط البلدين ضد الاتحاد السوفيتي، حيث كان من المفترض أن يدلي المفتي بأهم تصريحاته وراء الكواليس، في جو غير رسمي. والشخصية التترية سالفة الذكر عبد الرشيد ابراهيموف (وهو نفسه «رشيد قاضي»، وكان قبل الحرب العالمية قد استقر في تركيا) والمعروف آنذاك "بملهم الإصلاح الإسلامي الذي يقيم الآن في مكة مؤقتا قد أكد ادعاءات شينكوفيتش ضد الاتحاد السوفيتي أمام ابن سعود. صحيح أن ابن سعود قد أخذ هذا للعلم فقط ولم يقم بعمل أي استنتاجات عملية من ذلك سواء لنفسه أو لسياسته، وجميع الشائعات القائلة بأن ابن سعود قد ألقى كلمة موجهة ضد الاتحاد السوفيتي لا أساس لها بالمرة. ولو كانت مثل هذه الكلمة قد صدرت من ابن سعود بالفعل لأبلغنا موسكو في حينه، ولكن تحركات البولنديين ضد الاتحاد السوفيتي من خلال مفتيهم واضحة كالشمس...".

ولم تسفر محاولات المفتي البولندي للحصول من ابن سعود على إعلان مناهض للسوفيت لحماية الإسلام في الاتحاد السوفيتي عن نتائج مباشرة، غير أن المعلومات التي حصل عليها تيورياقولوف خلال الحج قد سمحت له بالتوصل إلى نتيجة تفيد بأنه "إذا استقر البولنديون هنا في المستقبل فإنهم وقت اللزوم لن يفوّتوا لاستغلال وضع الحجاز بصفتها قلب الإسلام في خططهم وأغراضهم الموجهة ضد الاتحاد السوفيتي".

ومن الواضح أن اتصالات تيورياقولوف النشيطة مع الملك والأمير فيصل

وأعضاء الحكومة السعودية قد ساعدت بلا شك على إزالة القيود المفروضة على التجارة السوفيتية في البلاد. كذلك حوارات الثقة التي كان يجريها في الحج سواء مع رجال الصفوة السعودية أو مع من تقابل معهم بالصدفة، ولكنهم شخصيات مطلعة بدرجة كبيرة. قد أتاحت له الفرصة لأن يلم بالموقف السياسي في المملكة والدول المجاورة، وأن يبني على هذا الأساس توصياته بشأن تنمية العلاقات التجارية والسياسية بين الدولتين السوفيتية والسعودية.

وجدير بالذكر أنه ليس كل ما كان يقوله نذير تيورياقولوف. الدبلوماسي الفذ في موهبته والسياسي الفريد في تفكيره. من توصيات كان يسمع ويؤخذ في الحسبان، فرغم الآفاق التي ظهرت نتيجة لإلغاء «النظام الخاص» المفروض على السلع السوفيتية فقد اتجهت موسكو للأسف إلى تقليص النشاط التجاري في هذه المنطقة. وألمحت موسكو لتيورياقولوف أنه استنادا إلى المشاكل التي واجهتها التجارة الخارجية السوفيتية في الدول الأخرى في عام ١٩٣٣م تتراجع منطقة البحر الأحمر بصفتها الأقل ربحية إلى ذيل القائمة. واعتبر السوفيت حجم الشحنات الموجهة إلى دول حوض البحر الأحمر غير كاف لكي تواصل مؤسسة «سوفتورغفلوت» للنقل البحري رحلاتها إلى المنطقة. على أي حال هذا ما أصرت عليه مجموعة من مسؤولي اللجنة الشعبية للتجارة الخارجية.

أما من كانوا يدافعون في إصرار عن التجارة في منطقة البحر الأحمر فموقفهم لم يسفر عن نتيجة، بل كان يؤدي أحيانا إلى نتيجة عكسية. واتخذ

المندوب المفوض تيورياقولوف كافة الخطوات الممكنة حتى وصل الأمر إلى إرسال تقارير إلى اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي لوقف تراجع التجارة السوفيتية في منطقة الشرق الأوسط. وهناك مذكرة موجهة منه إلى اللجنة المركزية واللجنة الشعبية للشؤون الخارجية و«الدائرة الرابعة بمجلس الثورة العسكري» يستنكر فيها سياسة اللجنة الشعبية للتجارة الخارجية ومؤسسة «سوفتورغفلوت» اللتين تقومان بتقليص نشاطهما في منطقة شمال شرق إفريقيا (الحبشة وإريتريا) والدولتين العربيتين الوحيدتين «اللتان تتمتعان باستقلال فعلي» وهما السعودية واليمن. وتشدد المذكرة على أن منطقة البحر الأحمر و«منطقة العراق وجنوب فارس» المرتبطة بها قد ضاعتا في المنظومة البيروقراطية للجنة التجارة الخارجية.

إن قرار اللجنة بإلغاء الرحلات البحرية وبرنامج التجارة لعام ١٩٣٤ واستدعاء أعضاء التمثيل التجاري... إلخ كان من وجهة نظر تيورياقولوف يرجع إن لم يكن إلى التخريب المباشر فإلى نزعات «التصفية» لدى لجنة التجارة الخارجية: لأن مثل هذه السياسة لم تكن تهدد "بنسف ما تم تحقيقه بعناء كبير من علاقات سياسية وتجارية" فحسب، وإنما كانت أيضا تضعف مواقع الاتحاد السوفيتي ونفوذه في المنطقة بأكملها. ويكفي أن نورد هنا بعض الأرقام حتى ندرك حجم الخسارة التي تكبدها الاقتصاد السوفيتي من جراء القرارات الإدارية العفوية بإلغاء خط «فارس» لسفن مؤسسة «سوفتورغفلوت» والذي كان يربط أوديسًا مع مصر والمملكة العربية السعودية واليمن وإريتريا والعراق وفارس، فقد تم بالفعل سداد ٨٠ ألف روبل ذهبي قيمة إيجار السفن

الأجنبية، وكان من المقرر أن يصل هذا المبلغ إلى ٣٠٠ ألف روبل ذهبي بنهاية عام ١٩٢٤م، وهذا المبلغ كاف تماما لكي تستأنف «سوفتورغفلوت» رحلاتها على خط «فارس»... إلخ.

ويقتنع تيورياقولوف تدريجيا بالعواقب الوخيمة الناجمة عن رفض تقديم القرض السلعي للسعوديين لا لشيء إلا لعدم توقيع معاهدة صداقة، حيث يقول: "لقد كان بإمكاننا بقروض صغيرة أن نشكل وضعا ملائما للغاية بالنسبة لنا في الجزيرة العربية، ولكن هذا لم يتم عمله". وأثبت تطور الأحداث صحة موقف تيورياقولوف الذي كان ينادي في حماس بضرورة زيادة التواجد التجاري والاقتصادي للاتحاد السوفيتي في شبه الجزيرة العربية والمناطق المجاورة لها.

إن ما تضمنه هذا الفصل من وقائع العمل الدبلوماسي اليومي لتيورياقولوف يدل على أن أفكاره وتصرفاته سواء في القضايا الرئيسة لسياسة الاتحاد السوفيتي في المنطقة بأكملها أو في الموضوعات التي كانت آنذاك تبدو حساسة من وجهة نظر الأيديولوجية السوفيتية، مثل الحج وبعض الجوانب الخاصة الأخرى في الإسلام، كانت موجهة للمستقبل البعيد وتخضع لهدف أوحد وهو تدعيم دور الاتحاد السوفيتي ومكانته في شبه الجزيرة العربية والشرق الأوسط بأكمله. ويتضح من المواد الأرشيفية أن تيورياقولوف كان يقاوم بشدة تلك النزعة المدمرة التي ظهرت في موسكو وكانت ترمي إلى تقليص النشاط على الصعيد الشرقي. وفور سفر تيورياقولوف رحل عمليا الاتحاد السوفيتي طواعية من المملكة العربية السعودية ومن سوق البحر

الأحمر الواعدة، وكانت عاقبة ذلك على الاتحاد السوفيتي - كما أثبتت الأيام - سلبية للغاية، فمن المعروف أن حقول البترول الضخمة التي اكتُشِفَت في المملكة العربية السعودية بعد ذلك بقليل قد ذهبت ثمارها للغرب وليس للاتحاد السوفيتي أول صديق للسعوديين.

الفصل الخامس

السفير ودبلوماسية البنزين

إن الدبلوماسي الماهر هو الذي يستطيع دائما أن يفصل كل ماهو مهم عما هو ثانوي في عمله وهو الذي يظل شفافاً ومتساهلاً في الأمور التافهة وغامضاً ومدققاً في الأمور المهمة.

ف. شيسترفيلد

إن مجموعة المهام الملقاة على كاهل المندوب السوفيتي المفوض لدى المملكة العربية السعودية لم تنته عند القضايا ذات الطابع السياسي والتدابير البروتوكولية والقنصلية. إذ كان الاتحاد السوفيتي في تلك الأعوام على بداية الطريق نحو اختراق الحصار الاقتصادي، وكان من بين المهام الملحة آنذاك هو الإسراع في تنمية العلاقات الاقتصادية الخارجية على كافة الأصعدة. وما كانت تقوم به مكاتب التمثيل التجاري السوفيتي في الدول الأخرى بات في المملكة العربية السعودية من مهام المندوب المفوض، زد على ذلك أنه كان يتعين عليه عمليا القيام بذلك «بصورة غير شرعية» أو على أي حال بصورة غير رسمية، لأنه بناءً على طلب الجانب السعودي لم يكن من حق المفوضية أو القنصلية أو من له علاقة بهما من الأفراد الاشتغال بالتجارة.

والأكثر من ذلك أن فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة في معرض حديثه

بشأن النشاط التجاري السوفيتي قد صرح باسم حكومة بلاده أن الحكومة السعودية، رغم أنها لا ترى ما يمنع إبرام معاهدة تجارية مع الاتحاد السوفيتي، تود طرح عدد من الشروط من بينها تخلي الحكومة السوفيتية عن إنشاء تمثيل تجاري لها في جدة. فالتمثيل التجاري في نظر السلطات السعودية قد يشبه «نظام الامتيازات الأجنبية»، وقد يصبح مثالا يحتذي به الآخرون. وبالطبع أثارت هذه الشروط الدهشة لدى موسكو. ففي ذلك الوقت لم تكن مكاتب التمثيل التجاري تنتشر في الدول الأوروبية فحسب وإنما في دول الشرق أيضا، ونشاطها يساعد على تنمية العلاقات التجارية، وكان التمثيل التجاري ينبع بالضرورة من واقع احتكار التجارة الخارجية في الاتحاد السوفيتي، ولم يكن يشبه «نظام الامتيازات» في أي دولة.

ومع ذلك وافقت موسكو على هذه الشروط التي كانت في الواقع في غير صالحها، دون أن تبدي أي اعتراضات حرصا على تدعيم علاقاتها مع الرياض وأوضاعها التجارية في الشرق بشكل عام. بل على العكس اقترحت موسكو على تيورياقولوف أن يعلن للسعوديين بشكل قاطع أن المؤسسات الدبلوماسية والقنصلية التابعة للاتحاد السوفيتي، بما فيها البعثة السوفيتية في جدة، لا ولن تعمل بالصفقات التجارية. فالعمليات التجارية ستُسنَد إلى مؤسسة تجارية قائمة بذاتها هي مؤسسة «فوستفوستورغ» للتجارة بمنطقة الشرق. كذلك قدمت موسكو للجانب السعودي تنازلا آخر لا يستهان به، هو التأكيد بأن مندوبي الشركة التجارية السوفيتية لن يسعوا إلى أي امتيازات دبلوماسية أو قنصلية أو تجارية، وأن الجانب السوفيتي لا يطلب أي تسهيلات خاصة لمؤسسة «فوستفوستورغ».

وهذا البند الذي ينص على تخلي الجانب السوفيتي عن امتيازات ممثله التجاري لم يكن في صالح موسكو بالمرة. فهذه الصيغة كان من الممكن أن تصعّب فيما بعد طرح مسألة افتتاح تمثيل تجاري سوفيتي في الحجاز، رغم أن هذه المسألة لم تكن حتى مطروحة بحكم أنها لم يكن من الممكن تنفيذها، فالجانب السوفيتي كان يناسبه في مرحلة من المراحل أن مندوب الشركة التجارية السوفيتية "يجب أن يكون شخصا عاديا يخضع هو نفسه وكافة أنشطته لقوانين البلاد"، مع أن هذا كان في الواقع يعني أيضا خضوع الشركة التجارية السوفيتية لسلطان القضاء الحجازي.

وليس من العجيب أن تعيّن على تيورياقولوف أن يأخذ على عاتقه القدر الأكبر من هموم قضايا التعاون التجاري والاقتصادي ليتفادى الاتهامات بخرق الاتفاقات التي تم التوصل إليها. وكان لبقا للغاية إلا أنه كان في الوقت نفسه مدققا، وكان ينتهج سياسة حكومته في الحوارات الخاصة مع أعضاء الأسرة المالكة ورجال الدولة السعودية وأقطاب التجارة، دون أن يولي المسؤولية لغيره من أعضاء البعثة. فهم كانوا أقل منه إلماما بالواقع المحلي. ولذا لم يكن بمقدورهم أن يظهروا في مرمى النيران أو أن يعرضوا الإنجازات الضئيلة التي حققتها البعثة للخطر.

وكان من بين هذه الإنجازات اللامعة التي حققها تيورياقولوف على الجبهة الاقتصادية هو ما يسمى «بصفقة البنزين». ولعل ما يثير الاستغراب في وقتنا هذا هو أن المملكة العربية السعودية التي تعد اليوم أكبر منتج للنفط في العالم كانت مضطرة لاستيراد المنتجات البترولية بما في ذلك البنزين من

الاتحاد السوفيتي. فالآن فقط نعرف أن السعودية تمتلك أكبر حقول للنفط في العالم والتي تقدر احتياطاتها المتوقعة بترليون برميل أو ١٣٦ مليار طن، ومما يسترعي الانتباه أيضا هو حجم الاحتياطات المكتشفة بالفعل والذي يبلغ ٢٥٩ مليار برميل (أو ٣٥ مليار طن)، وفي عام ٢٠٠١ بلغ متوسط حجم إنتاج النفط بالمملكة ٨.٦ ملايين برميل يوميا (أي ٤٦٠ مليون طن سنويا)، علاوة على ذلك تقوم المملكة باستخراج الاحتياطات الواقعة في ما يسمي «بالمنطقة المحايدة» على الحدود مع الكويت والتي توفر لها ما يصل إلى ٦٠٠ ألف برميل أخرى يوميا.

وفي الوقت الراهن يشكل البترول السعودي نسبة تتراوح بين ٢٥٪ و٢٧٪ من إجمالي إنتاج منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك)، مما يجعل نصيب المملكة ١٠٪ من إجمالي مبيعات البترول في العالم، كما أن ١٧٪ من ورادات البترول في الولايات المتحدة الأمريكية تأتي من المملكة العربية السعودية، وأي تخفيض أو زيادة ولو طفيفة في صادرات البترول السعودية تنعكس فورا على معدل الأسعار في السوق العالمية. وقد أتاحت الثروة البترولية للمملكة حتى يومنا هذا أن تضمن لرعاياها حياة أكثر من مرفّهة، فطبقا لمعلومات وزارة الطاقة الأمريكية يشكل البترول في السعودية ما يصل إلى ٩٤٪ من إجمالي دخل الصادرات، و٧٠٪ من دخل الدولة، ومن ٣٥٪ إلى ٤٠٪ من إجمالي الناتج المحلي.

أما «صفقة البنزين» فهي عبارة عن عملية لتوريد المنتجات البترولية للدولة السعودية آنذاك، قام بترتيبها المندوب المفوض السوفيتي بناءً على طلب

من الملك شخصيا. وكانت الصفقة تشتمل على ٥٠ ألف «صندوق» من البنزين ومثلها من الكيروسين، وهو الحد الأدنى الإستراتيجي اللازم للنظام السعودي الشاب سنويا لتعزيز مواقعه في المحافظات وضمان عمل الاتصالات البريدية، ناهيك عن أنه بحلول عام ١٩٣١م الذي تمت فيه «صفقة البنزين» دخلت المملكة العربية السعودية عصر السيارات كما هو الحال بالمناسبة في الشرق الأوسط بأكمله.

وكان الملك يولي أهمية كبرى لعقد هذه الصفقة مع مؤسسة «سويوز نفط اكسبورت» السوفيتية لتصدير البترول. والدليل على ذلك واقعة صغيرة ولكنها ذات دلالة كبيرة، فكما هو واضح من الوثائق عندما علم وكيل الملك ووزير المالية الجبار عبد الله سليمان بعبور الباخرة «كاترينا» قناة السويس وعلى متنها المنتجات البترولية غمرته سعادة بالغة لدرجة أنه توجه شخصيا إلى الميناء لوداع نذير تيورياقولوف الذي كان متوجها إلى أرض الوطن لقضاء إجازته التي طال انتظارها. وبشكل عام فإن اعتماد الملك وحاشيته على الاتحاد السوفيتي تحديدا في مسألة مهمة مثل توريد المنتجات البترولية هو أمر له دلالات كثيرة، فوقتها في بداية الثلاثينيات، أي قبل اكتشاف مكامن البترول في السعودية التي تعد أغنى مكامنه في العالم، كان لصفقة البنزين التي أشرف عليها تيورياقولوف (حيث لم يكتف بالاتصال بهذا الشأن بقيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، وإنما قام بالاتصال أيضاً (بأورجونيكيدذه نفسه) أهمية سياسية كبرى، حيث ساعدت أخيرا على كسر حدة اعتماد الرياض من جانب واحد على بريطانيا التي كانت تتصف في ذلك الوقت

بجبروتها، ومما يبعث على السرور الكبير أن ابن بلدنا قد قام بدور نشيط في هذه المسألة الحيوية بالنسبة للنظام السعودي.

كان تيورياقولوف يبلغ موسكو بانتظام بنتائج نشاط لازاريني التجاري، لأنه في المرحلة الأولى للصفقة كان "مندوب لازاريني تحديدا هو الذي يتفاوض مع وزير المالية عبد الله سليمان بشأن البنزين. وقد استجاب لازاريني للكثير من الشروط التي طرحها عبد الله سليمان، ولم يتبق إلا الاتفاق النهائي على السعر، ويبدو أن هذا الأمر أيضا لم يصطدم بمشاكل كبيرة، غير أن الصفقة لم تتم، لأن عبد الله سليمان كان يسعى طوال المفاوضات للحصول على أقصى قدر من التنازلات سواء للحكومة أو لنفسه". وبرّر لازاريني ضرورة ذلك أولا بأن تخزين كمية كبيرة من الوقود المورّد دفعة واحدة يحتوي على درجة من المخاطرة، ولذلك لم يكن الوقود يؤخذ من توكيل شركة «شيل» إلا على قدر الطلب، وثانيا أن البنزين السوفيتي رغم قلة سعره لم يكن من الناحية المالية يناسب القيادة السعودية بدرجة كبيرة، لأنه كان يتعين سداد قيمته بالذهب في الوقت الذي كان توكيل شركة «شيل» يقوم فيه بتسوية حساباته من خلال الجمارك (الرسوم الجمركية على الواردات التي تقوم الشركة بجلبها). وقد أعلن لازاريني في آخر لحظة أنه يتعين عليه الانتظار لحين انتهاء مدة العقد مع وكيل «شيل» والتي من المقرر أن تنتهي بعد ستة أشهر، "ورغم أنه لم يرفض نهائيا، ولا يزال يواصل التفاوض بشأن سعر البنزين فقد تضاءل الإقبال على بنزين بلادنا في الوقت الراهن، رغم تفوّقه الملحوظ سواء من حيث السعر أو من حيث شروط السداد. ولا داعي للقول

بأنه إذا لم تتم هذه الصفقة فإن هذا لن يكون للأسباب التي يتحدث عنها عبد الله سليمان".

لقد كان لدى لازاريني علاقات عمل موسعة مع التجار السعوديين، وكان معنيا للغاية بتسويق البضائع السوفيتية، وبطبيعة الحال كان يفكر أيضا في المكاسب التي ستعود عليه شخصيا من هذا، ولذلك فإن ضآلة النتائج التي أسفر عنها نشاطه في تلك المرحلة كان يرجع في الغالب إلى عدم توافر الرغبة لدى رجال الأعمال السعوديين في الاتجار بالسلع السوفيتية، وكان السبب الرئيس في ذلك هو الكساد التجاري وانعدام الطلب من قبل التجار. إلا أن تيورياقولوف لم يفقد الأمل في تغيير هذا الوضع حيث يقول: "مع اقتراب موسم الحج يمكن أن نتوقع بعض النشاط على الأقل في سوق المواد الغذائية، ويفضل كثيرا لو تجاوبت مؤسسة «فوستغوستورغ» مع لازاريني بقدر الإمكان، وبالمناسبة أثناء المفاوضات مع عبد الله سليمان شغلت جودة البنزين في بلادنا وعبوته حيزا خاصا من الحديث، وبالفعل فعدم شهرة البنزين السوفيتي تُضعف إلى حد ما من موقف لازاريني، لذلك أبدى لازاريني رغبته في الحصول (إذا كان هذا ممكنا) على ألفين أو ثلاثة آلاف صندوق من البنزين كعينة، وقد أبلغناه بأن نقل هذه الكمية الصغيرة يمثل صعوبة، ويفضل لو قامت مؤسسة «فوستغوستورغ» ببحث هذه المسألة، وإذا أمكن تحقيق هذه الرغبة قد يدخل لازاريني في مفاوضات معها".

كذلك اصطدم تيورياقولوف على طريق صفقة البنزين بامتعاض واضح من قبل الأطراف الأخرى، فمثلا حضر إلى مقر البعثة عين المُلْك القائم

بأعمال دولة فارس. وكتب تيورياقولوف عن هذه الزيارة يقول: "عين المُلك مقتنع اقتناعا شديدا وراسخا بأن السبب الرئيس للأزمة هو سعي الاتحاد السوفيتي من خلال الإغراق إلى بث الفوضى في أوروبا وأمريكا وإضعافهما كخصوم سياسيين له. ورحت أشير وأستند إلى كبار علماء الاقتصاد الأوروبيين والأمريكيين والنشرات الرسمية وشهادات البورصات المختلفة ومعاهد دراسات السوق التي تفند أكذوبة الإغراق. ولكن كل هذا لم يؤثر في عين المُلك كثيرا، فهو لا يقرأ شيئا ولا يريد أن يقرأ فهو يعرف كل شيء دون كتب. فهو يعرف على سبيل المثال أن وكلاء جمعية البترول في رشت يزوّدون السائقين المحليين بالبنزين - السوفيتي - المجاني بشرط أن يقوموا ببيعه في شيراز ومناطق جنوب فارس بهدف إزاحة المنتج الإنجليزي. ورحت أوضح له ثانية ولكن دون جدوى. حيث ظل على اقتناعه".

وفي الثاني والعشرين من أبريل عام ١٩٣١م اتفق نذير تيورياقولوف مع فؤاد حمزة على استئناف المفاوضات في بداية مايو، وصرح حمزة وقتها بأن حكومة بلاده تودّ الحصول على مكاسب مادية. وردّ تيورياقولوف بأن هذا يفضل الحديث عنه أثناء المفاوضات. أيضا في هذا اللقاء تساءل حمزة عن أسعار منتجات البترول السوفيتية. مشيرا إلى أن الحكومة تنوي شراء البنزين. وفي الثامن والعشرين من مايو قام تيورياقولوف بالرد على خطاب حمزة بشأن شروط الحجاز لإزالة الحظر المفروض على التجارة السوفيتية، وأبلغه بأن الحكومة السوفيتية بإمكانها توريد البنزين بالأجل. "وبما أن الحكومة الحجازية ليس لديها اعتراضات على المشروع السوفيتي اقترحتُ أن

نقوم بتوقيع معاهدة الصداقة، أما توقيع المعاهدة التجارية فيمكن تأجيله إذا كانت الحكومة الحجازية تعتبر إبرام هذه المعاهدة سابق لأوانه".

وخلال لقاءاته التالية مع حمزة حاول تيورياقولوف إقناعه بأنه لا داعي للإصرار على تعويضات الحج والأوقاف لأن المكاسب المادية يمكن تحصيلها من توسيع العلاقات التجارية مع الاتحاد السوفيتي، وفي السابع عشر من يونيو عام ١٩٣١م التقى نذير تيورياقولوف مع الملك وأسهب في تقديم البراهين على منافع وإمكانات توسيع التجارة مع الاتحاد السوفيتي، وكان تيورياقولوف يؤكد في كل محادثاته أنه للحصول على قروض سلعية لابد من إلغاء نظام الاستثناء المفروض على السلع السوفيتية لإزالة الانطباع السيئ الذي تولد لدى موسكو بسبب هذا النظام، واكتفى الحجازيون بتصريح فؤاد حمزة في الثالث عشر من يوليو بأن «نظام الاستثناء» قد تم إلغاؤه، ولكن على التوريدات الحكومية فقط. وفي الثاني والعشرين من يونيو نقل فؤاد حمزة ردّ الملك الذي أعلن أنه قرر الدخول في مفاوضات مباشرة لشراء البنزين وأنه تخلى عن نظام المناقصات العامة بمشاركة السوفيت الذي كان مقررا من قبل لاعتبارات خارجية. وفي الثالث والعشرين من يونيو بدأت المفاوضات بشأن شراء البنزين وغيره من السلع بين عبد الله سليمان وزير المالية ونذير تيورياقولوف، وفي الثاني من أغسطس قام مندوب مؤسسة «فوستنفوستورغ» جيركفيلوف ووزير المالية الحجازي بتوقيع عقد لتوريد المنتجات البترولية على أن تسدد قيمتها بالأجل، وصدّق على العقد كل من نذير تيورياقولوف والأمير فيصل نائب الملك في الحجاز.

وخلال إبرامه لصفقة البترول لم يكن تيورياقولوف يخطط لحصول الجانب السوفيتي على وعد فوري من الحكومة السعودية بشأن تسوية المشاكل التي تهم الاتحاد السوفيتي، وهي المعاهدة السياسية والمعاهدة التجارية وإلغاء «نظام الاستثناء»، بيد أن هذه الصفقة جاءت بمنزلة محك فريد من نوعه، وكانت تمثل أهمية خاصة بالنسبة للاتحاد السوفيتي من حيث تخلي الحكومة السعودية عن موقفها الحذر والمتخوف للغاية تجاه وضع صيغة قانونية للعلاقات السياسية والتجارية القائمة. فقد أثبتت هذه الصفقة عمليا جدوى توسيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، وعززت من مواقف وزير المالية وفريقه الذي ما فتئ يحاول إقناع الملك بضرورة استغلال المعاملة الحميمة التي يبديها الاتحاد السوفيتي للمساعدة في التغلب على المشاكل التجارية والاقتصادية في الحجاز. ومنذ هذه اللحظة وفي كل مرة كان يطلب فيها السعوديون توريدات جديدة كان الجانب السوفيتي يحصل على فرصة أخرى ليتخذ موقفا أكثر تشددا ويصر على التوصل إلى تسويه للمشاكل التي تهمه.

وقد تم استغلال زيارة يوريف مفوض اللجنة الشعبية للتجارة الخارجية إلى الحجاز لتنظيم سلسلة من الاجتماعات مع وزير المالية. حيث تناولت هذه اللقاءات بالتفصيل كافة إمكانات العلاقات التجارية الممكنة في المستقبل، كما طُرح خلالها على الجانب السعودي مجددا ضرورة إبرام معاهدة سياسية و"مساواة تجارتنا" بتجارة الدول الأخرى. وقد كشفت المفاوضات مع الوزير اهتمامه بالتجارة مع الاتحاد السوفيتي، ذلك الاهتمام الذي نشأ بشكل أساس بعد صفقة النفط. وفي أكتوبر توجه عبد الله سليمان إلى الرياض للقاء الملك،

وكان لدى تيورياقولوف كافة المبررات للظن بأن "تقرير الوزير يركز على ضرورة تنشيط العلاقات مع الاتحاد السوفيتي وتلبية مطالبنا بشأن المعاهدة وتقنين وضع تجارتنا".

صحيح أن الملك آل سعود لاعتبارات تكتيكية في نظام السياسة الخارجية فضّل إبعاد وزير المالية عن الساحة مؤقتا وتكليف رجال أقل «بغضا» بالتفاوض مع الدائنين الأجانب، ولكن وضع ونفوذ عبد الله سليمان وفريقه في واقع الأمر لم يتغير. مما كان يسهّل من مهمة وضع صيغة قانونية للعلاقات بين الاتحاد السوفيتي والدولة السعودية، كما أن الوضع الفعلي في الحجاز المتمثل في وجود مشاكل مالية واقتصادية، واشتداد الضغط الإنجليزي، وسعي الملك آل سعود لإيجاد مخرج من الأزمة بالبحث عن موارد جديدة لا تحتوي على خطر استعباد رأس المال الأجنبي للبلاد، هذا الوضع كان ملائما لاستخدام «سلاح القروض السلعية» لتعزيز المواقف السياسية والاقتصادية للاتحاد السوفيتي ووضع القاعدة القانونية لها.

وكان تيورياقولوف يراهن في المفاوضات على وزير المالية عبد الله سليمان، ولذا كان يستغل كافة الفرص المتاحة للدفاع عن وجهة نظره وانتهاج فكرة تبادل المنفعة من العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفيتي والدولة السعودية بشكل عام وواردات المنتجات البترولية بشكل خاص. وقام تيورياقولوف بزيارة الوزير في منزله، وردا على شكوى الوزير من الوضع غير الطبيعي الذي تشهده السوق وغلاء المنتجات البترولية أشار المندوب السوفيتي إلى أن هذا الوضع الذي كان سائدا في السوق بالفعل كان نتيجة

«لنظام الاستثناء» الذي فرضته الحكومة السعودية على التجارة السوفيتية، وأنه لا يمكن التغلب عليه إلا بإلغاء هذا النظام سيئ السمعة.

كان تيورياقولوف يتمتع بالقدرة على الإقناع، ففي حديثه مع الوزير أشار بشكل مباشر إلى أن هذا الوضع سيزداد حدة طالما ظل «نظام الاستثناء» ساريا على التجارة السوفيتية، أضف إلى ذلك أن هذا النظام قد أثبت عدم جدواه لأن السلع السوفيتية كانت رغم هذا تتسلل إلى الحجاز، فالتاجر سيظل دائما يشتري ما يضمن له ربحا أكثر، ولكن تسلل البضائع السوفيتية عبر مصر أو الهند لم يكن في صالح الحجازيين أنفسهم في المقام الأول لأن فرق السعر في هذه الحالة كان حتما من نصيب الوسطاء. وقال تيورياقولوف في حديثه بدبلوماسية: على أي حال "الحكومة الحجازية أعلم بمصالحها، ولكن من واجبي أن أقول رأيي". وفي الوقت نفسه لم ينس تيورياقولوف أن يتطرق أيضا إلى إنجازات الاقتصاد السوفيتي والتجارة الخارجية في قطاع البترول، حيث أحاط عبد الله سليمان علما بتنفيذ الجزء الخاص باستخراج البترول السوفيتي في الخطة الخمسية، وفوز الجانب السوفيتي بمناقصات في باريس لتوريد المنتجات البترولية للمؤسسة البحرية الفرنسية.

ولم يكن غريبا أن يتساءل وزير المالية بعيد النظر عن أسعار المنتجات البترولية السوفيتية، مشيرا مع ذلك أن "هذا الموضوع يهمّه شخصيا، ويرجو ألا يُعد هذا التساؤل ملزما له بشيء"، وألمح أن الحكومة السعودية ترغب في شراء ما يقرب من عشرين ألف صندوق من البنزين. ولم يفوّت تيورياقولوف هذه الفرصة النادرة، ووعد من جانبه بتقديم معلومات عن هذا الموضوع،

وكتب إلى موسكو يقول: "وأفكر في أن أبلغه خلال بضعة أيام أن منتجاتنا البترولية تُعرض عادة بالأسعار العالمية، ولكن إذا حصلت المؤسسات التجارية السوفيتية على عرض جاد من قبل الحكومة الحجازية أو إذا سمح لها بالمشاركة في المناقصات بالشروط نفسها المسموح بها للآخرين فسيكون باستطاعة مؤسساتنا وقتها الإعلان عن الأسعار والشروط حسب الظروف القائمة. وهذا الرد سيتم نقله إليه على أنه رد الرفيق حكيموف الممثل العام لمؤسسة «بليجفوستفوستورغ» في منطقة البحر الأحمر".

وطبقا لافتراض تيورياقولوف الذي ضمنه برسالته إلى قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية كانت شدة اهتمام عبد الله سليمان بمسألة البترول ترجع على ما يبدو إلى سعيه للكسب من ورائه. فقد حاول تمديد فترة الشهور الأربعة التي كان مسموحا خلالها لمختلف المؤسسات بالمشاركة في مناقصات توريد البترول إلى الدولة السعودية، رغم أنه كان قد بات من الواضح أنه بانتهاء المناقصات هناك حلان، إما أن يظل احتكار المنتجات البترولية في يد الحكومة وإما أن ينقل إلى مؤسسة تجارية خاصة. وقد قام عبد الله سليمان بصياغة مشروع إعلان المناقصة بنفسه، ولم يتم وقتها الإفصاح عن الكميات المقرر شراؤها، رغم أنه -كما هو واضح من بعض العبارات التي أفلتت من الوزير- كان الحديث يدور عن احتياجات الحجاز السنوية بالكامل (من البنزين والكيروسين).

وفي حديثه مع الوزير كان تيورياقولوف يؤكد طوال الوقت أن مهمته في هذه المسألة تنحصر فقط في إبلاغ موسكو، وأنه لا يستطيع إعطاء أي

توصيات لمشاركة أو عدم مشاركة «جمعية البترول» السوفيتية في المناقصات، وعلى أي حال فإن حل مسألة مشاركة هذه «الجمعية» في المناقصات سيتطلب في أغلب الظن بعض الوقت، وسيتوقف على المزيد من المعلومات.

وقد وصلت هذه المعلومات إلى تيورياقولوف أثناء الغداء الذي أقامه وزير المالية في مكة وحضره إلى جانب تيورياقولوف كل من فؤاد حمزة وعبد الله سليمان وعبد الله فضل مستشار نائب الملك والشيخ عبد الرحمن تاجر اللؤلؤ المعروف وصديق الملك. وبعد الغداء وفي حضور جميع الشخصيات المذكورة توجه وزير المالية أخيرا إلى المندوب السوفيتي بعرض رسمي لتوريد المنتجات البترولية، وطرح موضوع الأجل والأسعار المجدية كشرط مبدئي لإبرام الصفقة، وكانت الكمية اللازمة للحكومة الحجازية من منتجات البترول تقدر بخمسين ألف صندوق من الكيروسين ومثلها من البنزين. وسمح هذا العرض المحدد، الذي طُرح على الملأ وفي حضور شخصيات رفيعة المستوى، لتيورياقولوف بإبلاغ موسكو بأن «جبل الجليد قد بدأ يتحرك» يقصد أن السعي نحو شراء المنتجات البترولية من الاتحاد السوفيتي يعني في الواقع اختراق الحصار المفروض على التجارة السوفيتية في المملكة نتيجة تطبيق «نظام الاستثناء».

وتجدر الإشارة أنه بالإضافة إلى الفائدة الاقتصادية البحتة أسفرت المفاوضات بشأن توريد المنتجات البترولية عن مكاسب أخرى للجانب السوفيتي. إذ كانت موسكو بفضل جهود تيورياقولوف الحثيثة على علم «بالألعاب السياسية» التي تدور حول الأسرة المالكة والتي كانت الدوافع

البترولية تؤدي دورا بارزا فيها. فخلال فترة المفاوضات بشأن البترول في مكة جاء إلى تيورياقولوف خالد كاركاني شريك المندوب الألماني دي هاس وأعرب عن رغبته في التعاون مع الاتحاد السوفيتي وسأل -كما أفاد تيورياقولوف- "عن رأينا في إمكانية إقامة علاقات عمل بيننا وبين شركته". مع أنه قد علم من فؤاد حمزة بالمفاوضات الدائرة بين السوفيت والسعوديين. ويبدو أن قيام هذا التفاوض قد دفعه إلى التفكير بأن مشاكل التجارة السوفيتية في الحجاز قد تُحل في القريب العاجل. بعبارة أخرى خشي أن «يتأخر» ويضيّع الفرصة "للحصول منا على توكيل لبضائعنا".

وقد أبدى تيورياقولوف في هذه الحالة تحفظا كان مطلوبا تماما. وفسّر موقفه هذا في خطابه إلى لجنة الشؤون الخارجية بأن علاقته بكاركاني لاتزال كما كانت من قبل، وكتب يقول: "لقد ذكّرته بأننا نحن الذين بادرنا أولا في العام الماضي بعرض التوكيل عليه، وهو الذي رفض بنفسه هذا العرض وقتها، ثم أعلنت له أنني مازلت اعتبر التعاون معه أمرا مرغوبا فيه بالنسبة لنا، وأنه بمجرد أن تُحَل مشاكل التجارة السوفيتية في الحجاز سأعتبر من واجبي أن أوجه انتباه أجهزة التجارة في بلدنا إليه. وأكدت في الوقت نفسه على أن خدماته التي يمكن أن يقدمها لنا الآن تمثل أهمية كبرى.

وكان ردي هذا انطلاقا من أن خالد كاركاني بحكم تواجده الدائم في حاشية الملك يمكنه إلقاء الضوء على قضايانا بشكل أو بآخر. إلا أن من الواضح أن خالدًا كان يعوّل على اكثر من ذلك". فقد ترك خطابا للمندوب السوفيتي يخبره فيه بأنه يود "إلى جانب تجارتنا أن يأخذ على عاتقه أيضا

توكيل مؤسسة «سوفتورغفلوت». فعلا كما يقال الشهية تُفتَح عند الطعام".
كان تيورياقولوف يعتقد عن حق أن هذه الخطوة سابقة لأوانها ولهذا ألمح في خطابه للجنة بأن "توكيل «سوفتورغفلوت» لا يمكن نقله بأي حال من الأحوال من الإيطالي لازاريني إلى المهاجر الطرابلسي كاركاني. ولكن إذا أخذنا في الاعتبار وضع كاركاني في القصر وجدنا أنه من العقل الاستفادة منه هو وشريكه دي هاس في مجال التجارة".

إلا أن لقاء كاركاني جاء مع ذلك بفائدة، فقد حكى لتيورياقولوف خلال هذا الحديث عن فيلبي، وكانت أي معلومات عن هذا الشخص المقرّب من الأسرة المالكة تعد مهمة للغاية. قال كاركاني "إن وضع فيلبي في القصر قد تزعزع بصورة كبيرة، فالملك يدرك جيدا ذلك الدور الذي توكله لندن إلى فيلبي والذي يحاول القيام به في الحجاز. فالملك يحب السلطة، بينما يحاول فيلبي التأثير على سياسة الملك مثيرا بذلك جنونه، ونتيجة لذلك يلاحظ في الفترة الأخيرة حرص الملك على الابتعاد عن فيلبي وإبعاد فيلبي عنه، علاوة على ذلك أثار ظهور فيلبي في دائرة الملك المخاوف لدى المقرّبين من إمكانية فقدانهم لمكانتهم، وهذا أيضا كان له دوره في تدهور مكانة فيلبي".

ومن تقرير تيورياقولوف في هذا الصدد ما يلي:

"إن فيلبي بدأ يتملكه الاضطراب مع ظهور خالد في القصر، وخالد نفسه يتعامل مع فيلبي بمرونة طوال الوقت، أما فيلبي فيتعامل مع خالد بريبة ويصفه بأنه موالٍ للألمان ولذا راح يقنعه بشدة بأن يقبل أي منصب حكومي، وكان فيلبي ينطلق في هذا - على حد اعتقاد خالد نفسه - من الرغبة في إحداث صدام بينه (أي خالد) وبين بقية القيادات في الحكومة، أو استغلال

أي خطأ وظيفي من جانبه أمام الملك لتحقيق غرضه". إن مثل هذه المعلومات كانت تمثل أهمية كبرى لصياغة الموقف السوفيتي في المفاوضات سواء مع الحكومة السعودية أو الدول الأوروبية.

ومع ذلك فإن كافة الجهود التي كان يبذلها تيورياقولوف والإنجازات التي تحققت بفضله في تطور التجارة بين البلدين كان من الممكن أن تضيع هباءً بسبب الإهمال المبتذل من قبل الموظفين، فقد أدى تأخر السفينة المحملة بالبنزين إلى ظهور مشكلة في الحجاز. وبعث المندوب المفوض برسالة عاصفة إلى موسكو جاء فيها: "لقد تسبب عدم توافر البنزين في توقف سيارات البريد عن الحركة، وأصبح البريد يُنقل على الحمير، كذلك توقفت عمليات النقل العسكري مما يثير قلقا بالغا لدى الحكومة الحجازية. وتناقص المعلومات الواردة من الأجهزة الاقتصادية في موسكو وضعنا من ناحية في موقف الكاذب أمام الحكومة الحجازية. ومن ناحية أخرى تسبب في توقف المفاوضات التي بدأناها في القضايا العامة لبعض الوقت. والتحسن الذي شهدته الأوضاع بعد إبرام صفقة البترول في الثاني من أغسطس بدأ يتلاشى، فإلى جانب عدم الالتزام بالجدول الزمني الذي ربما سنتمكن من التغلب عليه بدأ يتولد انطباع بعدم جدية موسكو".

بالفعل كان وزير المالية قد أثلج صدر تيورياقولوف قبيل هذا الحدث مباشرة بالتصريح بأن حكومته معنية بشراء البضائع السوفيتية والحصول على أجل أطول للقرض. وكان هذا يفتح أمام الاتحاد السوفيتي فرصا أوسع لتسوية القضايا المتعلقة بتوقيع معاهدة سياسية وتجارية مع المملكة وإلغاء «نظام الاستثناء» القائم على التجارة السوفيتية.

ولذا نجد تيورياقولوف يكتب إلى موسكو باستياء: "والآن توقفت المحادثات حول هذه الموضوعات والحجازيون لا يريدون الحديث عن أي شيء سوى البنزين. فهم دائمو التساؤل عن مكان تواجد الباخرة المحملة بالبنزين، وفي الآونة الأخيرة بدأنا نحن أنفسنا نتشكك جديا في البرقيات المتناقضة الواردة من موسكو، فخودوروف يبعث ببرقيات عديمة النفع ويسعى من ورائها إلى هدف واحد هو تأمين نفسه في حالة التحقيق في هذه القضية. وهذه البرقيات بدأت تثير غضب يوريف رغم هدوء أعصابه. ومن المحتمل أن يطلب الحجازيون تسهيلات في السداد تعويضا عن الخسائر التي تحملوها من جراء تأخر الباخرة، إذ طلب منا وزير المالية اليوم الإعلان بشكل قاطع عن مكان تواجد الباخرة وإمكانية عبورها لقناة السويس، وشرحت له أسباب تأخر الباخرة وشروط استئجارها... إلخ. وأعطيت الأسبوع الأول من أكتوبر كآخر موعد لوصولها. وقد هدأ هذا من ثورة الوزير على ما يبدو". ومع ذلك وفي التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٣١م. في اليوم نفسه الذي كان تيورياقولوف يكتب فيه خطابه لموسكو، كانت باخرة البنزين تقترب من اسطنبول لا أكثر.

إن عدم الالتزام بالجدول الزمني للتوريد كان يهدد بنسف المواقع التي تم اقتناصها بصعوبة بالغة في السوق السعودية. فحقيقة الأمر أن المؤتمر الوطني الذي أسسه الملك كان قد رفض في ذلك الوقت بالذات حصول الملك على قرض، ليس هذا فحسب وإنما طرح أيضا ضرورة وضع ميزانية وتخفيض النفقات، كما منع المؤتمر على الحكومة تقديم امتيازات «للكفار» داخل الأراضي الحجازية خشية تغلغل الأجانب، إلا أن هذا لم يخفف من

وطأة الضغط الواقع على السعوديين من قبل الأجانب المنافسين للمندوب السوفيتي (امثال جيلياتلي هانكي والبنك الهولندي وفيلبي وغيرهم)، فالبنك الهولندي قام بنقل رصيده الذهبي بالكامل إلى أمستردام حتى لا يرفض تقديم المساعدات بشكل مباشر، كذلك بدأت تظهر خلافات بسبب الحسابات بين فيلبي والحكومة السعودية، وبدأت الحكومة تتحرك بسرعة بحثا عن مخرج، فقررت دعم سوق النقد عن طريق فرض قروض حكومية على طبقة التجار، إلا أن هذا لم يساعد في حل القضية.

وارتأى تيورياقولوف أن هذه هي أنسب لحظة ليطرح على الملك عرضا ذا منفعة مشتركة، وكتب في هذا الشأن يقول: "طبقا لحساباتي فإن عرضنا بشأن التعاون التجاري كان لابد أن يسفر في الوقت الراهن عن نتائجه المعروفة، وأنا كنت أقول لهم: إن الحكومة الحجازية وأهالي الحجاز في حاجة إلى بضائع، والسوق الحجازية في حاجة لأن تسترد عافيتها وتطرد عناصر المضاربة منها، والسماح بالتجارة السوفيتية في ظل هذه الظروف من شأنه أن يأتي بفائدة كبيرة سواء للحكومة أو السوق، وبهذه الصورة تحديدا يمكن حل مسألة التعويض التي كانت تطرحها الحكومة الحجازية، فالسلع التي تحتاجها الحكومة يمكن تقديمها بشروط أكثر جدوى مما يمكن انتظاره من الدول الأخرى".

كان تيورياقولوف ينتظر بفارغ الصبر برقية من موسكو تتضمن على الأقل رد جمعية البترول بشأن الجوانب الرئيسة للمسائل التي طرحها وعلى راسها الضمانات، فقد كان يرى أنه من غير الممكن أن يقوم بطرح هذا

الموضوع من نفسه على الحجازيين دون تعليمات خاصة من موسكو مهما كان الشكل الذي سيطرحه به، إذ كتب يقول: "إن الموضوع في حد ذاته يشتمل على عدة جوانب تفرض نفسها على تفكيري، أولها أنه إذا لم ترغب الحكومة الحجازية في أن تتعدى حد هذه الصفقة (أو الصفقات) في تقنين علاقاتها معنا فإن من الواضح أنه سيتعين علينا طلب ضمان بنكي، أما إذا رغبت المملكة العربية السعودية في إبرام معاهدة تجارية مع الاتحاد السوفيتي نتيجة لهذه الصفقات أو لأسباب أخرى فإن هذه المعاهدة لا تُعد ضمانا كافيا في مثل هذه العمليات مع الحجاز".

ومن المحادثات مع الملك والمقرّبين منه خرج تيورياقولوف بانطباع أن المخاوف من إثارة تبرم الإنجليز مازالت تنعكس على كل خطوة تتخذها السعودية تجاه الاتحاد السوفيتي، وهو ما كان وراء الحذر في إجراء جميع المفاوضات والدقة في تنفيذ كافة الصفقات. وفي الوقت نفسه كان من المهم عدم السماح بظهور انطباع يوحي بأن الجانب السوفيتي كان يحاول «بث الخلاف» بين السعوديين وشركائهم لصالحه. "إن التعاون التجاري سيعود عليهم بالمكاسب المعروفة وسيعوّدهم علينا، وفي الوقت نفسه سيعدّ الساحة تدريجيا، خطوة تلو الأخرى، لحل قضايانا المشتركة، ولكن الأهم هو أنه بعد تحقيق نتائج إيجابية يتعين علينا الالتزام بالتعهدات التي قطعناها على أنفسنا حتى لانظهر في عيون شركائنا بمظهر أسوأ من منافسينا".

ومن المفهوم لماذا لم يكن تيورياقولوف يحتاج في عملية التفاوض في موضوع البترول إلى مجرد تعليمات مبدئية من قبل موسكو للاعتماد عليها

في اختيار النهج الذي يسلكه، فقد كان من الأهمية الكبرى بالنسبة له أن تدعمه موسكو في دفاعه عن ضرورة الالتزام بالجدول الزمني للتوريد. وكان هذا بالذات هو السبب وراء رد فعله الحاد على تأخر «باخرة» البنزين، فهذا في الواقع كان يتوقف عليه مدى تمكنه من تنفيذ الحد الأقصى من الخطة وهو التوصل إلى الإلغاء الكامل «لنظام الاستثناء» وتعزيز العلاقات السوفيتية السعودية عن طريق إبرام المعاهدات الثنائية بين البلدين.

كان تيورياقولوف يدرك أكثر فأكثر أن فشل صفقة المنتجات البترولية بإمكانه أن يعرقل مواصلة المفاوضات التجارية ويضطر السعوديين للعودة إلى شركائهم السابقين، رغم أن فؤاد حمزة بالمناسبة في ذلك التوقيت بالذات قد صرح لتيورياقولوف بصورة غير رسمية أن الرياض تنوي إبرام عدد من الصفقات لاستيراد الأخشاب والسكر والدقيق «والمانيفاتورة» والثقاب بقدر احتياجات البلاد وذلك مع الحكومة السوفيتية تحديدا. وكان الموقف يتطلب تحركات حاسمة، فمهما كان التقدم الذي تم إحرازه في هذا المسار كان لابد من مواصلة تنميته بفاعلية، وكتب تيورياقولوف إلى موسكو يقول: "في هذه الحالة فقط سيمكنني أن آمل في نجاح تنفيذ مهامي الأساسية والعامة".

لقد كان المندوب السوفيتي يسعى بإخلاص نحو تحقيق مهمته، ويعاني معاناة شديدة في حالات الإحباط أو الفشل، وهو ما يتضح من خطابه الذي وجهه في أكتوبر عام ١٩٣١م إلى كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية والذي يقول فيه: "... إن صفقة البنزين الأولى، التي كانت تعني نهاية نبذ التجارة السوفيتية، كان من المفترض أن تمثل نقطة الانطلاق لإدخال

البضائع السوفيتية إلى هذه السوق الجديدة علينا. وتوجيهات اللجنة الشعبية التي تأخذ في الحسبان عن حق انعكاس الوضع العالمي الجديد على الحجاز قد عكست بشكل صحيح توافر الظروف لتقنين علاقاتنا السياسية والتجارية مع حكومة ابن سعود، وزيارة رجال الاقتصاد من بلادنا رافقها انتعاش لم يسبق له مثيل في اتصالاتنا مع ممثلي الحكومة السعودية. وخلال سلسلة من المحادثات استطعنا أن نجس موقف كبير مستشاري الملك ووزير المالية عبدالله سليمان من مسألة «تطبيع» علاقاتنا، ووصلنا إلى اقتناع راسخ بأن المسألة في الواقع توشك أن تجد لها حلا ملائما.

لقد أثبتت صفقة البنزين للحكومة السعودية أنها التقت بشريك ينظر إلى علاقاته معها من منظور يختلف تماما عن منظور شركاءها القدامى، وكانت هذه الصفقة تمتلك كل المقومات لتصبح نقطة تحول في العلاقات السوفيتية السعودية، وأنا أقول «كانت» لأن مؤسساتنا فعلت كل ما هو ممكن وحتى ما هو غير ممكن في الظروف العادية كي تتحول هذه الصفقة من عامل إيجابي إلى عامل سلبي، فحتى منتصف أكتوبر لم تطرح الحكومة الحجازية أي تساؤلات عن مواعيد وصول البنزين، وكانت تعوّل كثيرا على بنزين بلادنا، ولذا قطعت علاقاتها بالشركة الإنجليزية التي كانت تمدّ الحجاز بالوقود حتى وقتنا هذا، وظلت الحكومة تستخدم المخزون المتوافر لديها والمحدود -في الحقيقة- للغاية لخدمة البريد وعمليات النقل المدني، مرجئة عمليات النقل العسكري الضخمة لحين وصول البنزين السوفيتي. إلا أن تمرد القبائل في عسير أدى إلى زيادة استهلاك البنزين في عمليات النقل مما نتج عنه انخفاض حاد في المخزون، وأصبحت البلاد تعاني من نقص شديد في الوقود.

ومع ذلك لم يصل البنزين السوفيتي، "ونحن مضطرون للرد على تساؤلات وزارة المالية بالأعذار، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقا. فخدمة البريد بدأت تتوقف، والطريق المؤدي إلى مكة عادت إليه الإبل والحمير، لتحل محل السيارات التي تقف دون وقود، وبدأت تنهال التساؤلات اليومية، الشفهية والكتابية، بشكل مباشر وعبر وسطاء، والجميع لديهم سؤال واحد: أين البنزين ومتى سيصل. إن عدم توافر البنزين يتسبب في فشل عمليات النقل العسكري الاستراتيجية باتجاه الأردن والتي تمثل في الوقت الراهن أهمية من الدرجة الأولى بالنسبة للحجاز على حد تلميح وزير المالية. وردودنا التي لا محالة تتناقض تبعا لتناقض المعلومات الواردة من موسكو بدأت تثير الشكوك لدى شركائنا في المحادثات، والمنافسون يستغلون الموقف فيروّجون الشائعات بأن باخرة البنزين لا تستطيع المرور في قناة السويس. وفي الوقت نفسه يصل العجز في الوقود إلى درجة لا تحتمل، حتى أن وزير المالية يسألني ما إذا كنت أضمن وصول البنزين وفي أي تاريخ سيصل البنزين في النهاية، وإذا كان السؤال الأول قد استطعت الرد عليه بشكل قاطع فإن السؤال الثاني أنا نفسي لم أقتنع بإجابتي عنه. إلى هذه الدرجة من الشناعة وعدم المسؤولية وصلت عملية تنفيذ الدفعة الأولى من البنزين، وإلى هذه الدرجة من عدم المسؤولية كانت المعلومات الواردة إلينا".

كان تيورياقولوف قد أشار لمؤسسة «فوستفوستورغ» من خلال لجنة الشؤون الخارجية إلى ضرورة التعجيل بتجهيز الدفعة الأولى من البنزين التي من المفترض تسليمها حسب العقد في سبتمبر، وأكد مرارا أن الجانب

السعودي في حاجة ماسّة إلى الوقود ويرجو توريد الدفعة الأولى إذا أمكن في أغسطس. "وتمر أيام، ويمر شهر، ونحن ليس لدينا أي معلومات عن تحميل الباخرة، وبناءً عليه قمت أنا ويوريف يوم السابع من سبتمبر بإرسال برقية إليكم وإلى إليافا وصفنا فيها الوضع، وفي العاشر من سبتمبر وصلتني برقية منكم، وفي اليوم التالي برقية من إليافا وآلفين تفيد بأن الباخرة قد تم استئجارها وستغادر ميناء باتومي في موعد أقصاه الثالث عشر منه. وعلى أساس هذه الإشعارات الرسمية حسبنا متى يمكن أن تصل الباخرة إلى أول ميناء في الحجاز، وأبلغنا الحكومة الحجازية بتصوراتنا في هذا الشأن، بعد ذلك وصلنا إشعار بأن الباخرة لن تغادر باتومي إلا بتاريخ السابع عشر. وقَبِلْنا هذا التاريخ دون اعتراض رغم أننا كنا نشعر أن هذا التأخير قد بدأ يثير قلق العرب، ثم توالت الإشعارات لتخبرنا بالمزيد من التأخير. وفي برقية بتاريخ ٢٨ سبتمبر أعطى الرفيق خودوروف «توجيهات» باتخاذ الإجراءات لتسوية «حالات سوء الفهم» الناتجة عن مخالفة العقد. ولكن أكثر ما يغيظ في هذا هو أنه لا يمكن تصديق أي برقية من هذه البرقيات التي تكلّف الكثير، وبالتالي لا يمكن استغلالها في تعاملنا مع رجال السلطة السعودية، وأعطيكم مثالا: في ٢٨ سبتمبر وصلتنا برقيتان إحداهما من مؤسسة «سويوز نفط» في موسكو والأخرى من «سويوز نفط» في اسطنبول، البرقية الأولى تقول إن الباخرة «كاترينا» ستصل إلى اسطنبول يوم ٢٩ وستبقى هناك مدة يومين للتفريغ، بينما تقول الثانية إن الباخرة ستصل إلى اسطنبول يوم ٢٩ وستواصل طريقها في اليوم نفسه. أي البرقيتين تأمرونا أن نصدق وبأيهما نسترشد؟".

ورغم تكرار البرقيات ووجود وقت كاف لتحريك «الجهاز الاقتصادي» لم تصل أي ردود إلا بعد مرور أربعة وثلاثين يوما عندما وصل إشعار بأن التعليمات قد أرسلت إلى اسطنبول باستئجار السفينة، وطبقا للإشعار الوارد من اسطنبول لم يكن من المقرر أن تقف السفينة للشحن في باتومي إلا في يوم ١٥ سبتمبر مما قد يعني عدم وصول البضاعة إلا في أكتوبر. "يمكنكم ببساطة أن تتصوروا أن في الحجاز -حيث لا يشوب حقوقنا شائبة- قد يمثل دفع الغرامة لمخالفة العقد انتكاسة معنوية كبيرة وتقويضا للثقة فينا في أول صفقة. علاوة على ذلك تجدر الإشارة إلى أن الحكومة الحجازية التي هي في أمسّ الحاجة الآن للبنزين (للبريد وعمليات النقل العسكري... إلخ) قد بدأت في الوقت الراهن في شراء كميات صغيرة منه لدى منافسينا من خلال أشخاص صوريين. وأنا أصبحت في موقف صعب لأن موسكو ظلت شهرا كاملا لا تردّ على استفساراتي بهذا الشأن، ولم أستطع إعطاء ولو ردّ تقريبي على الاستفسارات العديدة من جانب وزير المالية، وأعتقد أن مؤسساتنا الاقتصادية لن تنال من عدم انضباطها في العمل بهذا الشكل إلا التقليل من قدرها في الحجاز وضياع الفرصة لمواصلة تنمية علاقاتنا التجارية مع هذا البلد".

ومع ذلك كانت موسكو، في رأي تيورياقولوف، تدرك جيدا أهمية هذه الصفقة، فمن الواضح أنها كانت "الثغرة الأولى في الجدار القائم أمام تجارتنا وبدا لنا أنها ستضمن مواصلة تنمية التقدم الذي ضحينا من أجله". واستطرد تيورياقولوف قائلا: "ومما يزيد الوضع سوءًا هو أننا حتى الآن واثقون من

التزام مؤسساتنا الوطنية بتنفيذ العقد. وأظن أن اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية لابد أن تتخذ كافة ما لديها من إجراءات لتنفيذ العقد بدقة والتزام، لأننا نعقد عليه الأمل في تدعيم ثقة الحكومة السعودية تجاهنا".

إن هذا الخطاب المليء بالانفعالات والاستياء إنما يعكس صورة تيوريافولوف كرجل مكترث، واثق من صحة موقفه، يناضل بشجاعة من أجل سمعة بلاده، وليس هناك ما يدعو للشك في صدق الحقائق الواردة في رسائله، ولذلك فإن التقييم الذي يلجأ إليه تيوريافولوف رغم حدته لا يبعث على الغرابة، فقد كان يخشى أن تتحول «صفقة البنزين» في واقع الأمر إلى عائق أمام المفاوضات مع الحكومة السعودية بعد أن كانت المتكأ الوثير في هذه المفاوضات.

فوزير المالية عبد الله سليمان كان قد أعلن أنه لحين وصول البنزين لن يستطيع الحديث في الموضوعات المطروحة من قبل الجانب السوفيتي، وأن حكومة الملك اضطرت لأخذ البنزين من شركة إنجليزية لسد الاحتياجات في الوقت الراهن. وكتب تيوريافولوف: "إن التجربة المحزنة التي حدثت في أول دفعة من التوريد قد تدفع الحكومة فيما بعد أيضا إلى تأمين نفسها في حالة عدم الالتزام، وهذا ينسف إمكانية إبرام اتفاقية لاحتكار توريد منتجات البترول، فالموقف بالنسبة للمفاوضات العامة قد تدهور بسبب حالة عدم الرضا الناجمة عن مخالفة العقد، وحتى إن لم تطالب الحكومة بدفع غرامة على ذلك فإنها ستطالب بتعويض ربما في مدة السداد. باختصار ضاع تأثير الصفقة بالكامل. وأنا أرى ضرورة التحقيق في الملابسات التي أدت بالمسألة

إلى هذا الوضع ولو لضمان الالتزام بمواعيد الدفعتين الأخريين. وأطرح عليكم شكليا مسألة تسليم الملفات الخاصة بهذه القضية إلى اللجنة المركزية للرقابة والتفتيش للتحقيق وإلقاء المسؤولية على المتسببين في الخطأ".

لقد كان الحفاظ على السمعة التجارية من الأهمية الكبرى لأسباب اخرى ايضا، وهي أنه إلى جانب الحكومة السعودية أبدى بعض التجار اهتماما ملحوظا بالتعامل التجاري مع الاتحاد السوفيتي، حيث طلب بعض النجديين والحجازيين من البعثة اطلاعهم على شروط التجارة مع السوفيت والتسهيلات التي يمكن أن تقدمها الشركات السوفيتية، وأبدوا اهتماما كبيرا بالآلات الزراعية سوفيتية الصنع وإمكانات تقديم المعونة الفنية مدفوعة الأجر في حفر الأبار الجوفية واستخراج المياه العذبه. وتجدر الإشارة إلى أن موضوع المياه كان يمثل أهمية كبرى بالنسبة للملك آل سعود نتيجة ظهور قرى جديدة في نجد وتحوّل البدو الرحل إلى حياة الحضر.

وكتب تيورياقولوف في هذا الصدد: "لقد شرحنا لهم أهمية الصداقة مع الاتحاد السوفيتي وفائدة التجارة معنا، وفي ظل الظروف الحالية لا يمكن الحديث عن علاقات تجارية طبيعية حتى تغير الحكومة السعودية موقفها من التجارة مع الاتحاد السوفيتي وتهيّئ الظروف لذلك. وتحاول مجموعة من التجار النجديين الآن الحصول على فرص مشروعة للدخول في علاقات تجارية مع الاتحاد السوفيتي".

وأخيرا وصل البنزين الذي طال انتظاره فتبدل الحال داخل الحكومة السعودية بصورة كبيرة، فبعد وصول برقية تفيد بدخول الباخرة «كاترينا» إلى

قناة السويس، وكان ذلك قبل ساعات من سفر تيورياقولوف إلى موسكو. رأى وزير المالية ضرورة التعبير صراحة عن مشاعر الود فجاء لوداع المندوب السوفيتي "وهو أمر لم يحدث من قبل مطلقا"، وعشية وصول الباخرة إلى جدة صرح الوزير بحزم شديد أنه سيحصل من الملك على موافقة بقبول رغبات الجانب السوفيتي بهدف تنمية العلاقات التجارية بين الاتحاد السوفيتي والحجاز.

يبدو أن عبد الله سليمان قد اقتنع أخيرا أن السبيل الذي اختاره حين أبرم «صفقة النفط» مع جمعية البترول هو السبيل الأمثل، وأن تنمية العلاقات مع الاتحاد السوفيتي قادرة على أن تأتي بنفع كبير على المملكة العربية السعودية، حيث أكد استعداده لبذل كافة الجهود ليحصل من الملك على رد إيجابي على المقترحات السوفيتية بشأن إبرام الاتفاقيات اللازمة. وبما أن وزير المالية بصفته «أكبر موردي الخيرات المالية» كان يعد من أكثر الشخصيات نفوذا في حاشية الملك فقد كانت ثمّة كل المبررات للتوقع بأن سياسته بالذات هي التي من المفترض أن تلقى قبولا لدى آل سعود.

وفي تحليله للوضع الذي أحاط بالعلاقات بين الاتحاد السوفيتي والدولة السعودية خلال فترة الإعداد «لصفقة البنزين» وإبرامها وتنفيذها ارتأى تيورياقولوف ضرورة أن يؤكد مجددا أنه في هذه المرحلة "كان يتعين علينا اتخاذ موقف ثابت وواضح والعزم على التوصل إلى تسوية القضايا المشتركة التي تشغل اهتمامنا. فالوقت والظروف في صالحنا. وحكومة هذا البلد ستأتي إلينا بشكل أو بآخر، وستسعى نحو التعاون معنا، والتسرّع من جانبنا

سعيا وراء المنفعة من شأنه أن يهدر جهودنا الرامية إلى مساواتنا بالآخرين في الحقوق وإبرام المعاهدة السياسية والتجارية. فمفاوضاتنا العامة بشأن المعاهدات السياسية والتجارية والتي كانت تسير حتى الآن بخمول شديد من المفترض أن تشهد انتعاشا في ظل هذا الوضع الجديد".

إن «صفقة البنزين» التي أحدثت ثغرة في الحصار المفروض على التجارة السوفيتية توضّح إلى أي مدى كان تيورياقولوف منظما في مبادراته الرامية إلى تجاوز العقبات القائمة على طريق تنشيط العلاقات بين البلدين، أما من الناحية التاريخية فربما تعد هذه الواقعة ألمع وأبرز الوقائع في رحلة العمل الطويلة التي قضاها نذير تيورياقولوف في جدة، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن المملكة العربية السعودية تعد أكبر منتج للبترول في العالم، أما وقتها، في الثلاثينيات الغابرة من القرن العشرين، فقد قَبِل مؤسس المملكة وحاشيته بقدر من الامتنان يد المساعدة الممدودة من الاتحاد السوفيتي في قضية كانت على قدر كبير من الأهمية في تلك الآونة وهي توريد الوقود. كما أن «صفقة البنزين» التي تمت بناء على تصور تيورياقولوف وبإسهاماته النشيطة لها جانب مهم آخر، وهو أنها ساعدت بدرجة كبيرة على تحرير الملك آل سعود من الاعتماد أحادي الجانب على إنجلترا وغيرها من دول الغرب في الأمور المالية والاقتصادية.

الفصل السادس

صداقته مع الأسرة المالكة

ليكن سفيرك في القلب طيبا بالعقل والنزاهة مميزا وبالتواضع في العمل مزدانا حتى لا يخشى أحد منه تقربا ولا يجد هو -إذا اقترب- من الاحترام حرمانا وليهتم سفيرك بمصير الأصدقاء ليكون بذلك سعيدا وفرحانا.

يوسف هاس - حاجب البالاساغوني

لقد حاول نذير تيورياقولوف على مدار السنوات الثمانية التي قضاها في منصب المندوب المفوض النهوض بالعلاقات بين الاتحاد السوفيتي والمملكة العربية السعودية - كما يقال في أيامنا - إلى مستوى المشاركة الاستراتيجية، وكان بحكم معرفته بالشرق يدرك أن تعزيز مكانة الاتحاد السوفيتي في شبه الجزيرة العربية سوف يتوقف بشكل كبير على تمكنه أو عدم تمكنه من إقامة علاقات ودية وحميمة مع الأسرة المالكة ومع عبد العزيز آل سعود نفسه وولي عهده الأمير فيصل.

ولعل من الجدير أن نذكّر القارئ مرة أخرى بأن المملكة العربية السعودية هي موطن الإسلام، ذلك الدين الذي جاء به النبي محمد في القرن السابع الميلادي، وطبقا لأحكام الإسلام يُعد الملك هو الإمام (الزعيم الديني) في

الوقت نفسه، كما تُعد الأسرة المالكة التي يزيد عدد أفرادها اليوم على خمسة آلاف أمير هي القوة السياسية المسيطرة في الدولة السعودية، وفي أوائل القرن التاسع عشر تمكنت أسرة آل سعود التي كانت تتولى مقاليد الحكم في الرياض من توسيع الرقعة الخاضعة لسلطانها بضم جزء كبير من أراضي المملكة العربية السعودية الحاضرة، وخلال الحرب الأهلية والحرب مع الأتراك الذين ظل قطاع واسع من شبه الجزيرة العربية خاضعا لسلطانهم منذ القرن السادس عشر فقد السعوديون الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها، إلا انهم تمكنوا في بداية القرن الثامن عشر من استرداد ما فقدوه بعدما أصاب الضعف سلطة الأتراك.

وقدر لمحمد بن سعود أمير مدينة الدرعيّة الصغيرة الواقعة في نجد في وسط الجزيرة العربية أن يكون مؤسس المملكة العربية السعودية المعروفة اليوم بقوتها، وتلا ذلك قرن ونصف من الصراع من أجل إقامة الدولة الجديدة، ثم إن هذا الصراع لم يكن مع الكفار وإنما مع إخوانهم من المسلمين وعلى رأسهم الأتراك الذين أقلقهم ظهور من يتطلع إلى السيطرة على العالم العربي بأكمله وربما على العالم الإسلامي وذلك على مقربة منهم. وفي عام ١٨١٨م ألحق الجيش التركي الهزيمة بالسعوديين وتم نقل عبد الله حفيد محمد بن سعود إلى القسطنطينية حيث أطيح برقبته. وبدا الأمر وقتها وكأن الأسرة السعودية ينتظرها مستقبل مليء بالأسى، وقد كان، ففي مطلع القرن العشرين كانت الخزانة السعودية برمتها لا تملأ أكثر من خُرْج.

ولم تهدأ الحروب في شبه الجزيرة العربية طوال القرن التاسع عشر

بأكمله، حيث كانت تدور رحى الصراع على السلطة، وفي عام ١٩٠٠م دخل الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود بفرقة قوامها أربعون رجلا في مواجهة مع السلطان ابن رشيد سلطان نجد، وفي يناير من عام ١٩٠٢م ألحق ابن سعود هزيمة نكراء بحامية رشيد بقيادة محافظ الرياض عند أسوار قلعة بلدة الرياض، وتم إعلان ابن سعود حاكما جديدا لنجد، وعندما اعترف الوالي العثماني في العراق في عام ١٩٠٥م بابن سعود مواليا له في نجد قَبِل ابن سعود الولاء للإمبراطورية العثمانية دون تردد، مما ساعد على تحسين وضعه السياسي بشكل كبير.

وبعد مقتل ابن رشيد سلطان نجد السابق في العام نفسه انفرد ابن سعود بحكم نجد تماما، وتمكن في الفترة من عام ١٩٠٧م حتى ١٩١٢م من تعزيز سلطانه على نجد، وهذا يرجع في المقام الأول إلى مساندة زعماء القبائل الكبرى له مثل مطير وعتيبة، كما يرجع إلى تمكنه من السيطرة على البدو بتسكينهم في ثكنات شبه عسكرية. وبدأ ابن سعود يتحرك بالتعاون مع علماء نجد.

بيد أن ظهور مثل هذه التشكيلات العسكرية و«أدائها المهني» المكثف قد أدى بالبلاد حتما إلى موجة جديدة من النزاعات الداخلية دامت عشر سنوات، ولكنها أدت في النهاية إلى المزيد من تثبيت سلطة ابن سعود. وأخيرا تمكنت قوات ابن سعود من السيطرة على مكة كبرى مدن الحجاز في اكتوبر من عام ١٩٢٤م ثم على المدينة في ديسمبر عام ١٩٢٥م، وبعدها جاء الدور على جدة لتكتمل بذلك السيطرة على الحجاز. وفي الأول من أغسطس وفي المسجد الكبير أعلن ابن سعود، أمير نجد، نفسه ملكا للحجاز وسلطانا لنجد وملحقاتها.

وكان الاتحاد السوفيتي أول من اعترف بابن سعود وأقام معه علاقات دبلوماسية، مما ساعد كثيرا في تعزيز وضع دولة السعوديين عالميا. فيما وقّعت بريطانيا الحليف التقليدي للحجاز معاهدة الاعتراف بحكومة ال سعود (والتي تعرف بمعاهدة جلبرت كلايتون) بعد ذلك بفترة، وبالتحديد في مايو ١٩٢٧م. وفي عام ١٩٣٢م تغيّر اسم مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها لتصبح المملكة العربية السعودية برئاسة عبد العزيز آل سعود. وفي هذه الفترة تحديدا عمل نذير تيورياقولوف مندوبا مفوضا للاتحاد السوفيتي.

وردا على خطاب الجانب السوفيتي المؤرخ في الثاني من يوليو عام ١٩٢٨م، الذي يفيد نقل كريم حكيموف الوكيل الدبلوماسي والقنصل العام من المملكة العربية السعودية، ارتأى الملك ضرورة أن "يعرب عن سعادته بالمحاولات التي بذلها سعادة الوكيل لتعزيز العلاقات الطيبة والصداقة بين البلدين، حيث تركت هذه المحاولات انطباعا ممتازا". كما تضمنت الرسالة الملكية أيضا التعبير عن الارتياح لما تضمنه خطاب الحكومة السوفيتية المؤرخ في التاسع من يوليو عام ١٩٢٨م من رغبة الاتحاد السوفيتي في تعزيز علاقات الصداقة القائمة بين البلدين وتعيين "سعادة نذير تيورياقولوف وكيلا دبلوماسيا وقنصلا عاما لدينا".

ولم يكن الملك موجودا بالحجاز وقتها، ولكن في يوم الثالث من أكتوبر عام ١٩٢٨م استقبل الأمير فيصل، نجل الملك ونائبه في الحجاز، المندوب المفوض الجديد «استقبالا يليق به». ورغم التخلي عن بعض قواعد البروتوكول فإن التأكيدات التي تضمنتها رسالة الملك بأن المندوب السوفيتي "سيلقى منا ومن رجال حكومتنا كل رعاية وحسن معاملة رغبة في تحسين العلاقات الودية

القائمة بين البلدين". سمحت لتيورياقولوف بعمل علاقات في المستقبل مع الأسرة المالكة.

ولم يتوان تيورياقولوف في استغلال هذه الاتصالات، حيث أكد في كلمته عند تسليمه أوراق اعتماده قوله "إنني سأحذو حذو سلفي، وسأسعى بكل السبل نحو تنمية علاقات الصداقة التي سعدنا بنشأتها بين مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها والاتحاد السوفيتي. وفي أدائي للمهام التي أوكلتها إليّ حكومتي سأعتمد على التعاطف والدعم من قبل صاحب الجلالة الملكية. وأتمنى أن أحوز على نفس الثقة التي حاز عليها سلفي، واسمحوا لي أن أعرب عن ثقتي في أن الروابط والعلاقات ستتطور بما فيه صالح البلدين".

أما كلمة الأمير فيصل ردا على تيورياقولوف عند تسليمه أوراق اعتماده فقد صيغت في أروع الصيغ الدبلوماسية، فالعبارات البروتوكولية كان من الممكن أن يُسْتَشَفّ منها استعداد السعوديين للتعاون النشط مع الاتحاد السوفيتي بوساطة مندوبه الجديد، وقد تجلى هذا في التمنيات "بطيب الإقامة والنجاح في العمل"، بالمثل كما في التأكيدات بأن المندوب السوفيتي بإمكانه أن يتوقع تعاونا كاملا من قبل الحكومة.

وبعد مضي عام على عمل تيورياقولوف في المملكة العربية السعودية تم رفع درجته الدبلوماسية، حيث قررت اللجنة التنفيذية المركزية تعيينه «مبعوثا فوق العادة ووزيرا مفوضا لدى شخص صاحب الجلالة الملكية»، وفي السادس والعشرين من فبراير عام ١٩٣٠م سلم تيورياقولوف إلى الأمير فيصل في مكة أوراق الاعتماد الخاصة بتعيينه هذه المرة وزيرا مفوضا ومبعوثا فوق

العادة، وتبادل الجانبان إلقاء الكلمات مرة أخرى، حيث دلت نغمة الحديث وحرارته على ارتفاع مستوى الود والثقة المتبادلة بشكل ملحوظ خلال العام المنصرم.

ومن الواضح أن الهدف من تغيير الدرجة أو بالأحرى التعيين الجديد كان هو تعزيز وتقوية علاقات الصداقة بما فيه صالح البلدين، ففي كلمته ارتأى نذير تيورياقولوف ضرورة أن يشدد على أنه يقدر تلك العلاقات التي نشأت لديه شخصيا مع أعضاء الأسرة المالكة، حيث قال: "سأبذل كل ما في وسعي لتحقيق هذه المهمة معتمدا على مشاعر الود السامية وعلاقات التعاطف التي شرفت بها من جانب صاحب الجلالة الملكية ومن جانب سموكم، وأيضا من جانب رجال الدولة منذ وصولي إلى هذا البلد، وآمل أن أحظى بالود نفسه والتعاطف في منصبي الجديد. وأرجو من سموكم التكرم بإبلاغ صاحب الجلالة الملكية ودي واحترامي وأطيب أمنياتي لجلالته ولأعضاء الأسرة الملكية ولهذا البلد".

ولم تكن كلمة فيصل ردا على تيورياقولوف أقل ودا، حيث تضمنت قوله: "... إن علاقات الود الكريمة التي تكرمتم سيادتكم بالإشارة إليها والأمنيات الطيبة التي أعربتم من خلالها عن حرصكم على مواصلة علاقات الصداقة وأفضل العلاقات وتعزيزها إنما هي مشاعر مشتركة تجمع بيننا.

ولاشك لديّ أننا نبدأ اليوم عهدا جديدا في علاقات بلدينا وأن هذا يضع الأساس المتين للصداقة بيننا. وإني على ثقة من أن سيادتكم ستلقون كل تعاطف وعون من قبل صاحب الجلالة الملكية في أداء المهمة الموكلة إليكم، أما

من جانبي ومن جانب رجال الدولة فستجدون رغبة صادقة في مساعدتكم في كل ما من شأنه تعزيز علاقات الصداقة بين البلدين.

وبهذه المشاعر أتسلم أوراق اعتماد سيادتكم نيابة عن والدي الجليل صاحب الجلالة الملكية، وأرجو من سيادتكم التكرم بإبلاغ أسمى التحيات وأطيب الأمنيات إلى فخامة السيد رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بالاتحاد السوفيتي وإلى شعبه النبيل نيابة عن صاحب الجلالة الملكية وشعبه. وأتمنى لسيادتكم التوفيق في عملكم".

وبالطبع لم يصل تيورياقولوف إلى هذا الاعتراف بمنجزاته بسهوله، فرغم أن الدرجة الدبلوماسية الجديدة في حد ذاتها قد فتحت أمامه الأبواب إلى أعلى الدوائر في السلطة فإنها لم يكن بمقدورها أن تسمح له بالتبسط في التعامل مع الملك وأقرب ذويه بما فيهم ملك المستقبل الأمير فيصل، والمراسم وحدها لم تكن كافية لكسب ودهم الشخصي، لذلك كان الأمر يتطلب منه التحرك على مختلف الأصعدة، مثل إيجاد «مدخل إلى العرش» من خلال أعضاء الحكومة وتقديم الهدايا لهم أنفسهم وعلاج أفراد أسرهم في العيادة التابعة للبعثة، ناهيك عن ضرورة المداومة على التغلب على النفوذ البريطاني الذي تشكّل على مدار عقود طويلة.

وكان يوسف ياسين من مستشاري الملك ذوي النفوذ، وقد أجرى تيورياقولوف لقاء معه نسقه له فؤاد حمزة وزير الخارجية بالإنابة الذي نشأت بينه وبين تيورياقولوف منذ البداية علاقات طيبة وعلاقات عمل وتفاهم كامل عمليا. وبالمناسبة كان فؤاد حمزة هو الذي أشار على تيورياقولوف المبادرة

بزيارة شكلية مبدئية غير ملزمة بأي شيء "إلى الملك تعبيرا عن الود والتقدير". أما المحادثات الشاملة والمفصّلة مع الملك فتؤجل بعد لقاء يوسف ياسين.

كان هذا اللقاء مع مستشار الملك يمثل أهمية كبرى بالنسبة لمستقبل عمل تيورياقولوف بالكامل في المملكة العربية السعودية، ولذلك أبلغ لجنة الشؤون الخارجية بتفاصيلها بالكامل حيث يقول: "بعد المقدمات والشكليات التي لا مفر منها في أول تعارف، نقلت له تحيات حكيموف وأسفه على عدم تمكنه من زيارته شخصيا «بسبب ضيق الوقت». بعدها أعلنت أنني تمشيا مع التقليد الذي كان قائما بينه وبين حكيموف سأتحدث معه عن قضايانا، وانني أعوّل في ذلك على إخلاصه الذي عهدناه منه تجاه الاتحاد السوفيتي، وحديثي في كل مرة سيكون صريحا ودون رسميات، فليس هناك طريقة أخرى لمعالجة قضايانا. وقد رد على ذلك باستعداده للتعامل بهذه الطريقة.

وعندئذ بدأت من تاريخ العلاقات السوفيتية الحجازية، ولخصت مبادئ سياستنا الخارجية خاصة تجاه ابن سعود، وأشرت إلى تعاطف الحكومة والرأي العام في الاتحاد السوفيتي مع كفاح ابن سعود من أجل حرية وحضارة بلاده، ثم ذكرت أن المرحلة الأولى من العلاقات السوفيتية الحجازية ولّدت لدينا الكثير من الآمال. بعد ذلك لخصت له تدهور معاملة الحكومة الحجازية لنا ولمؤسساتنا التجارية شيئا فشيئا، مدللا على ذلك بالأمثلة (من قبيل المقاطعة التي شارك فيها رجال الهيئات المختلفة، وإلقاء القبض على أعضاء مؤسسة «روسوترك» وترحيلهم... إلخ)، ثم انتقلت للحديث عن الفترة الأخيرة

فذكرت أن تجارتنا قد وُضع لها نظام استثنائي لا تطبقه الحجاز على أي دولة أجنبية أخرى، وقلت بالنص: "نحن، مثلنا مثل غيرنا، ننظر إلى هذا النظام على أنه حظر فعلي على تجارتنا رغم حرية التجارة في البلاد. وفي النهاية هذا النظام لا يتوافق سواء مع مصالح الاتحاد السوفيتي أو الحجاز وذلك بالنسبة للاستقلال الاقتصادي في الحجاز، ونحن نرى أنه لا يخدم مواصلة تنمية العلاقات بيننا، وموسكو في حيرة، ونحن نتساءل: وماذا بعد؟ فبدلا من فرض هذا النظام كان بإمكان الحكومة الحجازية أن تخبرنا أولا بالاعتبارات التي تدعو لهذا، وأن تحاول تسوية هذه القضايا عن طريق التفاوض وتبادل الآراء". بعد ذلك انتقلت إلى تصريح فؤاد حمزة حول استعداد الملك للتفاوض وموقفنا من هذا التصريح، وختمت كلامي بالحديث عن موضوع المقابل.

أما يوسف ياسين فقد بدأ حديثه بأن الملك كان دائما ولا يزال يقدّر حق التقدير صداقته مع الاتحاد السوفيتي والسياسة الحكيمة التي تنتهجها الحكومة السوفيتية، وأن مما بعث على الارتياح الكبير لدى الملك هو عدم تمسك الحكومة السوفيتية بحقوقها في اللحظات العصيبة التي مر بها، وقيامها بإرسال البضائع المخصصة للحجاز إلى اليمن. كذلك أشاد الملك بإخلاص السوفيت في صداقتهم، وصرح ياسين بالقول: "نحن ندرك أيضا تمام الإدراك طابع مناهضة الإمبريالية الذي يميز السياسية السوفيتية، فنحن على مدى سنين طويلة لمسنا ولا نزال نلمس روح الصداقة التي تتعامل بها الحكومة السوفيتية مع دول الشرق. وبحكم علمي بسياسة عاهلنا يمكن أن أؤكد لسيادتكم أن كافة الظواهر السلبية القائمة هي ظواهر مؤقتة، وسيتم

قريبا تسوية كافة قضايا العلاقات الثنائية بيننا بما يرضي الطرفين. ومع ذلك يجب أن أطلع سيادتكم على الوضع القائم لدينا، كل ما في الأمر أننا ليس لدينا حدود مشتركة مع الاتحاد السوفيتي، وتفصلنا عنه مسافة كبيرة، ونحن هنا محاطون من جميع الجهات بأملاك إنجلترا وقواتها، وهذه الظروف وهذا البلد يفرض على الملك الاضطلاع بمهام ثقيلة للغاية، فالملك يأخذ في الاعتبار كل هذه الظروف ويتخذ بعض الخطوات التي تمليها عليه سلامة هذا البلد. وأنا متفق مع سيادتكم في تفسيركم لمسألة المقابل. وفي الختام أؤكد لسيادتكم مجددا إخلاص الملك وتقديره الكبير للسياسة السوفيتية وأعلن بشكل قاطع أن القضايا التي تهمكم ستجد حلا في القريب".

وبما أن ياسين كان مرشحا في ذلك الوقت لشغل منصب وزير خارجية المملكة فقد أبدى بطبيعة الحال اهتمامه بالوضع الدولي للاتحاد السوفيتي، وخاصة العلاقات السوفيتية الفرنسية والسوفيتية الألمانية، فقدم له تيورياقولوف الإيضاحات اللازمة في هذا الشأن مركزا من جديد على استعداد الاتحاد السوفيتي لتقديم العون للملك إذا دعته الضرورة لذلك، بأن يقوم مثلا بدور الوساطة.

وفي ذلك الوقت كان التوتر على أوجه في العلاقات بين المملكة العربية السعودية واليمن بسبب النزاعات الحدودية، وقد تطرق يوسف ياسين إلى هذا الموضوع بشكل عام، وتعليقا على ذلك أشار تيورياقولوف من جانبه بالقول: "بحكم علمي بالسياسة العامة للجنة الشؤون الخارجية صرحت بأننا لا يمكننا الترحيب بالتقارب بين الحجاز واليمن إلا إذا رأينا في ذلك ضمانا

لنجاح الملك ابن سعود والإمام يحيى، وأنه إذا احتاج الملك مستقبلا إلى خدماتنا فإن حكيموف الذي يعرفه الملك جيدا وأنا سيسعدنا تقديم خدماتنا له على صعيد التقارب الحجازي اليمني. وقد أعرب ياسين عن شكره قائلا إنه سينقل إلى الملك تصريحي هذا الذي ينم عن التوجهات الإيجابية في سياستنا".

ومما كان له أهمية كبرى في تدعيم علاقات تيورياقولوف بالأسرة المالكة هو أنه كان يلتزم بتعاليم الدين الإسلامي الحق، مما فتح أمامه الباب على مصراعيه لزيارة مكة، فبالفعل في الوقت الذي كانت البعثات الدبلوماسية تتخذ من جدة مقرا لها كان القصر الملكي يتواجد في الغالب في الرياض ومكة، مما كان يجعل الاتصال المباشر مع الملك ودائرته أمرا غاية في الصعوبة بالنسبة لغالبية الدبلوماسيين الغربيين، حتى أن بعضهم كان يضطر لانتظار الزيارات القليلة التي كان يقوم بها الملك إلى جدة، بينما كان بعضهم الآخر -من أمثال فيلبي الذي سبق ذكره- يعتنقون الإسلام، وهذا الأمر لم يكن ليمر على تيورياقولوف دون أن يثير فضوله، فكتب يقول: "بعد أن اعتنق فيلبي الإسلام غادر إلى مكة، وبعد أن أدى المناسك في الحرم واصل طريقه إلى الطائف، واستقبله أصدقاؤه بحفاوة... والآن يجلس في مكة بشكل دائم، في دائرة الملك، وهناك شائعات تقول إنه يحاول الحصول من الملك... على امتياز لبناء محطة كهرباء، وأن لندن تعد على حد زعمه قرضا للملك يقدر بثمانمائة ألف جنيه". فعلا كان الأمر يتطلب كفاحا جادا ودؤوبا من أجل كسب ود الملك.

ومع ذلك كان الملك يدرك جيدا ذلك الدور الذي أوكلته لندن إلى فيلبي، والذي حاول فيلبي نفسه جاهدا القيام به في الحجاز. وقد قال أحد المقرّبين من ابن سعود إن "الملك يحب السلطة، بينما يحاول فيلبي التأثير على سياسة الملك مثيرا بذلك جنونه، ونتيجة لذلك يلاحظ في الفترة الأخيرة حرص الملك على الابتعاد عن فيلبي وإبعاد فيلبي عنه، علاوة على ذلك أثار ظهور فيلبي في دائرة الملك المخاوف لدى المقرّبين من إمكانية فقدانهم لمكانتهم، وهذا أيضا كان له دوره في تدهور مكانة فيلبي". وقد أدى ضعف نفوذ المبعوث الإنجليزي، وكذلك شَغْل تيورياقولوف - في هذا التوقيت بالذات - منصب عميد الدبلوماسيين الشرفي إلى زيادة تقرّب المندوب السوفيتي من الأسرة المالكة.

وقد حاول تيورياقولوف استغلال كل الفرص الممكنة للالتقاء بالملك والأمير فيصل، ولذلك ليس من قبيل المصادفة أن نقرأ في يومياته ما يأتي:

"في مكة زرت الأمير فيصل لأبحث معه النظام المفروض على التجارة السوفيتية في الحجاز، واستندت في ذلك إلى تصريح فؤاد حمزة... ورد الأمير بأن موقف الملك المبدئي وحكومته من هذه القضية هو في صالحنا، وأنه ليس ثمة على الإطلاق ما يعوق إلغاء هذا النظام، وفي الوقت نفسه أشار الأمير إلى ضرورة الحصول على أوامر نهائية من الملك بهذا الشأن، ووعد بإبلاغي فور الحصول على تعليمات الملك".

وهذه مقتطفات من يوميات عضو البعثة:

"جرى احتفال في وادي فاطمة، بين مكة وجدة، دُعِي إليه رؤساء القنصليات والبعثات الدبلوماسية. وألقى نذير تيورياقولوف كلمة ترحيب باللغة العربية نيابة عن أعضاء السلك الدبلوماسي، ثم تحدث بعده بوند باللغة الإنجليزية"... "غادر المندوب المفوض وسكرتير البعثة إلى مكة لتسليم أوراق الاعتماد، وعادا ليلا"... "تم إرسال مائة بطاقة معايدة (باسم المندوب المفوض وسكرتير البعثة) إلى الأصدقاء والمعارف في مكة وجدة بمناسبة حلول العيد عند المسلمين"... "وصل الملك إلى جدة وبعد الظهر قام باستقبال المندوبين الأجانب، وكان أول الزائرين المندوب السوفيتي يرافقه سكرتير البعثة والمترجم والدكتور موشكوفسكي"... "غادر المندوب المفوض إلى مكة"... إلخ.

ونلاحظ بالمناسبة أن تواجد الأطباء السوفيت في المملكة وعملهم المثمر، الذي كان لتيورياقولوف أيضا باع طويل فيه، قد أسهم بلا شك إسهاما إيجابيا في تدعيم علاقات تيورياقولوف الشخصية مع «الأعيان» وأعضاء الأسرة الملكة، فقد نجح الدكتور موشكوفسكي كعالم في البكتريولوجيا واختصاصي في الملاريا في إقامة علاقات عمل مع المسؤولين عن الصحة والأطباء في الحجاز الذين استفادوا منه كثيرا في إطار المساعدة على بدء العمل في مجال البكتريولوجيا في جدة، كما كان يعالج الأمير فيصل وعددا من المسؤولين السعوديين من الملاريا، كذلك نال الدكتور جوكوف خوفانسكي وطبيب الأسنان ميرزون شهرة كبيرة ومكانة لدى أرفع الشخصيات في المملكة العربية السعودية، وكان ميرزون طبيبا متمرسا يجمع بين مهارات طبيب الأسنان واختصاصي تركيب الأسنان الصناعية وفني أطقم الأسنان، وهذا

النوع من أطباء الأسنان كان عملة نادرة في المملكة. وكان الإقبال عليه كبيرا للغاية، لاسيما أنه كان يؤدي عمله - حسبما يقول تيورياقولوف - "بمثالية واجتهاد، وكان يعالج الأوروبيين والعرب على حد سواء، كما كان اختصاصي الأسنان المتمرس الوحيد في المملكة الذي يتقن الأساليب الحديثة في علاج وتركيب الأسنان. وقد تفوّق على الأطباء السوريين والمحليين في هدوء، حيث كان «المصابون» من جراء علاج السوريين والسعوديين دائما ما يلجؤون إلى ميرزون". ولكن الأهمّ من ذلك هو ظهور الطبيبات في البعثة السوفيتية فيما بعد، حيث أصبح بإمكان سيدات الأسرة المالكة أن يتلقين أيضا علاجهن.

أما تبادل الرسائل بين الملك والمندوب السوفيتي بعد عودته من إجازته فكان ينم عن ودّ ما بعده ودّ. فقد كتب تيورياقولوف إلى موسكو يقول: "أرسلت برقية إلى ابن سعود هذا مضمونها: إلى صاحب الجلالة الملكية. لقد وصلت إلى جدة ويسعدني الحضور قريبا لتقديم فروض التقدير والاحترام". وفي اليوم نفسه وبعد نحو ساعتين أو ثلاث من إرسال برقيتي وصلني ردّ الملك: "جدة. إلى سعادة المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي. نشكركم ونعرب عن سعادتنا بسلامة وصولكم. ونحن مستعدون لتحديد موعد للقائنا بعد وصول سيادتكم إلى مكة. عبد العزيز". وأبلغ تيورياقولوف موسكو بأن مثل هذا الرد يعني دعوته إلى مكة، "وسنرى بم سيأتي لنا كل هذا".

إلا أن كل ما سبق ذكره كان رغم أهميته مجرد خلفية وإعداد للمحادثات المباشرة مع الملك آل سعود التي كانت متعددة، وتناولت كافة جوانب العلاقات السوفيتية، وأصبحت صريحة وبناءة أكثر فأكثر. وقد أبلغ تيورياقولوف

موسكو في تقاريره بأدق تفاصيل هذه المحادثات بنغمة لا تخلو من الفخر بوصوله إلى هذا المستوى من التفاهم المتبادل مع رأس الدولة التي يعمل بها. وبطبيعة الحال لم يكن كل شيء سلسا في التفاوض بشأن قضايا التجارة وإلغاء «النظام الخاص»، إلا أن ودّ الحوار مع الملك السعودي قد سمح للمندوب السوفيتي أن يدافع عن وجهة نظر حكومته بشكل صريح.

وقد أشار تيورياقولوف في تقاريره إلى موسكو صراحة إلى أن لقاءاته وحواراته مع يوسف ياسين ثم مع فؤاد حمزة كان لابد منها قبل هذا اللقاء. ولولاها لما أقدم على المحادثات مع الملك. وكتب يقول: "استقبلني الملك بلطف شديد، وحضر اللقاء فؤاد حمزة والرفيق تويميتوف، وعرضت على الملك قضايانا بالطريقة نفسها التي عرضتها بها في محادثاتي مع يوسف ياسين، ولكن مع الفارق أنني في هذه المرة لطّفت من النغمة وركزت على الجوانب السياسية، وطرحت النقاط الثلاث نفسها وهي: التفاوض والوضع المؤقت والمقابل. ورد الملك بالقول إنه لم ينس أن الاتحاد السوفيتي كان أول من اعترف به وبدولته، وأنه كان دائما ولا يزال يقدر علاقاته مع الاتحاد السوفيتي وصداقته مع الحكومة السوفيتية حق التقدير، وأنه بالفعل قد أرجأ في يوم من الأيام موضوع التفاوض بشأن تسوية القضايا السوفيتية الحجازية لحين اللحظة المناسبة، والآن بإمكانه الإعلان أنه مستعد للمفاوضات مع الحكومة السوفيتية لبحث كافة القضايا وإبرام معاهدتين سياسية وتجارية.

ومادامت الحكومة السوفيتية مستعدة أيضا للبدء في المفاوضات إذن لم يبق أمامنا سوى أن نبدأ فيها. وأنا لا أستطيع إلغاء النظام المفروض إلى أن

يتم توقيع المعاهدة، لأن هذا من شأنه أن يلحق الضرر بمصالح بلادي. وأثناء المفاوضات سألخّص لكم اعتباراتي وسأشرح لكم موقفي، وسنناقشه معا . وقد حرصت على طرح هذه القضية أمامه، وأكدت مجددا أن موسكو في حيرة لأن تجارتنا لم تضر بهذا البلد في يوم من الأيام، وأن خصومنا هم الذين يشيرون إلى تجارتنا على أنها سبب الأزمة، إذ أننا في هذا العام لم نقم بعمليات تجارية ومع ذلك اشتدّت حدة الأزمة، فمن الواضح أن السبب في أزمة الاقتصاد الحجازي له جذور أبعد من ذلك. وقد أردت من الإشارة إلى هذا أن أتلمس الدوافع الرئيسة لدى الملك.

وبالفعل انتقل الملك إلى الصعيد السياسي، فصرح أن بلاده مرتبطة بالهند التي تقدم مجموعة من التسهيلات للتجار العرب، وأنا الآن مشغول بالدرجة الأولى بحل القضايا السياسية في العلاقات بين إنجلترا والمملكة، وأتفادى تعقيد هذه المسألة بالقضايا التجارية، رغم أن هذه القضايا تتطلب أيضا حلا عاجلا، فالسلع التي أطلبها لنفسي لا لأحد غيري من الكويت يُفرض عليها رسوم غير قانونية، وأنا أتغاضى عن هذا لأنني أرى أنه سيأتي اليوم الذي ستسوّى فيه هذه القضايا أيضا . وفي الختام ألمح الملك بشكل عابر إلى إمكانية حدوث أزمة في اليمن بسبب ظهورنا هناك واحتدام الصراع والتنافس بين القوى المختلفة.

وعند المغادرة قبض الملك على يدي التي مددتها لوداعه، وقال: "قريباً إن شاء الله سيصبح كل شيء على ما يرام" فشكرته. وقد استغرقت المحادثات ساعة كاملة" .

ولم تقتصر اللقاءات مع الملك على مكة بل كانت تجري أيضا في جدة،

حتى أن جدة قد شهدت في صيف عام ١٩٣١م عدة لقاءات من هذا النوع، وكان أحدها في السابع عشر من يونيو ١٩٣١م عندما علم تيورياقولوف بسفر آل سعود المزمع قريبا إلى الرياض فقرر أن يتحدث معه "عن القضايا التي تشغل اهتمامنا، وقد أعلن فؤاد حمزة أنه لا يريد الحضور أو المشاركة في حواري مع الملك رغبة منه في إعطائي حرية التحرك، ولكني انطلاقا من الاعتبارات المعروفة صممت على ضرورة حضوره. وقد حدث أن جلس فؤاد حمزة قليلا أثناء اللقاء ثم تركنا.

وطرحت أمام الملك قضايانا الرئيسة، وهي المعاهدة السياسية والتجارية وإلغاء الحظر المفروض على التجارة السوفيتية. وقد راوغ الملك في رده حيث صرح بأن العلاقات بين الاتحاد السوفيتي والحجاز حميمة للغاية لدرجة أنها لا تحتاج بتاتا إلى تسجيلها في معاهدة، وهو يدرك جيدا ويقدر صداقة الاتحاد السوفيتي، فهي صداقة عزيزة عليه للغاية لأنها لا تقوم على أي أطماع. وقال الملك إنني أعتقد أنه إذا جاءت أوقات عصيبة فإن الاتحاد السوفيتي سيكون هو درعي الواقي". "أما فيما يخص المعاهدة التجارية فإن وقتها لم يأت بعد". فالحجاز لم تبرم بعد أي معاهدة تجارية مع أي دولة ولذلك فهو يجد في هذه المسألة بعض الصعوبات، وعلى أي حال فإن كافة المسائل التي من شأنها أن تهم الجانبين ستجد بالتأكيد حلا مرضيا، ولكن لا بد من الانتظار بعض الوقت.

وأجبت بما معناه أننا لم نبدأ التفاوض في هذه القضايا مع حكومته إلا بعد موافقتها على ذلك، فقد كنا نعتبر دائما أن توقيت هذه المفاوضات لابد

أن يتوافق مع مصالح وخطط الحكومة الحجازية، وإذا كنا نطرح هذه القضايا فإن ما يدفعنا إلى ذلك هو صالح الجانبين، فتعزيز علاقات الصداقة بين البلدين وتدعيم المكانة الدولية للحجاز في عيون العدو قبل الحبيب قد يكون بُعدا لا يمكن تجاهله. وخلال المفاوضات طُرِحَت مسألة التعويضات، وأنا أرى أن هذه القضية من السهل حلها من خلال التقارب والتعاون الحميم، مثلها في ذلك مثل العديد من القضايا الأخرى التي تتضمنها العلاقات بين البلدين، وإذا كنت قد طرحت أمامه هذه القضايا فإن هذا كان انطلاقا من اقتناعي الراسخ بأن هذا التعاون سيأتي بنفع كبير على الحجاز، بما في ذلك تعزيز اقتصاد هذا البلد وسياسته، ولعل من الأفضل أنه لا داعي إطلاقا للحديث عن أهمية الصداقة معنا بالنسبة له، والتي تكمن في أنها لا تتضمن أهدافا سياسية قد تأتي بالضرر. وشكرني الملك وانتهى الحوار على ذلك".

إن بعض التحفظ الواضح في نهاية هذا الحوار والناتج عن صعوبة معالجة المشاكل القائمة أمام البلدين قد تم تعويضه جيدا، وذلك بعد مرور بضعة أيام لا أكثر، وبالتحديد في الثامن والعشرين من يونيو ١٩٣١م في مكة، حيث ذهب نذير تيوريافولوف في الرابعة صباحا لوداع الملك الذي كان عائدا إلى الرياض، وكتب تيوريافولوف واصفا هذا اللقاء: "كان مبنى «الحميدية»، مقر نائب الملك (في مواجهة الكعبة)، مليئا بممثلي الهيئات والبلديات، وبعد أن زار الملك الكعبة للمرة الأخيرة جاء إلى مودعيه، وقد أعارني اهتماما أكثر من المعتاد، وانتهزت أنا هذه الفرصة كي أتمنى له سفرا سعيدا وأعرب عن ثقتي بأن علاقاتنا معه ستتخذ طابعا أكثر ودا مما كانت عليه حتى هذه

اللحظة، ورد الملك بالشكر".

وقد اتضح أن الملك كان على علم بالمفاوضات السوفيتية السعودية بشأن توريد المنتجات البترولية، بل كان أيضا معنيا للغاية بنجاحها كما سبق أن ذكرنا، فخمسون ألف صندوق من البنزين ومثلها من الكيروسين، التي كان يدور عنها الحديث، كان من شأنها أن تكفي الدولة السعودية مدة عام عمليا، وكان هذا الوقود ضروريا للغاية لأنه في ذلك التوقيت بالذات كان يتعين على الملك إعادة نشر القوات للقضاء على حركات التمرد التي كانت تندلع تارة هنا وتارة هناك من جانب قبائل البدو. أما الحكومة فكان يتعين عليها ضمان نقل البريد، ناهيك عن الزيادة في استهلاك البنزين نتيجة لدخول الشرق الأوسط عصر السيارات، أضف إلى ذلك أن قيادة الدولة كانت تحصل على كمية لا حصر لها من السيارات بالنظام الآجل، في الوقت الذي كان الموظفون لا يحصلون على رواتبهم لشهور في ظل الأزمة المالية العالمية التي أدت إلى توقف تدفقات الخزانة.

وكان من المفترض أن تصبح قضايا الاستمرار في توريد المنتجات البترولية موضوعا للتفاوض أيضا خلال زيارة الأمير فيصل للاتحاد السوفيتي، تلك الزيارة التي يمكن اعتبارها من أكبر الإنجازات التي حققها تيورياقولوف خلال عمله في منصب المندوب المفوض، ولم يكن ذنبه أن القيادة السوفيتية لم تخرج بكل الفوائد الممكنة من هذه الزيارة، التي تعد عن حق زيارة تاريخية، فبعد عام من هذه الزيارة -حسب تقرير تيورياقولوف- أصدر مجلس الوزراء في المملكة بالاشتراك مع مجلس الدولة قرارا "بإعلان سمو

الأمير سعود النجل الأكبر لجلالة الملك وليا للعهد في المملكة العربية السعودية، وجرت مراسم البيعة في يوم الإثنين العشرين من محرم عام ١٣٥٢هـ (الموافق الخامس عشر من مايو عام ١٩٣٣م)، وقد غادر سمو الأمير فيصل على رأس وفد مكلف بإبلاغ صاحب الجلالة الأمير سعود بتنصيبه وليا للعهد. ويسرني أن أبلغكم بانتهاء عملية تنصيب الأمير سعود وليا للعهد على النحو الذي ذكرته". ومرت سنوات وأصبح فيصل نفسه وليا للعهد.

وفي واقع الأمر لم تكن موسكو تستقبل نجل العاهل السعودي، الشاب البالغ من العمر سبعة عشر عاما والمكلّف من قبل والده بإجراء المفاوضات بشأن الحصول على قرض سلعي ضخم، وإنما كانت هذه زيارة رسمية لملك المستقبل في دولة صديقة، وقد تعاملت موسكو مع هذا الحدث كما يجب، ولعل الدليل على ذلك هو برنامج الزيارة والمقابلات والمفاوضات التي أجراها الوفد، حيث تضمنت الزيارة لقاءات رسمية مكثفة إلى جانب برنامج ثقافي وترفيهي موسّع. وهذا نص برنامج الزيارة:

برنامج زيارة الأمير فيصل إلى الاتحاد السوفيتي

٢٩مايو: ٩.٤٥ صباحا استقبال الأمير بمحطة بيلاروسكو- بالتينسكي للسكة الحديد

١١.٣٠ صباحا مقابلة لدى الرفيق كالينين

١٢.٠٠ ظهرا زيارة للرفيق مولوتوف

١٢.٣٠-١.٣٠ ظهرا زيارات باللجنة

٢.٠٠ ظهرا إفطار يقيمه الرفيق كالينين

٥.٠٠ مساء الرد على زيارات الوفد

٧.٣٠ مساء غداء يقيمه الرفيق كريستينسكي

١٠.٠٠ مساء حفل استقبل تنظمه البعثات الدبلوماسية

٣٠ مايو: ١٢.٠٠ ظهرا جولة تفقدية بالكرملين

١.٣٠ ظهرا إفطار في سبيريدونوفكا

٢.٣٠ ظهرا زيارة لميدان سباق الخيل

٧.٣٠ مساء مسرح البولشوي (حضور عرض «دون كيشوت»)

٣١ مايو: ١٠.٠٠ صباحا زيارة إلى معهد الهيدروديناميكا الجوية

١١.١٥صباحا زيارة للمطار

١.٣٠ ظهرا إفطار في الدار المركزية للجيش الأحمر

٥.٠٠ مساء مجلس مدينة موسكو. حفل شاي

٧.٣٠ مساء مسرح البولشوي (حضور عرض «كارمن»)

١ يونيو: ١٠.٠٠ صباحا لجنة الطاقة السوفيتية

١١.٣٠ صباحا زيارة مصنع ستالين لصناعة السيارات

٢.٠٠ ظهرا أكاديمية تيميريازيف (إفطار وجولة بالأكاديمية) ومعهد دراسات الثروة الحيوانية ومعمل الوبر

٥.٠٠ مساء إستاد دينامو

٢ يونيو: ١٠.٠٠ صباحا زيارة إلى معسكر وبرنامج عمل

٣ يونيو: ١٢.٠٠منتصف الليل السفر إلى مدينة لينينغراد

٤ يونيو: ١١,٠٠ صباحا استقبال رسمي في لينينغراد

١٢,٠٠ ظهرا جولة بالمدينة

١,٠٠ ظهرا إفطار بالفندق

٢,٠٠ ظهرا زيارة إلى «سمولني»

٣,٣٠ ظهرا زيارة لمصنع «كراسنايا زاريا» وتقديم هدية للأمير.

٥,٠٠ مساء جولة بنهر «نيفا»

٦,٣٠ مساء غداء

٧,٣٠ مساء مسرح

٥ يونيو: ١٠,٠٠ صباحا معهد النباتات

١,٠٠ ظهرا إفطار بالفندق

٢,٠٠ ظهرا زيارة إلى «قرية الأطفال» وحفل شاي بالقرية

٨,٠٠ مساء مأدبة بالمدينة

١٢,٠٠منتصف الليل السفر إلى أوديسًا

٧ يونيو: السفر من أوديسًا إلى تركيا

وانطلاقا من رغبات الجانب السعودي بدأ تيوريافولوف بالتعاون مع الإدارة في موسكو اتخاذ كافة الاستعدادات لهذه الزيارة، محاولا توفير كافة سبل الراحة لإقامة الوفد رفيع المستوى في الاتحاد السوفيتي. وبعد وصول الأمير فيصل أصدر كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية تعليمات واضحة إلى مرموسيه تتضمن اقتراحات باتخاذ الإجراءات الآتية:

١- إرسال عربة قطار صالون إلى محطة نيغوريلوفو في الموعد الذي سيبلغكم به الرفيق فلورينسكي (ما بين يومي ٢٦ و ٣٠ مايو، ويرسل مع العربة نادل وطبّاخ، وتزود العربة بالمأكولات للعشاء والإفطار (لعدد خمسة من العرب وأربعة من المرافقين واحتياطيا لفريق الحراسة)، والتأكد من قَطْر هذه العربة بالقطار القادم من نيغوريلوفو إلى موسكو.

٢- تزيين محطة بيلاروسكو - بالتينسكي للسكك الحديدية بالأعلام الحجازية والسوفيتية، وكذلك لافتة «أهلا وسهلا» باللغة العربية.

٣- تجهيز الطابق الأخير بالكامل في سبيريدونوفكا ١٧ لإقامة الضيوف وتوفير الخدمة والمأكولات (لعدد خمسة أفراد)، وتوفير غرفة للرفيق حكيموف ومكان احتياطي لفريق الحراسة، ويجب أن تعتنوا جيدا بفريق الحراسة وسائقي السيارتين اللتين ستكونان في خدمة الوفد، ورفع العلم الحجازي فوق المبنى.

٤- فيما يخص الأطعمة: يجب عدم تقديم النبيذ والسجائر ولحم الخنزير واللحوم الحمراء، ويجب أن يتكون الطعام بشكل أساسي من الأرز ولحوم الدجاج والطيور البرية ومنتجات الألبان والخضراوات والفواكه، ولكن لابد مع ذلك من توفير احتياطي من النبيذ والكونياك والسجائر سواء في عربة القطار أو في سبيريدونوفكا، ولا تقدم إلا بناءً على طلب الضيوف.

٥- تنظيم غداء في اليوم الثاني بعد وصول الوفد لعدد ٢٥ - ٣٠ فرداً، ثم بعد ذلك حفل استقبال لعدد ٢٥٠ فرداً.

٦- طبع بطاقات دعوة باسم الرفيق كريستينسكي.

٧- تجهيز الهدايا التالية: حافلة، محطة اتصالات، فرو الثعلب الفضي، بذلة قوقازية، وتؤخذ التعليمات بهذا الشأن من إدارة الشرق الأولى. كما يجب تجهيز أربعة ألبومات تحتوي على صور زيارة الوفد.

٨ - توفير عربة قطار صالون يواصل فيها الوفد جولته بالاتحاد السوفيتي.

٩- تزويد المدن التي سيزورها الأمير بالأعلام (حسب تعليمات الرفيق فلورينسكي).

١٠- إعداد وسيلة نقل بحرية للسفر إلى اسطنبول أو بهلوي حسب تعليمات الرفيق فلورينسكي".

وخلال الإفطار الذي أقامه كالينين في التاسع والعشرين من مايو عام ١٩٣٢م ألقى الأمير فيصل خطابا رسميا أشار فيه ضمنا إلى أن عمل نذير تيورياقولوف في المملكة العربية السعودية قد آتى ثماره، وكانت كل كلمة في الخطاب يتخللها شكر للاتحاد السوفيتي! حيث قال فيصل:

"سيادة الرئيس!

أشكر خالص الشكر لسيادتكم كلمات الترحيب التي وجهتموها إليّ بمناسبة وصولي إلى هذا البلد، كما أشكركم سيادة الرئيس وأشكر رجال الدولة على الاستقبال الكريم الذي أوليتموه لي.

وإنه لمن دواعي سعادتي أن أزور الاتحاد السوفيتي الذي تربطه مع دولة مولاي صاحب الجلالة الملك أمتن أواصر الصداقة. ولا شك أن هذه الزيارة ستعمل على تعزيز أواصر الصداقة في المستقبل، أما العلاقة الشخصية فأتمنى أن تساعد كثيرا في حل القضايا التي تهم الجانبين بروح الود والإخلاص.

كما أرى من الضروروة أن أشكركم سيادة الرئيس أيضا على المشاعر الطيبة التي تكرمتم وأعربتم عنها تجاه صاحب الجلالة الملك وبلده وشعبه، كما أنني تلقيت بمزيد من السعادة تصريح سيادتكم بأنكم تتابعون باهتمام بالغ التقدم الاقتصادي والحضاري الذي تشهده بلادنا، وأرجو من سيادتكم أن تزيدوا في المستقبل من اهتمامكم هذا، وأن يعود هذا بالفائدة على الجانبين.

إن الاستقبال الرائع الذي لاقيته في بلدكم والمعاملة الحارة لي وللوفد المرافق قد تركت لديّ أطيب الانطباعات، وأنا واثق من أن ذكرى هذه الزيارة ستساعد على تعزيز علاقاتنا المتبادلة، كما ستظل من أطيب الذكريات.

مرة أخرى أشكركم على تعاملكم الصادق وأتمنى لكم -سيادة الرئيس- ولشعوب الاتحاد السوفيتي الازدهار والسعادة".

أما رسالة الملك ابن سعود نفسه التي وجهها إلى ميخائيل كالينين وسلّمها فيصل فكانت أسمى وأهم، وهذا نصها:

"إلى حضرة صاحب الفخامة رئيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الأفخم:

صديقنا الجليل:

بعد الإعراب عما يليق بفخامتكم من التحيات والسؤال عن صحتكم الغالية يسرّنا أن نحيط علم فخامتكم أننا نظرا لرغبتنا الصادقة في تقوية أواصر الصداقة القائمة لحسن الحظ بين بلدينا وتعبيرا عن عزمنا توطيد وتقوية هذه العلاقات الودية رأينا أن نوفد إلى فخامتكم بعثة دبلوماسية فوق العادة برئاسة نجلنا الأمير فيصل ليعرب بالنيابة عنّا لفخامتكم عن مشاعر الإخلاص والود الصادق من جانبنا. وإننا لنرجو فخامتكم أن تثقوا في كل ما يبلغكم به سموه نيابة عنّا، وأن تتقبلوه بكل ثقة لاسيما حينما يؤكد لكم عميق تقديرنا وعظيم اهتمامنا بدوام صحة ورفاهية فخامتكم وشعبكم النبيل.

وفي الختام نسأل لفخامتكم دوام الصحة والسعادة".

وبالطبع تضمنت كلمة ميخائيل كالينين التي رد بها على الأمير فيصل اعترافا ضمنيا بأفضال تيورياقولوف، حيث جاء فيها أن "العلاقات بين بلدينا ظلت تتسم على مدار سنوات بطابع الود والإخلاص الصادق، وزيارتكم للاتحاد السوفيتي تعد بلا شك واحدة من أطيب علامات الصداقة التي تربط بين بلدينا، وإنه لمن دواعي سروري الكبير أن أرحب بكم في عاصمة الاتحاد السوفيتي، إذ أنكم تمثلون بشخصكم حكومة شعب عربي استطاع بعد الحرب العالمية أن يحصل على استقلاله بل ويدعمه بفضل السياسة الشجاعة وبعيدة النظر التي ينتهجها قادته، ذلك الاستقلال الذي يعد مقدمة لا غنى عنها للتنمية الاقتصادية والحضارية في البلاد.

إن حكومة الاتحاد السوفيتي وشعوبه يتابعون باهتمام شديد التطور الناجح في سياسة الحكومة التي تمثلونها والموجهة إلى الحفاظ على استقلال الشعب العربي ورفاهيته الاقتصادية والحضارية. وإنني إذ أعرب عن ثقتي بأن الصداقة بين بلدينا تلبي تماما مصالح شعبينا ومنفعتهما المشتركة، وزيارتكم للاتحاد السوفيتي ستساعد -دون شك- على مواصلة توطيد هذه الصداقة".

وإلى جانب الأمير فيصل رئيس الوفد شارك في المفاوضات من الجانب السعودي أعضاء الوفد المرافق له وعلى رأسهم فؤاد حمزة، وفي مسرح البولشوي وأثناء عرض أوبرا «حلاق إشبيلية» دار حوار بينه وبين كاراخان، ربما كان أكثر الحوارات أهمية لمواصلة تطور العلاقات السوفيتية السعودية، فعلى حد قول كاراخان نفسه راح فؤاد حمزة يبرهن على أنه في حال تقديم القروض السوفيتية للحجاز "ستلقى بضائعنا رواجا بفضل سمعة الحكومة، فالحكومة نفسها هي التي ستعطي دفعة للبضائع السوفيتية، والحجازيون يودّون أن يشتروا منا القمح والسكر والكيروسين والبنزين والثقاب والسلاح".

ومن الواضح أن القضايا التي طرحها حمزة كانت سابقة لأوانها إلى حد ما من حيث معدلات التطور في العلاقات السوفيتية السعودية. فمشكلة القرض كان أولى أن تُطرح "بعد تطبيع العلاقات، حيث يصعب في الوقت الراهن إقناع الحكومة بضرورة التجاوب مع الحكومة الحجازية في ظل عدم مساواتنا مع الآخرين اقتصاديا وسياسيا، فأفكار فؤاد حمزة بها شئ من

الصواب، ولكن لكي تتحقق خططه لابد من تهيئة الظروف، حيث إننا ليس لدينا مصالح خاصة في الحجاز، ودعمنا للحكومة الحجازية إنما ينطلق من المبادئ العامة لتعاطفنا مع استقلال دول الشرق. ويسعدنا أن الحجاز دولة مستقلة. كما أن مصالحنا التجارية في الحجاز ليست أيضاً على درجة عظيمة، ومن الصعب أن نشرح للحكومة أن منح القروض نابع في هذه الحالة من ظروف علاقاتنا المتبادلة".

وقد صرح فؤاد حمزة أنه شخصيا "يعتقد أيضا أن توقيع معاهدة سياسية سيكون من المفيد، وأنه أرسل برقية إلى الملك بذلك، ولكن هذه مسألة وقت، ففي البداية لا بد من تنمية التجارة ثم بعد ذلك خلال عدة شهور سيكون من الممكن إبرام معاهدة سياسية أيضا. والحكومة الحجازية متذبذبة أمام هذا التحول الكبير في العلاقات والذي ربما يترك أثرا سلبيا ويتسبب في المشاكل للحجاز. ولذا يتعين على الرفيق كاراخان إقناع حكومته بضرورة مساعدة الحجاز على الفور، على أن يتعهد الحجاز بتسوية القضايا التي تهم الاتحاد السوفيتي خلال فترة محددة، وربما يبلغنا الملك بأنه موافق من حيث المبدأ على إبرام معاهدة سياسية، ولكن هذا احتمال ضعيف، مما قد يرجع على الأقل إلى أن الملك لم يتم إبلاغه إلا بتصريح إلياقا الذي أفاد بأنه لكي يتم الحصول على قروض لابد من توقيع معاهدة اقتصادية، ولكن إلياقا قال إن هذا مجرد رايه الشخصي وانه سيسأل الحكومة، ونحن في انتظار قرار الحكومة، ونريد أن نعرف إذا كان إبرام المعاهدة الاقتصادية يُعد شرطا ضروريا للحصول على قروض أم لا. وبما أن الملك ينتظر منا إبلاغه بقرار

الحكومة فإنه قد يتحفظ على عرض وجهة نظره بشأن إمكانية إبرام الاتفاقية. وحمزة يدرك أن ثمة صعوبات كبيرة، ولكن يجب على الرفيق كاراخان إقناع حكومته".

وكان رأي الحكومة السوفيتية، الذي جاء على لسان كاراخان، واضحا، وهو أن تقديم القروض كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالمعاهدة السياسية، و"اتفاقية القروض هي في واقع الأمر اتفاقية سياسية، فمن وجهة النظر التجارية يمكننا بيع سلعنا في الدول الأخرى، ولذا يجب علينا أن نشرح للحكومة الوضع كما هو موجود بالفعل، وأنا سأكون صريحا معكم تماما، فنحن بلد كبير ولدينا كثير من القضايا المهمة في مجال البناء الداخلي، ومن وجهة نظر السياسة الخارجية لا تبدي الحكومة اهتماما مباشرا إلا بالقضايا والدول التي تمثل بُعدا أمنيا، أما الجزيرة العربية فتقع بعيدا عنا ولا يوجد بها مصالح مباشرة، ولكن يوجد تعاطف وعلاقات حميمة. ورغم كل هذا ليس من السهل إقناع الحكومة بالانشغال بقضايا الحجاز، لأن ثمة قضية المعاهدة التي لم تجد تسوية بعد. فقد يقول أعضاء الحكومة : لنرجئ بحث هذا الموضوع إلى أن يتم حل مسألة المعاهدة".

واعرب فؤاد حمزة عن أمله في أن تجد قضية المعاهدة حلا مناسبا، لأن الملك راغب في توسيع العلاقات مع الاتحاد السوفيتي، إلا أن كاراخان أراد أن يتحدث مع الأمير فيصل بعيدا عن فؤاد حمزة بهدف الحصول على تصور كامل عن موقف الأسرة المالكة (لاسيما أن ما نقله تيورياقولوف عن موقف الملك قد اختلف إلى حد ما عن عرض حمزة لهذا الموقف في موسكو)، وخلال

زيارة الإستاد دعا كاراخان الأمير فيصل إلى مكتب الإدارة، بينما بقي فؤاد حمزة في القاعة، ولكنه لم يكن يرغب قط في أن يترك الأمير بمفرده، كما كان يرغب في الإلمام بما يجري، ولذا بعد حين من الوقت شرع يستقصي عن مكان الأمير حتى توصّل إليه فدخل إلى الحجرة التي كان يدور الحديث بداخلها.

وهنا ظهر من جديد التباين بين وجهة نظر تيورياقولوف الذي كان يدافع عن جدوى ومستقبل العلاقات التجارية والاقتصادية بين الاتحاد السوفيتي والمملكة، وموقف اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية الذي جاء في تلك اللحظة على لسان كاراخان، حيث أعلن كاراخان للأمير فيصل أن الحكومة السوفيتية ترى عدم إمكانية منح قروض لحين تطبيع العلاقات، مؤكدا مع ذلك أن العلاقات السوفيتية الحجازية تظل على حميميتها، وطلب كاراخان من الأمير فيصل ألا يرى في ذلك أي تغيّر في مشاعر الود، مشيرا إلى أن مثل هذا التفكير سيكون في غير محله. كذلك شدد كاراخان على أن الجانب السوفيتي لا يصر مطلقا على سرعة التطبيع، فقد يكون لكل حكومة مشاكلها "ونحن لا نريد أن يدفع التطبيع الحكومة الحجازية إلى اتخاذ إجراءات قد تضر بمصالحها، ومع ذلك لا يمكن التطرق إلى أي حديث في موضوع القروض إلا بعد التطبيع السياسي"، رغم أن كاراخان نفسه قد لاحظ بعد عدة دقائق لا أكثر أنه "قد يتولّد انطباع بأننا نطلب تعويضا مقابل موافقة الحجاز على إبرام معاهدة سياسية".

والمح الأمير فيصل منطلقا من موقف والده إلى أنه لا يمكن الإسراع في التطبيع وذلك لاعتبارات النظام السياسي، فهو يرى أن المساعدات

الاقتصادية من جانب الاتحاد السوفيتي من شأنها أن تعجّل بالتطبيع، ولكن الوفد غير مفوض لحل هذه القضية وسيقوم بإبلاغ الملك بكل شيء.

وردا على سؤال كاراخان بشأن المفاوضات مع الدول الأخرى أوضح فؤاد حمزة الذي ظهر في نهاية الحوار أن المفاوضات مع إيطاليا وفرنسا كانت تتناول القضايا السياسية والقضايا الاقتصادية في آن معا، وأن الملك سيكون من الصعب عليه تفهّم التحول في موقف الحكومة السوفيتية، فنذير تيورياقولوف قد أفاد - على حد زعمه - برغبة الحكومة السوفيتية في توقيع المعاهدتين السياسية والاقتصادية، والآن الحديث يدور عن المعاهدة السياسية فحسب، ورد كاراخان بأن المعاهدة التجارية شيء والقروض شيء آخر تماما.

وانتهي الحوار بطلب حمزة أن تغير الحكومة السوفيتية موقفها من مسألة القروض، ثم صرح حمزة بأنه أصبح في وضع غير لائق، لأن الجانب السوفيتي على حد زعمه قد «استفزه» للحديث عن القروض ثم غيّر موقفه. ويبدو أن فؤاد حمزة والأمير فيصل كانا كلاهما يخشيان «إثارة غضب» الملك، لأنهما كانا قد أبلغاه معلومات مليئة بالتفاؤل.

كان قرار الحكومة السوفيتية الذي تم إعلانه للسعوديين بالإستاد مفاجأة كبرى بالنسبة لهم، وتولّد لدى الوفد انطباع بأن الجانب السوفيتي يصر على الحصول على تعويض سياسي مقابل القروض، "وبالطبع ينبغي على الحكومة الحجازية أن توافق على تقديم هذا التعويض، ولكن لا يمكن القيام بهذا على الفور لاعتبارات في نظام السياسة الداخلية"، ولكن لو وافق الاتحاد السوفيتي

على التفاوض بشأن القرض لعجّل هذا بتوقيع المعاهدة السياسية، ولأعطى ورقة رابحة للغاية لأنصار تنشيط العلاقات بين البلدين، أما رفض الحكومة السوفيتية الحديث عن القرض فعلى العكس فقد يترك لدى الملك انطباعا غير طيب ويعطي الورقة الرابحة لأعداء تنشيط هذه العلاقات، ولهذا صرح الأمير فيصل بأنه باعتباره شخصيا من أشد المؤيدين لسرعة «التطبيع»، يأسف للغاية لهذه النهاية التي آلت إليها المفاوضات.

وكان تيورياقولوف قد أفاد قبيل زيارة الأمير إلى الاتحاد السوفيتي برغبة الملك في أن يلتقي فيصل بأحد رجال الدين الإسلامي، إلا أن موسكو لم تكترث كثيرا لهذه الرغبة، فهذا اللقاء قد تم الإعداد له احتياطيا، ولكنه لم يدرج بالبرنامج الرسمي للزيارة.

فقد قررت لجنة الشؤون الخارجية أنه في إطار مشاهدة معالم لينينغراد يمكن تمرير الأمير بجوار المسجد ليشاهده من نافذة السيارة، وأثناء المرور بجوار المسجد أشار المرافقون للأمير إلى المبنى معلّقين أنه يعد أجمل مسجد في الاتحاد السوفيتي، وعندما سأل الأمير عن تاريخ بناء المسجد والمهندسين الذين قاموا ببنائه والمعماري الذي وضع تصميمه رد المرافقون بأنهم ليسوا على علم بهذه التفاصيل، وإذا أراد الحصول على معلومات من هذا النوع فبإمكانه النزول من السيارة والدخول إلى المسجد ليحصل على معلومات مفصّلة، إلا أن الأمير لم يرغب في ذلك لأن مشاهدة المسجد لم تكن ضمن البرنامج الرسمي.

وهكذا قضت «البعثة الدبلوماسية فوق العادة» برئاسة الأمير فيصل نجل

الملك آل سعود في الاتحاد السوفيتي الفترة من ٢٩ مايو إلى ٧ يونيو عام ١٩٣٢م، حيث زار الوفد موسكو ولينينغراد، وفي السابع من يونيو غادر إلى تركيا. وخلال المفاوضات التي دارت في موسكو طرحت البعثة موضوع تقديم الحكومة السوفيتية قروضا سلعية للجانب السعودي بقيمة إجمالية مليون جنية إسترليني ولمدة عشر سنوات، وتم الرد على البعثة بما معناه أنه إلى أن يتم توقيع معاهدتي صداقة وتجارة ترى الحكومة السوفيتية من غير المناسب بحث هذا الموضوع. ومع ذلك تم الالتزام بما تتطلبه المراسم وأقر الجانبان بأن الزيارة كانت ناجحة للغاية... وقد بعث تيورياقولوف ببرقية من جدة إلى لجنة الشؤون الخارجية تتضمن أن "صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد يتقدم بالشكر إلى الحكومة السوفيتية على استقبالها الحميم للأمير فيصل".

وقد أسفرت الزيارة عن اعتزام «الجهات المتفاوضة العليا» "لإزالة كافة أشكال التمييز من العلاقات الاقتصادية بينها. وانطلاقا من هذا لن تتخذ هذه الجهات أي تدابير تشريعية أو إدارية من شأنها أن تضع بأي شكل من الأشكال بضائع الطرف الآخر أو شحناته أو مؤسساته التجارية أو تجارته بشكل عام في وضع أسوا بالمقارنة ببضائع كافة الدول الأخرى أو شحناتها أو مؤسساتها التجارية. كما تتعهد الجهات المتفاوضة بالمساعدة في تطبيق كافة التسهيلات لمواطني البلدين وفي كل ما يتعلق بالضرائب والرسوم الجمركية وذلك بما يتمشى واللوائح التشريعية المحلية، وتوافق الجهات المتفاوضة على البدء في أقرب وقت في التفاوض بشأن إبرام معاهدة تجارية بهدف تنمية وتوسيع العلاقات الاقتصادية بين البلدين".

كذلك أسفرت زيارة الأمير فيصل للاتحاد السوفيتي عن نتيجة أخرى وإنجاز جديد لنذير تيورياقولوف، وهو تركيب وتشغيل محطة اتصالات آلية في الطائف كان قد تم إهداؤها للأمير أثناء زيارته لمصنع «كراسنايا زاريا» للمعدات التليفونية في لينينغراد، وقد اتضح أنها أول محطة من نوعها في الدولة السعودية، ولم تكن لدى البلاد أي خبرة في تركيبها وصيانتها، حيث أبلغ عبد الله كاظم مدير البريد والهاتف والبرق المندوب السوفيتي أنه هو والكوادر المحلية لا يمكنهم تركيب المحطة، وطلب إرسال مهندس، ولو لم يتمكن تيورياقولوف من التوصل إلى إيفاد أحد مهندسي مصنع «كراسنايا زاريا» ويدعى شيتوف إلى المملكة في عام ١٩٢٤م لظلت هذه المعدات،غالية الثمن، مهملة سنوات طويلة في أقبية القصر تتآكل من الصدأ.

وفي الرابع من يونيو قامت الحكومة السعودية بمعالجة كافة المسائل التحضيرية، حيث تم اختيار مكان لتركيب المحطة وهو مدينة الطائف، وعُرض على المهندس شيتوف القيام بتركيبها شخصيا وكذلك تنظيم دورات تدريبية تستمر كل منها مدة شهر لإعداد الكوادر للعمل بالمحطة، حتى أن تيورياقولوف حصل على تصريح بزيارة الطائف ولكن كمواطن عادي، لأن دخول الأجانب ذوي المناصب الرسمية إلى الطائف كان ممنوعا. وكان الجانب السعودي والملك شخصيا يولون أهمية كبيرة لتركيب المحطة، والدليل على ذلك أنه كما قال تيورياقولوف "عند دخولنا إلى الطائف كان في استقبالنا عبد الله كاظم ومساعده عبد الله الفرّاش رئيس البرق بالقصر الملكي، وكانا قد أوفِدا خصيصا لهذا الفرض، كما تم توفير ثلاثة منازل نختار منها أيها

نشاء، وقد اقمنا نحن في أحدها وخصصنا آخر (في وسط المدينة) لإقامة الدورات التدريبية" .

وبدأت المحاضرات بالدورات في الحادي عشر من يونيو طبقا لبرنامج وضعه شيتوف، حيث كان يدرس المتدربون "مبادئ الهندسة الكهربائية ومحطات الاتصال اليدوية والمحطات الآلية، كما تضمن البرنامج محاضرات عملية. وقد تم تعيين عبد الله الفرّاش رئيسا للدورات، وكان نفسه من بين المتدربين. وقد وصل عدد المشاركين في الدورات إلى أحد عشر متدربا من موظفي البرق والهاتف، وتراوحت أعمارهم بين ١٨ و ٣٠ سنة وجمعيهم من عرب الحجاز. وإلى جانب المتدربين الأساسيين انضم فنيو تركيب الخطوط إلى التدريب العملي، كما حضر المحاضرات عبد الله كاظم مدير البريد والبرق. وكانت المحاضرات مكثفة وتجرى يوميا، ولكن الحكومة والمتدربين أنفسهم كانوا سعداء برفع كفاءة المشاركين بالدورات" . وقد اتضح أن جميع المتدربين بلا استثناء لم يكن لديهم تصور عن تركيب المحطة وطريقة عملها، حتى أن شيتوف كان مضطرا لضم المتدربين إليه أثناء التركيب مدرجا هذا ضمن تدريبهم العملي.

وقد قام شيتوف عمليا بتركيب المحطة بمفرده وفي مدة قصيرة، وذلك بواسطة المعدات الإضافية التي أحضرها معه من الاتحاد السوفيتي، حيث قام بالربط بين الملك والحكومة بخطوط الاتصال الآلي بما في ذلك القصر الصيفي في الطائف. وهاك ما كتبه شيتوف نفسه في تقريره عن مأموريته:

"... جرت أول مكالمة بالهاتف الآلي بين عاهل الدولة العربية السعودية

والرفيق نذير تيورياقولوف المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي، وكانت هذه المكالمة بداية لتشغيل المحطة".

وقد أبدى الملك منذ البداية اهتماما كبيرا بتركيب المحطة وكل ما يتعلق بهذه المسألة، حيث بعث إلى شيتوف بمدير البريد والبرق الذي كان يقدم تقريرا يوميا للملك حول سير العمل بدورات خبراء الهاتف وفنيي التركيبات من شباب المملكة. وقام شيتوف إلى جانب مهمته الأساسية بفحص السنترالات المحلية وإدخال التحسينات اللازمة عليها بناء على طلب عبد الله كاظم. ولعل هذه المبادرة من جانب تيورياقولوف كانت واحدة من أولى تجارب إسهام الاتحاد السوفيتي في تقديم المعونة الفنية وإعداد الخبراء الأجانب، وقد توجت التجربة بالنجاح، وهو ما يتضح من رد الفعل العارم من قبل الملك ونجله فيصل اللذين انهالا بالشكر على هذه الهدية القيمة وإعداد الكوادر السعودية لخدمة المحطة سواء في الخطابات الرسمية الموجهة إلى المندوب المفوض أو الرسالة الموجهة إلى ليتفينوف، وهاهو المندوب المفوض يأتي بالنفع مجددا على القصر الملكي.

وفور انتهاء أعمال التركيب استقبل الملك كلا من تيورياقولوف وشيتوف استقبالا مهيبا، وأهداهما "ساعات وملابس عربية" تقديرا لجهودهما. كذلك نال تيورياقولوف ثناءً واجبا من رؤسائه، حيث وجهت لجنة الشؤون الخارجية مذكرة إلى أورجونيكيدزه رئيس لجنة الصناعات الثقيلة أشارت فيها إلى أداء تيورياقولوف وشيتوف لمهمتهما بامتياز. كذلك جاء اسم تيورياقولوف في الرسالة الخاصة التي وجهها ليتفينوف إلى أورجونيكيدزه. أما تيورياقولوف

نفسه فقد رأى من الواجب أن يهنئ العاملين والعاملات بمصنع «كراسنايا زاريا» وكذلك أعضاء الإدارة بالمصنع على «نجاحهم». فهم في الحقيقة يمكنهم الفخر بجودة إنتاجهم لأن المحطة بمجرد ضبطها في مكانها بدأت العمل على أكمل وجه رغم ظروف التخزين غير الملائمة بالمرة التي ظلت فيها على مدار عامين منذ إهدائها إلى الأمير فيصل.

لاشك أن التواصل الحميم وغير الرسمي الذي كان يقوم به تيورياقولوف مع الأسرة المالكة يبين أنه قد نجح في أن يستغل لأقصى درجة قدراته كدبلوماسي بارع، يدرك جيدا عادات وتقاليد المسلمين بل وقواعد اللعبة السياسية في الشرق العربي برمته. فالاتصال المباشر مع الملك آل سعود كان يتيح الفرصة للحصول على المعلومات من مصادرها الأولى، كما كان يسمح أيضا بإيجاد حلول فاعلة للقضايا العاجلة المتعلقة بالعلاقات الثنائية بشكل مباشر، ودون وسطاء.

أضف إلى ذلك أن لقاءات تيورياقولوف المنتظمة - والتي يحسد عليها - مع الملك وورثة عرشه، إذا أخذنا في الاعتبار خاصية البلد التي كانت تحد من دائرة اتصال الملك بالأجانب، أعطت إشارة واضحة للمقرّبين منه ورجال الدولة بضرورة التعامل مع المندوب السوفيتي بلطف شديد، كما دعت إلى احترام البلد الذي يمثله والإعجاب به شخصيا كرجل استطاع أن ينال هذه المعاملة من حاكم ذي سطوة.

وقد كان المعاصرون لتيورياقولوف يقولون إن الدبلوماسيين الغربيين الذين كان محرما عليهم أن تطأ أقدامهم أرض مكة «المقدسة» كانوا أيضا ينظرون

بإعجاب جلي إلى قدرته ليس فقط على التحدث مع الملك وإنما أيضا إقامة علاقات ثقة معه.

ويمكن التأكيد بكل جدارة أن المكانة الخاصة ومشاعر التعاطف الشخصي من قبل الملك عبدالعزيز آل سعود وأفراد الأسرة المالكة قد أدت دوراً كبيراً في تمكن تيورياقولوف من إنجاز العديد من المبادرات الجليلة لتعزيز مواقع الاتحاد السوفيتي في شبه الجزيرة العربية على مدار السنوات الثماني المثمرة التي قضاها في منصب المندوب المفوض.

الفصل السابع

السنوات الأخيرة في الجزيرة العربية بين الكفاح وخيبة الأمل

ليس هناك حماقة لا يمكن إصلاحها بالحكمة أو بالصدفة، وليس هناك حكمة لا يمكن إفسادها بالحماقة أو بالصدفة.

غوته

إن جميع الأحداث التي تناولناها في الفصول السابقة («صفقة البنزين» وتطبيع نظام العلاقات التجارية وزيارة الأمير فيصل إلى الاتحاد السوفيتي وتركيب أول محطة اتصال آلية... إلخ) كان لتيورياقولوف الفضل الأول فيها، وكانت هذه الإنجازات تمثل بلا شك قمة مجده في عمله الدبلوماسي المثمر كمندوب مفوض لبلاده. أما على الصعيد الاقتصادي فقد بدأت تتجلّى نتائج ملموسة، حيث ظهرت آفاق واسعة للتعاون ذي المنفعة المتبادلة مما كان يبشر بمنافع كبيرة في المستقبل القريب. وبالطبع كان الموقف - على حد قول تيورياقولوف - «حساسا للغاية»، فلم يكن من الممكن تصديق جميع العروض التي يعرضها السعوديون، لاسيما أن الجانب الآخر كان لديه أيضا بعض الشكوك والمخاوف.

ولعل من الأفضل أنه لا داعي للقول بأن تيورياقولوف المنظّم في مبادرته كان يبذل كل ما في وسعه لتبديد هذه الشكوك تدريجيا، وإزالة العقبات من طريق العلاقات التجارية. فيكفي أن نقرأ مذكراته إلى موسكو في مطلع عام ١٩٢٣م لندرك إلى أي مدى ازداد إقدام رجال الأعمال السعوديين على التعامل التجاري مع الاتحاد السوفيتي خلال فترة عمل تيورياقولوف في جدة، حيث يقول: "يحاصرنا أفراد وجماعات، يقدمون عروضا للتعاون، بعضهم يريدون التعاون بالفعل، بينما يحاول بعضهم الآخر أن يستكشف ويستوضح إذا كان يتهددهم خطر الإغراق المزعوم، وقد أدت حالة الارتباك بين طبقة التجار إلى عقد عدد من المؤتمرات «ذات الطابع الخاص» حاول كبار المستوردين خلالها توحيد صفوفهم ضد «الخطر» الداّهم عليهم وتحديد الطرق والوسائل التي يمكن اتباعها لحماية مصالحهم في ظل الظروف المستجدة، وفي الوقت نفسه يحاول كل من هؤلاء أن يسبق الآخر ويظفر بتجارتنا في قبضته".

بطبيعة الحال كان غالبية التجار السعوديين لا يمانعون في الحصول على «توكيل عام بجميع البضائع السوفيتية»، ثم إن كثيرا منهم كانوا يفضلون احتكار هذا التوكيل مع تقديم ضمانات وامتيازات مادية وبنكية وغيرها للمؤسسات التجارية السوفيتية. ولكن حتى لو لم يقبل الجانب السوفيتي بهذه الشروط لوافق هؤلاء على الاكتفاء بمجموعة سلع دون غيرها (على سبيل المثال المنتجات البترولية، السكر، الدقيق، الأقمشة، الثقاب... إلخ)، كذلك كان هناك من لا يتطلعون إلى الحصول على هذه المنافع وإنما ينادون بحرية التعامل مع المؤسسات التجارية السوفيتية وكسر احتكار الحكومة، حيث يتعين

على المؤسسات التجارية -كما يرى هؤلاء- أن تعمل «بنظام الطلبيات» وبشروط تجارية محددة ومقبولة لدى الطرفين.

وقد حاول تيورياقولوف أن يلفت نظر موسكو إلى عروض بعينها وإلى مستوى ومكانة المعنيين بتنمية التجارة، فقد كتب يقول: "هذا العرض على سبيل المثال جاء من يوسف زين الذي يمثل المركز التجاري لمحافظ جدة السابق. بعض هؤلاء يأتون إلينا بأنفسهم، وبعضهم الآخر من خلال شخصيات صورية، وبعضهم الثالث يجمع بين الطريقتين، والكثير منهم يقف وراءهم مسؤولون كبار في الحكومة، وقد اتخذنا مؤقتا موقف التهدئة والحذر أمام هذا «الدرانغ ناخ سوفيتين» من قبل التجار، حيث نوضح لهم أنه لم يكن هناك ولا يزال أي إغراق، وأن التجارة السوفيتية تعود بالنفع الكبير على التجار والبلد، والمسائل التي تهمهم سيقوم بمعالجتها مندوبو الأجهزة التجارية ببلادنا وليس نحن، وأكدنا في الوقت نفسه أننا سنكون سعداء للغاية برضاء الحكومة السعودية والتجار عن نشاط المسؤولين عن التجارة لدينا".

إن هذه المثابرة من قبل المندوب السوفيتي لم تكن صدفة، فعلى حد قوله قد تلقى هو وغيره من أعضاء البعثة عروضا بالتعاون "من عدد من التجار والمؤسسات التجارية المحلية والأوروبية... حيث وضعت الحكومة في خمس أو ست نقاط في المدينة إعلانات بأن «التجارة السوفيتية مسموح بها»، وهذه الإعلانات هي السبب في الحالة الجديدة التي تشهدها السوق وحالات التقدم إلينا. ومن بين المتقدمين إلينا أشير إلى المركز التجاري للمحافظ المرحوم على رضا (يوسف زين) ومحمد ناصف وباناجا ولازاريني (وكيل

مؤسسة «سوفتورغفلوت») وحسين عويني (وهو تاجر سوري وصديق وشريك فؤاد حمزة)... إلخ، وغالبيتهم يسعى إلى الحصول على توكيل مؤسساتنا التجارية، والآن المسألة لا تكمن في عروض التعاون هذه وإنما في تحديد طريقة للعمل التجاري تكون مقنعة من جميع النواحي... وطرق العمل التجاري ينبغي أن يقوم بتحديدها أحد خبرائنا التجاريين (من موسكو أو اليمن!) مع ضرورة إشراكنا في هذا الموضوع، حيث يجب الاستفادة من تجربة الماضي! فأرجو أن تحلوا مسألة الخبير التجاري، على أن يمتلك هذا الخبير صلاحية حل هذه المسألة بالتعاون معنا، وألا يتم البدء في العمل الفعلي إلا بعد أن تنظروا في اعتباراتنا ومقترحاتنا. ومن الفائدة بمكان أن نجس رغبات ونوايا مكة، ونحن الآن بصدد البدء في هذا الأمر دون أن يلزمنا هذا بشيء، وأنا أرى أنه من الضروري أن تصلنا قراراتكم بأسرع ما يمكن لنسترشد بها. ولا ضير لو جاء معنا إلى هنا في مؤتمر صغير دوبسون (المندوب المفوض في اليمن - المؤلف) أو خبير من هذا النوع. إذن القرار متروك لكم".

وفي ظل عدم توافر تعليمات من الإدارة وعدم وجود مساعد مؤهل متخصص في العلاقات التجارية الخارجية كان تيورياقولوف يحاول بالطبع توخي الحذر لأقصى درجة في إعطاء الوعود، ولكنه في خطاباته إلى موسكو كان يوحي لرؤسائه بالسياسة الرشيدة التي يوصي باتباعها ويدعوهم إلى عدم التباطؤ. انظر ماذا يقول: "إذا كانت مؤسساتنا التجارية معنية بالسوق الحجازية فعليهم أن يسارعوا بحل القضايا التي طرحتُها، وهو أمر ضروري للأسباب الآتية: أولاً: «اطرق الحديد وهو ساخن»، إذ يجب علينا أن نستغل

الوضع الجديد لمواصلة دفع القضايا التي تشغل اهتمامنا. وثانيا: نحن الآن في موسم التجارة في السعودية (فترة الحج). وابتداءً من مايو سيبدأ الموسم في التراجع (حيث إنه تم تحديد الثاني من أبريل كآخر موعد لوصول بواخر الحجاج)، والملك سيأتي في منتصف مارس وسيشهد الوضع انتعاشاً".

والأمر واضح على ما يبدو. فقد مهدت جهود المندوب المفوض الطريق أمام السلع السوفيتية إلى السوق السعودية، أما علاقاته الحميمة بأفراد الأسرة المالكة وغيرهم من الشخصيات ذات النفوذ في المملكة فقد كان من شأنها أن تعدو ضمانا سياسيا ممتازا لهذه السلعة. ولكن حدث أنه في ذروة النجاح الذي تحقق في العلاقات السوفيتية السعودية بدأت موسكو تفقد اهتمامها على هذا الصعيد. ولعل من الصعب الوصول إلى جذور هذا التحرك لولا تذكر تلك التحولات السياسية والأيديولوجية التي شهدها الاتحاد السوفيتي في نهاية العشرينيات وبداية الثلاثينيات.

ففي هذه الفترة بالذات كان مذهب الاشتراكية القومية الذي ينتهجه ستالين قد تفوّق على مذهب الشيوعية الدولية في السباق بين التيارين المتنافسين في السياسة الخارجية. وكما أشار تروتسكي فيما بعد فإن ستالين أصبح رمزا «للتيار القومي المحافظ» الذي كان يتلخص في "أن ما يهمنا هو أمننا الخاص لتنمية اقتصادنا وليس الثورة الدولية".

وقد انتهى تشكل المذهب الستاليني في السياسة الخارجية بشكل عام وكلي بحلول عام ١٩٣٠م. ففي هذا الوقت كان ستالين قد ركّز سلطة الحزب والدولة كلية في يده. وكانت المرحلة الأخيرة من هذا النهج هي أن عزل

ستالين من المناصب القيادية من يسمّون برجال المعارضة «اليمينية» الممثلين في «القوميين انصار اقتصاد السوق»، وهم بُخارين وريكوف وتومسكي وأتباعهم، ففي نوفمبر عام ١٩٢٩م تم استبعاد بُخارين من عضوية المكتب السياسي، وقبلها ببضعة شهور كان قد أقيل من منصبه كرئيس لوفد حزب البلاشفة الشيوعي للاتحاد السوفيتي بمنظمة الكومينتيرن وعضو برئاسة اللجنة التنفيذية للكومينتيرن، وفي يونيو من عام ١٩٣٠م شغل ميخائيل ليتفينوف منصب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية.

وكان المجتمع الدولي قد دخل في عام ١٩٣٠م مرحلة جديدة من عدم الاستقرار الناجم عن الأزمة الاقتصادية العالمية، وقد حدث - مصادفة أو غير مصادفة - أن استقالة بُخارين جاءت بعد أسبوعين من هبوط أسعار الأسهم ببورصة نيويورك للأوراق المالية والذي وضع نقطة البداية لفترة الكساد الأكبر. وكانت الأزمة الاقتصادية العالمية أول بادرة من بوادر حرب عالمية جديدة تطل على الأبواب من أجل إعادة تقسيم العالم، وقد أحس ستالين بهذا وصرح في كلمته أمام المؤتمر السادس عشر للحزب في يونيو عام ١٩٣٠م بالقول: "إن الأزمة الاقتصادية العالمية ستتطور إلى أزمة سياسية في بعض الدول... وفي مجال السياسة الدولية سوف تحاول البرجوازية الدولية إيجاد مخرج في حرب إمبريالية جديدة... وهذا هو مصدر نزعة المغامرة بشن حملات على الاتحاد السوفيتي ونزعة التدخل، تلك النزعة التي ربما ستتطور بسبب الأزمة الاقتصادية".

وكان الوضع الجديد يتطلب إجراءات عاجلة لتعبئة الروح المعنوية لدى

كافة أبناء الشعب وتوحيده في جسد واحد قوي قادر على التحرك، وتبديل الكوادر وحده لم يكن كافيا، وإنما كان الأمر يتطلب أيدلوجية جديدة، فالتعويل على إمكانية الفوز بالسباق التكنولوجي مع الغرب والصمود في الحرب العالمية الداهمة اعتمادا على مبادئ مذهب الماركسية اللينينية الكلاسيكي كان يبدو أقل فأقل واقعية، والأيدلوجية القائمة على كفاح الطبقات وليس على كفاح القوميات كانت تثبت ضعفها يوما بعد يوم في ظل الظروف الدولية الجديدة.

وفي عام ١٩٣١م بدأت الدوائر العليا للسلطة الحزبية تتحدث صراحة عن ضرورة تغيير النهج الأيديولوجي، حيث نجد في يوميات ليتفينوف استنادا طريفا إلى حوار دار بهذا الصدد مع فوروشيلوف الذي أعلن أن الدولة يجب أن تعجّل بالتحول إلى انتهاج «سياسة الدولة العظمى»، وأيّده في هذا الرأي رودزوتاك الذي كان حاضرا أثناء الحوار. «وسياسة الدولة العظمى» الجديدة هذه كانت متغلغلة في مسام التصورات النظرية لستالين إذا تذكرنا اتهام لينين له «بالنعرة الروسية الكبرى». وعلى أي حال فستالين هو الذي أعطى إشارة البدء للمذهب الأيديولوجي الجديد.

وقد طال التحول الأيديولوجي الجديد فيما طال مجال السياسة الخارجية، وكانت نقطة التحول الفاصلة في هذا المجال هي الرسالة التي بعث بها ستالين إلى أعضاء المكتب السياسي بتاريخ ١٩ يوليو ١٩٣٤م والتي تضمنت تقييمه لمقالة إنجلز «حول السياسة الخارجية للقيصرية الروسية»، وكانت هذه المقالة، التي كُتبت من منطلق العداء لروسيا، توجه النقد إلى

مجمل السياسة السابقة في روسيا القيصرية، تلك السياسة التي كانت تدار من قبل الأجانب، وقد اعترض ستالين في رسالته على نشر مقالة إنجلز بمجلة «بولشيفيك» لأن بها في رأيه مجموعة من العيوب الجوهرية التي من شأنها أن «تثير اللبس» لدى القارئ.

وبالطبع أدى الوضع الدولي المعقد في الثلاثينيات إلى حدوث تحولات في نهج السياسة الخارجية، حيث أصبحت أوروبا تشغل مكانة متقدمة في سياسة موسكو الخارجية بحكم أنها كانت تمثل الساحة المنتظرة للأحداث العسكرية القادمة، فقد حاول ستالين أن ينفّذ على هذا الصعيد في أوروبا بالذات مخططه الاستراتيجي الذي طرحه قبل ما يزيد على عشر سنوات، حيث تحوّل الغرب إلى ميدان تجارب لمناوراته الدبلوماسية التي أسفرت عن قيام تحالفين متضادين قبيل الحرب، كما أن الأحداث الرئيسة التي كان الاتحاد السوفيتي ضلعا فيها كانت تجري في ذلك الوقت في أوروبا، وفي ظل هذا الوضع لم يكن تقلص الاهتمام السياسي بالشرق شيئا غير متوقع.

ولكن في المجال الاقتصادي ظل التوجه الشرقي يحتفظ بمستقبله الواعد، حيث كان لا يزال في الحكومة السوفيتية عدد غير قليل من الخبراء الذين وضعوا تقييما صحيحا للفرص الفعلية لدى الاتحاد السوفيتي في الغرب، وجدير بالذكر أن ستالين أيضا - على ما يبدو - لم يكن تتملكه الأوهام بشأن استعداد الغرب للتعاون المتكافئ والنزيه مع الاتحاد السوفيتي وللمنافسة الشريفة. فقد كان يظن عن حق أنه "من الصعب أن تكون لدينا فرصة في المستقبل للتعويل على انتزاع أسواق الغرب الخارجية من الرأسماليين الأكثر منا

خبرة. أما فيما يخص أسواق الشرق الذي لا يمكن اعتبار علاقاتنا به سيئة، ثم إن هذه العلاقات ستزداد تحسنا، فإن فرصنا هناك ستكون أكبر. فمما لا شك فيه أن المنسوجات ومنتجات الدفاع والآلات وغيرها ستكون هي المنتجات التي سنزود الشرق بها وسننافس بها الرأسماليين".

وكان اختيار المسار الاستراتيجي في تنمية العلاقات الاقتصادية الخارجية صائبا، فقد كانت الدول الآسيوية المجاورة للاتحاد السوفيتي تعد في ذلك الوقت هي الأسواق التي يجب توجيه الصادرات السوفيتية إليها، ولكن رغم ذلك لم يحدث تقدم كبير على هذا الصعيد. وكان هذا بالطبع يرجع فيما يرجع إلى أسباب موضوعية، منها أن نفوذ المستعمرين السابقين كان قويا، ناهيك عن أن هناك أنظمة استعمارية كانت لا تزال قائمة في هذه الدول، وكان هذا بالطبع يمثل عقبات أمام اختراق السلع السوفيتية للمناطق الآسيوية مترامية الأطراف ويثير امتعاض موسكو، وهي العقبات التي ظل نذير تيورياقولوف يعمل على تذليلها أثناء عمله في منصب المندوب المفوض، إلا أن هذا لم يكن يلقى دائما تفهما ودعما من قبل الإدارة في موسكو.

صحيح أن ثمة سببا آخر غير مباشر كان وراء تراجع التجارة الخارجية، بما في ذلك على المسار السعودي، وهو محاولات فرض حواجز تمييزية أمام السلع السوفيتية والتحركات التي كانت تتخذها موسكو ردا على هذا، فقد أصدرت فرنسا في الثالث من أكتوبر عام ١٩٣٠م قرارا «بشأن إجراءات الرقابة على واردات بعض السلع سوفيتية المنشأ أو المستوردة من الاتحاد السوفيتي»، ونص القرار بشكل خاص على ضرورة حصول المصدرين السوفيت

على تراخيص خاصة لإدخال السلع مثل القمح والأخشاب والسكر واللحوم والكتان التي كانت تتصدر قائمة الصادرات الروسية.

وفي الرابع عشر من اكتوبر عام ١٩٣٠م قدّم دوفغاليفسكي المندوب السوفيتي المفوض لدى فرنسا نيابة عن الحكومة السوفيتية احتجاجا شديد اللهجة مطالبا بإلغاء نظام التمييز، بينما قامت الحكومة السوفيتية في العشرين من نفس الشهر بالرد على التحرك الفرنسي بإصدار قرارها «حول العلاقات الاقتصادية المتبادلة مع الدول التي تفرض نظام قيود خاص على التجارة مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية». ونص القرار على التدابير التالية: وقف الطلبيات والمشتريات من هذه الدول أو تخفيضها لأقصى درجة؛ وقف استئجار السفن التابعة لهذه الدول؛ وضع قواعد لتقييد بضائع (الترانزيت) المنتجة في هذه الدول أو الواردة منها؛ وقف أو الحد لأقصى درجة من استخدام الموانئ وطرق ومناطق (الترانزيت) بهذه الدول في عمليات (الترانزيت) أو عمليات إعادة التصدير التي يقوم بها الاتحاد السوفيتي.

وهذا القرار لم يكن بمنزلة ضربة للمصدرين الفرنسيين فحسب وإنما أدى أيضا إلى عرقلة التجارة مع الدول الأخرى ومن بينها المملكة العربية السعودية، خاصة وأن العلاقات التجارية مع المملكة ظلت فترة طويلة على غير المستوى المرجو. وهكذا نشأت حلقة مفرغة، فالعمل الدؤوب الذي ظل المندوب المفوض يكدّ فيه سنوات طويلة، والعلاقات التي نجح في بنائها، والاتفاقات التي تم التوصل إليها قد باتت غير مطلوبة عمليا، أما نداءاته ودعواته لتنشيط العلاقات التجارية قد أصبحت -على ما يبدو- تثير الضجر لدى

إدارة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية التي كانت في هذه المرة مشغولة بمشاكل من نوع آخر تماما.

فقد كان الوضع في العالم يتطلب تحليلا دقيقا ومعلومات صحيحة على كافة المسارات، وبعثت إدارة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية إلى كل من تيورياقولوف في السعودية ودوبسون في اليمن تسأل عن العمليات الدائرة في العالم العربي والدور الذي تقوم به الدول الغربية هناك، حيث أرسل باستوخوف رئيس إدارة الشرق الأولى باللجنة يستفسر: "يهمنا جدا موضوع التحرك الإنجليزي العراقي لتشكيل اتحاد عربي، وما النتائج التي يمكن توقعها من المؤتمر العربي العام المنعقد في بغداد، وما رد فعل الحجاز واليمن على هذا الموضوع؟

وهل ما جاء في الصحافة عن أن وساطة الملك فيصل قد أسفرت عن التوصل إلى اتفاقية من نوع ما بين السعودية والأردن صحيح؟ وما مدى صحة الشائعات القائلة بأن يحيى قد عرض المساعدة العسكرية على ابن سعود بعد حادثة ابن رفادة؟

والمؤتمر الإسلامي الفلسطيني يواصل تنمية نشاطه ويفتتح مكاتب له في اليمن ودول عربية أخرى، فما هي مهام وإمكانات هذه المنظمة؟ وما علاقتها بالمؤتمر العربي العام في بغداد؟

كما يهمنا أيضا موضوع اندماج سوريا العراق، فما الدوائر الأجنبية التي يتم من خلالها في الوقت الراهن تشجيع هذه الفكرة الخيالية؟ برجاء التكرم بإرسال الرد على هذه الأسئلة في البريد القادم".

وفي الوقت نفسه كانت إدارة اللجنة الشعبية تتوقع من المندوب السوفيتي في السعودية قيامه أيضا بتحركات دعائية محددة للغاية. صحيح أن المواد التي كانت ترسلها موسكو للتوزيع كانت أحيانا تبدو متحيزة وغير متوقعة، فمثلا ذات مرة وصل إلى تيورياقولوف مع البريد - كما يقول - "مجلات أمريكية وإنجليزية، وكذلك محضر محاكمة مهندسي الفساد بالإنجليزية والروسية. ونحن نرى أن هذه المحضر يمكن أن نهديه إلى فؤاد حمزة إذا رأيتم هذا مناسبا".

وبالطبع لم يكن المندوب المفوض حر التصرف دائما في مجال الدعاية للسياسة الخارجية التي تعد من أهم مجالات النشاط، إلا أنه حاول استغلال كافة الفرص المتاحة ليوصل إلى الرأي العام السعودي والقيادة العليا بالمملكة معلومات عن الحياة في الاتحاد السوفيتي وإنجازاته الاقتصادية والاجتماعية، وهذا هو ما حدث أيضا عندما توجه إليه فؤاد حمزة نائب وزير الخارجية بطلب لتزويده بمواد عن الاقتصاد والتجارة في الاتحاد السوفيتي باللغة الإنجليزية، حيث كان يعد كتابا به فصول تتناول الاتحاد السوفيتي، ويود الاستعانة بالمصادر السوفيتية، وتم نقل هذا الطلب إلى موسكو، ولمّا تأخر الرد كالعادة أشار تيورياقولوف إلى هذا الطلب مرة أخرى قائلا في خطابه: "اذكّركم بموضوع الدوريات اللازمة لفؤاد حمزة باللغة الإنجليزية، لأنه ذكّرني بها منذ فترة قريبة، وهو يهمه قضايا البناء الاقتصادي والسياسة الخارجية للاتحاد السوفيتي، ويود لو حصل على مجلة تصدر في موسكو بالذات...".

وجاء الرد من موسكو بالاستعداد لإرسال مجموعة من الأعداد الصادرة

في عام ١٩٣٢م من المجلة الفصلية الخاصة بغرفة التجارة السوفيتية باللغة الإنجليزية، مع تزويده بشكل منتظم بالأعداد الجديدة من خلال المندوب المفوض، كما استفسر تيورياقولوف إذا كانت هناك إصدارات أخرى باللغة الإنجليزية في المجال المشار إليه حتى يمكن الحصول عليها بشكل دوري وتوزيعها.

في الواقع لكي يضمن تيورياقولوف سرعة الحصول على كتب ومواد الدعاية اللازمة كان عليه أن يلحّ في الطلب ليس على إدارته فحسب وإنما على الهيئات الأخرى أيضا. أما لجنة الشؤون الخارجية فكانت تعي جيدا فائدة هذا العمل من قبل المندوب، ولذلك كانت تتوجه بدورها مباشرة إلى المؤسسات العاملة في هذا المجال وخاصة الجمعية الاتحادية للعلاقات الثقافية مع الخارج.

فقد أرسلت اللجنة خطابا إلى سوكولوف رئيس الجمعية تستند فيه إلى طلب نذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي لدى المملكة العربية السعودية الذي يفيد بأن رجال السياسة السعوديين والمندوبين الأجانب يطلبون منه كتبا ومواد عن البناء الاقتصادي والثقافي في الاتحاد السوفيتي باللغتين الفرنسية والإنجليزية، "فقد طلب نائب وزير الخارجية الذي يكتب في الصحف العربية تزويده بمواد باللغة الإنجليزية عن الاقتصاد السوفيتي ونتائج الخطة الخمسية الأولى وما تتضمنه الخطة الخمسية الثانية، أما القنصل العراقي في جدة فمهتم بالنظام الهيكلي في بلادنا ويود إطلاع الدوائر التقدمية في بلاده على الوضع الفعلي داخل الاتحاد السوفيتي، وأما

السفير الفرنسي فمهتم بالاقتصاد وقضايا الفن. ولعل من الممكن تلبية جزء من هذه الطلبات من إصدارات الجمعية. هذا ويتضح من خطابات تيورياقولوف أن الجمعية لا تقوم بإرسال إصداراتها إلى البعثة. نرجو التكرم بتزويد البعثة في جدة بشكل منتظم بمجموعتين أو ثلاث من إصدارات الجمعية باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وكذلك انتقاء مجموعتين من الإصدارات الإنجليزية لعام ١٩٣٢م لتقديمها لنائب وزير الخارجية والقنصل العراقي".

ولابد أن نعترف بأن ردّ الفعل على طلب تيورياقولوف كان سريعا للغاية، إذ لم يمر شهر حتى وصل من الجمعية رد مطمئن للغاية جاء فيه: "ردًا على خطابكم رقم ١١٣/ د. ج. بتاريخ ٨ مارس الماضي، وخطابكم رقم ١١٣/ أ. ر. نتشرف بالإفادة بأننا قد أعددنا للمفوضية في جدة سبعة أعداد من صحيفة «Daily News» تحتوي على مواد حول نتائج الخطة الخمسية، وكتيب منفصل باللغة الإنجليزية يتضمن كلمة الرفيق ستالين في الجلسة العامة للجنة المركزية ولجنة الرقابة المركزية والتي عقدت في يناير، والعدد الأول من مجلّد أعمال الجمعية وبه مقالة عن هيكل القوميات في جمهورية ما وراء القوقاز الاشتراكية الفيدرالية السوفيتية. علاوة على ذلك قمنا بعمل اشتراك باسم المفوضية في ثلاث نسخ (باللغة الإنجليزية) من إصداراتنا الدورية لعام ١٩٣٣م، وهي مجلّد أعمال الجمعية الاتحادية للعلاقات الثقافية مع الخارج «فوكس» («VOKS») والذي يصدر مرة كل شهرين و Soviet Culture Review ويصدر شهريا، وكذلك مجموعتين من هذه الإصدارات لعام ١٩٣٢م (مجموعة

بالفرنسية ومجموعة بالإنجليزية)... وتلافيا للتأخر في إرسال هذه المطبوعات نرجو إبلاغنا بموعد أقرب باخرة إلى جدة. كما نرجو إبلاغ المفوضية بكافة هذه الإرساليات".

وفور وصول هذه الإصدارات قام تيورياقولوف بدراستها جيدا، معترفا بأن "المجلة بها مواد مفيدة"، حتى أنه بعث ببعض التوصيات بشأن ما يمكن إرساله من المطبوعات فيما بعد، مركّزا بشكل خاص على ضرورة زيادة عدد المطبوعات التي تتناول "جوانب من الحياة في آسيا الوسطى والقوقاز وغيرها من الأقاليم الشرقية بالاتحاد السوفيتي، فهذه المطبوعات قد تكون مفيدة، وتمثل أهمية كبيرة للشرق العربي المحتل". وأفاد المندوب السوفيتي بأن مجموعة أعداد مجلة «فوكس» لعام ١٩٣٢م قد وصلت بالكامل إلى البعثة في مايو، مشيرا في هذا الصدد بالقول أن "الاتحاد السوفيتي يحوز على اهتمام كبير سواء بين الأوروبيين أو العرب، والمهتمون بالاتحاد السوفيتي في أوروبا يمكنهم الحصول على المعلومات من الصحف والكتب التي تتوافر هناك بكثرة، أما هنا فتعد مجلة «فوكس» هي المصدر الوحيد للمعلومات عن الاتحاد".

كذلك كان تيورياقولوف يحاول الإلمام دائما بما يدور في أرض الوطن، ولذا قام أيضا بعمل اشتراك على حساب البعثة في عدد كبير للغاية من الدوريات الأخرى، حيث كتب في أحد خطاباته يقول: "نرجو عمل اشتراك باسمنا في الصحف والمجلات التالية:

١- صحيفة «برافدا» موسكو، لمدة عام (من يناير ١٩٣٤ حتى ديسمبر ١٩٣٤).

قيمة الاشتراك: ١٠ دولارات أمريكية.

٢- صحيفة «إزفيستيا» لسان حال اللجنة التنفيذية المركزية، مدة عام (من يناير ١٩٣٤ حتى ديسمبر ١٩٣٤).

قيمة الاشتراك: ١٠ دولارات أمريكية.

٣- صحيفة «ريفاليوتسيا إي ناتسيونالنوستي» موسكو، مدة عام.

قيمة الاشتراك: ٢.٥٠ دولار أمريكي.

٤- مجلة «نوفي مير» موسكو، مدة عام (من يناير ١٩٣٤ حتى ديسمبر ١٩٣٤).

قيمة الاشتراك: ٤ دولارات أمريكية.

٥- مجلة «كراسنايا نوف» موسكو، مدة عام (من يناير ١٩٣٤ حتى ديسمبر ١٩٣٤).

قيمة الاشتراك: ٤ دولارات أمريكية.

٦- مجلة «كراسني أرخيف» موسكو، مدة عام (من يناير ١٩٣٤ حتى ديسمبر ١٩٣٤).

قيمة الاشتراك: ٥ دولارات أمريكية.

٧- مجلة «ميروفوي خوزيايستفو إي ميروفايا بوليتيكا» موسكو، مدة عام.

قيمة الاشتراك: ٨ دولارات أمريكية.

٨- مجلة «بولشيفيك» موسكو، مدة عام (من يناير ١٩٣٤ حتى ديسمبر ١٩٣٤).

قيمة الاشتراك: ٢.٤٠ دولار أمريكي.

إجمالي قيمة الاشتراكات ٤٥.٩٠ دولار أمريكي (خمسة وأربعون دولارا أمريكيا وتسعون سنتا فقط لا غير).

أرجو من القسم المالي باللجنة الشعبية للشؤون الخارجية تحويل المبلغ المذكور إلى مؤسسة «ميجدونارودنايا كنيغا» (حساب جاري رقم ٢٦٣ بقسم المعاملات الخارجية بإدارة بنك الدولة بالاتحاد السوفيتي. موسكو، ١٢ شارع نيغلينايا)، مع تدوين المبلغ بحسابنا".

إن من يحلل نشاط تيورياقولوف على مدار السنوات الثمانية يلاحظ حتما دقته في المسائل المالية، فرغم أن ميزانية البعثة لم تكن كبيرة في أي وقت من الأوقات فإنه لم يسمح لنفسه أن يطلب من الإدارة مخصصات إضافية دون مبرر، بل على العكس عندما كان يطلب مطبوعات أو هدايا أو غيره كان يؤكد دوما على ألا تكون الهدايا غالية الثمن، مشيرا إلى أن الهدية لا تقدر بقيمتها المادية وإنما بقيمتها المعنوية، وسيتم سداد كافة المبالغ فورا.

وهذا هو ما حدث كالعادة في أحد طلبياته الكبرى والأخيرة التي بعث في طلبها إلى بولياكوف الموظف المسؤول بإدارة الشرق الأولى بلجنة الشؤون الخارجية، حيث كتب يقول: "مرفق طي هذا الخطاب طلبية موجهة إلى مؤسسة «تورغسين»، وأرجو منكم التكرم بنقلها إلى المؤسسة المذكورة لسرعة

تنفيذها، وإرسال الأشياء المطلوبة بالبريد الدولي باسم البعثة مع إرفاق الفاتورة (بالجنيه الذهبي الإنجليزي)، وسيتم السداد فور وصول الفاتورة وذلك من خلال القسم المالي بلجنة الشؤون الخارجية. وبعض هذه الأشياء مخصص لسد احتياجات البعثة، وبعضها الآخر لأغراض التمثيل، وبناءً عليه ارتأيت أن بإمكاني أن أتوجه إليكم بهذا الطلب على أمل أن تقوموا من جانبكم بإعطاء تعليمات إلى مؤسسة «تورغسين» لسرعة تنفيذ الطلبية والتأكيد على جودة السلع المرسلة".

أما قائمة السلع المطلوبة نفسها فلها دلالات كبيرة، إذ تشير مرة أخرى إلى التركيز بشكل أساسي على الهدايا التي تحددها طلبات السعوديين (الأقمشة والعطور والحلويات)، بينما لم يخصص للاحتياجات الداخلية بالبعثة إلا جزء ضئيل (المشروبات الكحولية)، وهاهي قائمة الطلبات:

قماش أغطية سرير جيدة الصنف	٣٠ متر
مفارش سفرة ملونة من التيل مقاس ٣١/ ٢- ٤	
(طاقم أصفر وآخر أزرق سماوي)	٢ طاقم كامل
مناشف (من القماش الخفيف)	١٢ قطعة
قماش بياضات من التيل	٨٠ متر
قماش تيل خفيف	٢٠ متر
مناديل قماش رجالي (يفضل من النوع الخفيف)	١.٥ دستة
كولونيا ثلاثية في زجاجات عبوة ٢٥٠ مل	٥ لتر
كولونيا برائحة الزهور: ماركة «مانون»	٤ زجاجات

ماركة «ماغنوليا»	٤ زجاجات
عطور ماركة «كراسنايا موسكوفا»	٣ زجاجات
خيط أبيض رقم ٦٠	١٢ بكرة
فودكا عبوة ١ لتر	١٢ زجاجة
حلويات كراملّة مشكّلة، في عبوات معدنية تتناسب مع الأجواء الحارة	١٠كيلوغرامات
مربى الكرز من النوع المخصص للتصدير في عبوات صفيح مغلقة باللحام	١٠كيلوغرامات
عنب الثعلب الأسود	٤ كيلوغرامات
نبيذ جورجي أحمر	١٥ زجاجة

كذلك عندما طلبت البعثة من موسكو "شراء آلة عرض سينمائي متنقلة على حساب البعثة، وإرسالها لعرض عدد من الأفلام التي تلقي الضوء على منجزات البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي" أكد نذير تيورياقولوف مجددا أن هذه السلعة سيتم سداد قيمتها، حيث كتب إلى رؤسائه يقول: "أن بإمكان البعثة أن تخصص لهذا الغرض مبلغ ٥٠ دولارًا". ويكفي لجنة الشؤون الخارجية شرفا أن نذكر أنها قدرت مبادرة مندوبها، وطلبت من الجهات المختصة "أن تقوم أخيرا بحل المسألة التي آن أوانها والخاصة بتزويد بعثتنا في الجزيرة العربية بآلة عرض سينمائي متنقلة، حيث يمكن استخدام الآلة في جدة ثم نقلها بعد ذلك إلى بعثتنا في اليمن، وفي حالة تبادل الأفلام بصورة منتظمة يمكن تنظيم عمل الآلة في البعثتين بفاعلية كبيرة لتوسيع نشاطنا الثقافي في الجزيرة العربية". حتى أن الأمر قد وصل إلى بحث تخصيص أموال إضافية، حيث أكد باستوخوف رئيس إدارة الشرق الأولى

بلجنة الشؤون الخارجية أنه "إذا كان المبلغ الذي خصصته بعثة الحجاز غير كاف لشراء آلة العرض السينمائي فإنه ينبغي بحث تخصيص بعض الأموال الإضافية بالروبل السوفيتي وتوفير نفقات ولو قليلة نسبيا لسداد قيمة استئجار الأفلام".

أيضا كان هناك مجال مهم آخر في نشاط تيورياقولوف في عام ١٩٣٢م - قمة مجده في العمل الدبلوماسي في الجزيرة العربية - هو تنشيط ما نطلق عليه بلغة العصر التعاون العلمي والفني، فبوساطة منه ومن لجنة الشؤون الخارجية تم إرسال عينات من الأجسام المعدنية التي تم اكتشافها في أراضي الحجاز إلى قسم العلاقات الخارجية باللجنة الشعبية للصناعات الثقيلة، بعد أن قامت السلطات الحجازية بتسليمها إلى البعثة السوفيتية لإرسالها للاتحاد السوفيتي، وقد طلبت لجنة الشؤون الخارجية بدورها "أن يقوم قسم العلاقات الخارجية بلجنة الصناعات الثقيلة بإرسال الأجسام إلى أحد مؤسساتنا العلمية لتحليلها وإبلاغنا بالنتائج".

وفي الوقت نفسه كانت موسكو تترقب باهتمام وصول عينات من النباتات والسلع التصديرية السعودية التي وعد الجانب السعودي بإرسالها، فالنباتات كانت تهم معهد دراسات النبات، أما السلع التصديرية فكانت تهم اللجنة الشعبية للتجارة الخارجية، وجاءت «منتجات الاقتصاد النجدي» مصحوبة بمذكرة تغطية تقول : "... بأمر من وزير المالية وصلتنا من نجد عينات من منتجات الاقتصاد النجدي (من الجلود والأصواف والأرز والقمح)، ويطلب الجانب السعودي تسليمها إلى خبير بضائع لتقييمها من الناحية التكنولوجية

والتسويقية، ويرجى إرسال مذكرة الخبير (ويفضل أن تكون باللغة الإنجليزية أو الفرنسية) باسم وزير المالية من خلالنا. ونرجو أن تأخذوا في اعتباركم أن أهم ما يبغيه الوزير من هذا (وهو ما لم يفصح عنه ولكنه مفهوم!) هو شد انتباه موسكو إلى السلع النجدية وتسويقها في الاتحاد السوفيتي، وأنا أرى أن هذا المسعى من قبل الوزير في محله. ولكن بما أنني لا أعرف رأي موسكو في هذا الشأن فلم أناقش معه «تفاصيل» الموضوع، وكل هذا يمكن الحديث عنه وفقا لما يصلنا من الإدارة من تعليمات".

لكن تيورياقولوف لم يضيع الوقت هباءً في انتظار تعليمات الإدارة، وإنما كان أحيانا يتخذ من تلقاء نفسه خطوات غير عادية لترويج المنتجات السوفيتية في السوق السعودية، ولعل من المهم في هذا الشأن تجربة بذور الخيار والشمّام والفلفل والباذنجان التي وصلت من موسكو بناء على طلبه، وبعد ترجمة النشرات المرفقة إلى اللغة العربية تم تسليم البذور إلى عبد الله سليمان وزير المالية الذي قام بزرعها في حديقته بمكة معربا عن امتنانه. وكتب تيورياقولوف في هذا الشأن يقول: "المياه أكثر من كافية، وقد زار الملك هذه الحديقة منذ فترة قريبة وذهل بها، وأمر وزير المالية بتحويل هذا الجزء من الحديقة إلى منتجع لأهل مكة. وليتكم ترسلون إلينا بذور الورود وغيرها من المحاصيل البستانية". بالفعل، يا لكثرة الطرق إلى قلوب الحكام!

ومع ذلك وفي هذه الفترة تحديدا بدأ بعض التوتر يعتري العلاقات بين قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية وتيورياقولوف. فإذا نظرنا إلى الخطابات الموجهة إلى المندوب المفوض نلاحظ أحيانا ازدياد حدة لهجتها أكثر

فأكثر، وهاك مثال على ذلك: "... لقد طلبنا منكم إرسال تقويم أمّ القرى، فهذا النوع من المواد يمثل أهمية كبرى بالنسبة لنا ويسهّل العمل بشكل كبير، ويفضّل لو وصلت مثل هذه الكتب الإرشادية والتقاويم إلى اللجنة فور ظهورها. نرجو التكرم بإرسال جدول مواعيد وصول بواخر الركاب الأجنبية بالضبط إلى جدة وغيرها من موانئ البحر الأحمر، كما أن المعلومات التي تصلنا عن صورة الاتحاد السوفيتي في الصحافة العربية قليلة للغاية، ربما يمكنكم عمل نظام بحيث تقومون بتزويدنا إن لم يكن بالترجمة فعلى الأقل بقصاصات من أهم الأخبار...".

أما خطاب كاراخان فكان أشد لهجة، حيث يأخذ فيه على تيورياقولوف عدم رده على برقيات الإدارة في الآونة الأخيرة مما يصعب معه إعداد البريد الصادر من موسكو، ونقرأ في هذا الخطاب: "من برقياتكم المتبادلة مع المؤسسات التجارية يتبين أن البعثة مازالت تمارس نشاطها، ولكننا لا نفهم بالمرة سر إصراركم على الصمت، فقد سألناكم بشكل خاص عن الموضوعات التي يلزم توضيحها لكم في هذا البريد، ولكن هذه البرقية لم يصلنا رد عليها، شأنها شأن غيرها من البرقيات، وصمتكم ينعكس بصورة سلبية للغاية على موقف كافة مؤسساتنا، وعلى رأسها المؤسسات التجارية، من ملفات الحجاز، حيث يتولّد انطباع أن الحجاز لا جديد فيه، ويتلاشى الاهتمام بنشاطنا في هذه المنطقة. أرجو منكم توضيح الأسباب وراء إصراركم على الصمت... وألفت انتباهكم مرة أخرى إلى ضرورة تزويد اللجنة بمعلومات أكثر تفصيلا ودقة عن وضع المديونية الحجازية، ويجب إدخال نظام إرسال الرسائل المشفرة بشكل منتظم عن طريق البريد، ولكن الأهم إرسال المعلومات بالبرق.

ومهمتكم الأساسية في الفترة القليلة المقبلة تتلخص في تحريك مسألة المديونية بأكبر قدر ممكن، أما مسألة المعاهدة فأقل أهمية، ولكن هذا الموضوع لابد أيضا من مواصلة العمل فيه. إلى جانب ذلك عليكم إحاطتنا بأهم جوانب الحياة السياسية والاقتصادية في الحجاز".

إن هذه المعاملة من قبل الإدارة لم تكن لتمر دون أن تثير رد فعل لدى المندوب المفوض. ففي الوقت الذي كان يجاهد فيه من أجل تنمية العلاقات السوفيتية السعودية، وتمكن من إلغاء «نظام الاستثناء» في مجال التجارة، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من إبرام معاهدة بين البلدين، تعرض لإهانة واضحة بعدم رضا إدارة اللجنة الشعبية عن عمله. وفي خطاباته الأخيرة بشأن قضايا التبادل التجاري سمح لنفسه ما لم يسمح به من قبل مطلقا، حيث أبرز بشكل خاص الموضوعات التي طالما توجه بشأنها إلى إدارة اللجنة ولم يحصل على ردود واضحة بصددها، إذا كتب خاصة يقول: "مازالت تتوالى علينا طلبات التجار لإعطائهم معلومات عن أسعارنا ومنحهم توكيلات لمنتجاتنا وتقديم عينات لهم من سلعنا ... إلخ إلخ، هذا من ناحية. أما من ناحية أخرى فتزداد حيرة الأهالي والدوائر الحكومية هنا من السلبية التي نتسم بها بعد أن تم إلغاء نظام الاستثناء تجاه التجارة السوفيتية في فبراير، فالكثيرون في الدوائر الحكومية يتولد لديهم انطباع أننا نتعمد السلبية بسبب عدم تسوية المسألة الخاصة بمديونية الحكومة السعودية لجمعية البترول، بينما يفسر الآخرون هذا بعدم ثقتنا في تصريح الحكومة السعودية بشأن حرية التجارة السوفيتية، وعلى أي حال فالشائعات حول هذا الموضوع تنمو

وتتكاثر، أما الأهم فهو أن البعثة أيضا ليس لديها علم بقرار موسكو في هذا الشأن".

ولأن لجنة الشؤون الخارجية كانت تتجاهل دوما إلحاح تيورياقولوف في طلب المزيد من الموظفين كان هذا يضطره باستمرار إلى الانشغال بأشياء خارج إطار اختصاصاته المباشرة، فنراه يذكر في أحد خطاباته: "منذ فترة وجيزة اضطررت إلى إجراء صفقة تجارية (لاستيراد الثقاب من بلادنا) بناءً على طلب كوندراشيف (لتسليم البضاعة وتحصيل الأموال وتحويلها)، خذوا في اعتباركم أن هذا قد وضعني شخصيا في موقف صعب، وإليكم واقعة أخرى على سبيل المثال لا الحصر، فقد اتصل التاجر السعودي فاضل عرب بمؤسسة «ليسوإكسبورت» لتصدير الأخشاب، وهو يسعى للحصول على توكيل لتسويق الأخشاب السوفيتية، وعرض شروطا جيدة (وهي السداد نقدا)، وردّت عليه «ليسوإكسبورت» بخطاب جيد مهذب تقول فيه إن تلبية طلب فاضل عرب يتوقف على تقرير «مندوبنا في جدة Mr. Turakulov»".

إن رجال الأعمال السعوديين الذين طالما كافح تيورياقولوف من أجل مرونتهم وكسب ثقتهم لم تتوافر لهم إمكانية عمل الاتصالات التجارية بسبب عدم وجود ممثلين تجارين رسميين من السوفيت في جدة، ولذلك بدؤوا البحث عن طرق أخرى لإيجاد شركاء لهم من بين المؤسسات التجارية السوفيتية، فقد بعث تيورياقولوف يقول: "وهناك عدد آخر من التجار يتوجهون إلى وكلائنا التجاريين في الحديّدة ومصوع واسطنبول... إلخ، وبعضهم يراسل لجنة التجارة الخارجية في موسكو". وكان هذا التوجه يثير قلق تيورياقولوف

لاسيما أنه كان يعلم أسبابه جيدا. وظل يتبادل تصوراته مع الإدارة ولكنه لم يعد يرى من الضروري أن يعبر عنها بصيغة دبلوماسية، فهو في نهاية المطاف قد تراكم لديه أيضا الكثير من علامات الاستياء من الإدارة، ولذلك لا ينوي السكوت أكثر من ذلك... وهو ما يتضح من كلامه، من قبيل ما يأتي:

"الاستنتاج: إذا كانت سلبيتنا تنبع من القرارات ذات المبدأ الصادرة عن الإدارة المركزية فإنه يلزم أن نقوم بها معا، وإلا فبعض الأفراد والمؤسسات سيخرقون السد. أما إذا لم يكن هناك قرارات من هذا النوع، وإذا كانت اللجنة الشعبية للتجارة الخارجية ترغب في العمل هنا فإنه طبقا للخطة التي عرضتها عليكم لابد من إرسال مندوبين من مؤسساتنا التجارية ليقوموا بالتعاون معنا بتحديد مسار تحركاتنا، أما هذا الأسلوب (ترك الأمور تجري في أعنتها) فلا يصلح، فالوضع الراهن يُعد في رأيي غير صحيح، بل ويضر بمصالحنا، وأنا الآن في حيرة لا أعرف أي سبيل أسلك.

الخلاصة: أرجو إبلاغي بالنوايا المستقبلية لدى لجنة التجارة الخارجية بشأن العمل في الحجاز. يسألونني: إلى أي مدى يمكن التعويل «بجدية ولأمد طويل» على قرار الحكومة السعودية بشأن تحرير التجارة السوفيتية.

أجيب: هذا يتوقف بدرجة كبيرة علينا نحن، إذ يجب التحرك بطريقة تعمل على تعزيز المكانة التي تم تحقيقها، فالحل يكمن في الحركة، ولابد من وضع العمل في إطار يسمح بتفادي أخطائنا في الماضي ويؤدي إلى ما نصبو إليه (من تدعيم مواقفنا وإبرام الاتفاقيات... إلخ إلخ)، أما أن نظل قابعين في مكاننا في انتظار النتائج فهذا أمر لا يجدي. فلتبدأ لجنة التجارة الخارجية ولو بدراسة السوق والتعرف على ظروف العمل، وليبدأ مندوب اللجنة في

الاتصال بطبقة التجار وليستمع إلى ابتزازاتهم، وهذا التحرك سيكون من الممكن استغلاله".

من الواضح أنه إلى جانب خيبة الأمل نتيجة تثاقل الجانب السوفيتي ممثلا في شخص لجنتي الشؤون الخارجية والتجارة الخارجية، كان تيورياقولوف يعاني أيضا من الإرهاق البدني، فقد كان كما سبق أن ذكرنا يضطر في أحيان كثيرة للقيام بمهام لم تكن تدخل في اختصاصه كرئيس للبعثة، ناهيك عن أن كل نداءاته بإيفاد المزيد من الموظفين لم تجد استجابة، وفي حالة سفر أعضاء البعثة لأي أسباب كان الوضع يدخل المنطقة الحرجة.

ولذلك لم يكن من قبيل العجب أن بعث تيورياقولوف إلى الإدارة بخطاب شديد اللهجة عندما غادر مساعده إزمايلوف المملكة لقضاء إجازته، حيث قال في الخطاب: "أكرر طلبي بعدم تأخير إزمايلوف لأن العمل دون مساعد صعب ومجهد بالنسبة لي، فأرجو أن تعملوا على أن يستقل الباخرة في موعد غايته سبتمبر لا أكثر، وإذا تأخر موعد باخرتنا لفترة طويلة يمكنه المجيء عن طريق نابولي - مصوّع. أرجو منكم ومن إزمايلوف التكرم «بعدم خذلاني». إن درجة الحرارة ستنخفض بحلول أكتوبر، ولذلك يمكنه ألا يخشى الطقس، وهو قد وعد أثناء رحيله أنه سيعود في موعده... كذلك يتطلب صالح العمل سرعة وصول سكرتير (للقنصل أو المساعد) كي تعمل الآلة جيدا، فلابد أن تنتبه الإدارة إلى الوضع القائم بالبعثة الآن وتعجّل بمعالجته، وإزمايلوف ليس أقل مني دراية بهذا الوضع، ومن هنا يأتي تكرار طلبي للإدارة ولكم ولإزمايلوف بأن تتعاملوا مع الموضوع بجدية".

لقد كان تيورياقولوف نفسه يدرك -وقد أبلغ رؤساءه بذلك- أنه "سيظل يتعين عليّ أن أقوم بكل شيء بمفردي... وأعترف أنني الآن نادم على أنني رفضت خدمات الموظفة التي اقترحتها عليّ لجنة الشؤون الخارجية في وقت من الأوقات"، ومع ذلك وجد في سفر إزمايلوف مبرراً جديداً ليطرح على موسكو مسألة تعيين عضو ثالث بالبعثة، حيث كتب يقول: "كما ترون فإن الأمور لا تسير في مجراها الطبيعي، فإذا أصابني مكروه ليس هناك بالفعل من يمكنه تسلّم الأرشيف وغيره، علاوة على أن حجم العمل نفسه يتطلب شخصين، ففي الفترة الأخيرة توقف عملنا الإعلامي تماما بسبب الأعمال الأخرى، وفي الوقت نفسه مطلوب تحسين العمل الإعلامي ليتم أداؤه كما يجب، بالإضافة إلى أن هناك شؤون المقر والحسابات، حتى لو اقتضت الضرورة القصوى أن يكون العضو الثالث تحت التدريب سيكون هذا أسهل، لأننا بهذه الطريقة سنضمن دائما إعداد عضو للمستقبل".

لكن للأسف يبدو أن إدارة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية لم يعد لديها نية لتأهيل الكوادر للعمل ببعثتها في جدة، ففي أواخر عام ١٩٣٢م تلقت بعثتا الاتحاد السوفيتي في المملكة العربية السعودية واليمن مذكرة تحليلية من الرفيق أوسيتروف تشير مباشرة إلى أن الوضع في مجال التجارة مع دول حوض البحر الأحمر كان يشبه التخريب، وكانت هذه الدول لا تزال تنتشر فيها "تلك الميول غير الثابتة وأحيانا السلبية التي كانت تبديها دوائرنا التجارية بشأن كافة القضايا المتعلقة بمواصلة تنمية النشاط التجاري في حوض البحر الأحمر، كذلك أصبحت المشاكل التجارية في الدول الأخرى

والقضايا الكبرى المتعلقة بهذه المشاكل تستحوذ على اهتمام الدوائر التجارية، مما أدى إلى تراجع قضايا منطقة البحر الأحمر إلى ذيل القائمة.

فالقرارات الخاصة بالقضايا المهمة والمستعجلة في التجارة بمنطقة البحر الأحمر تتأجل أسبوعا بعد أسبوع، وإصرار بعض القائمين على التجارة ممن يدافعون عن مصالح التجارة في هذه المنطقة لايسفر عن نتيجة تذكر، بل يؤدي أحيانا إلى نتيجة سلبية، وبعض القيادات التجارية يساورها الشك في جدوى النشاط التجاري في منطقتكم، وأنه لابد أولا من تكليف اللجان المختصة بالإدارة لعمل تقرير عن جدوى هذا النشاط ومدى الحاجة إلى الاستمرار فيه.

ويزداد الوضع تعقيدا مع توقف التجارة فعليا في جنوب فارس مما يدفع مؤسسة «سوفتورغفلوت» للنقل البحري إلى التفكير في ضرورة إلغاء رحلاتها على خط فارس، وكمية البضائع الموردة إلى دول حوض البحر الأحمر ليست كافية للدرجة التي يمكن من أجلها مواصلة رحلات البواخر. وموقف «سوفتورغفلوت» يزيد من تدهور الوضع العام ويعزز من موقف الدوائر التجارية الداعية إلى التصفية.

إن خروج الحجاز من دائرة النشاط التجاري، والكساد السائد في إريتريا بعد رحيل الرفيق ستوباك، وعدم اتخاذ قرارات حتى الآن بشأن العروض الواردة من الحبشة، وكذلك عدم توافر الرغبة لدى مؤسسة «سويوز نفط إكسبورت» والدوائر التجارية في مواصلة تنمية تجارة المنتجات البترولية في اليمن، كل ذلك أدى إلى ظهور وتطور وتقوية نزعات التصفية التي تكمن جذورها من ناحية في

التغيرات الكبرى التي تعرّض لها الوضع العام لتجارتنا بالأسواق الخارجية في الآونة الأخيرة، ومن ناحية أخرى في العجز في السلع التصديرية.

وتشير الدوائر التجارية المعنية بتنمية التجارة في منطقة البحر الأحمر إلى أن المعلومات حول السوق اليمنية قد توقفت تماما في الآونة الأخيرة. ولا تتلقى الشركات أي طلبيات محددة. أما الحجاز فلا يصل منها ردود على التساؤلات العديدة التي تطرحها المؤسسات التجارية بشأن موضوع المعرض. وهذه السلبية تعزز كثيرا من موقف دوائر التصفية".

وفي حقيقة الأمر كانت العلاقات التجارية مع التجار السعوديين والاتصالات السياسية مع قيادة المملكة، التي كان لجهود تيورياقولوف الفضل في تنشيطها، قد بدأت تتلاشى تدريجيا من الصفحات الأولى للنشرات الإعلامية، وتختفي من أولويات إدارة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، إذ آلت الصدارة للأحداث الأوروبية (حيث كان قد تم في ذلك الوقت توقيع معاهد مع فرنسا) واعتراف الولايات المتحدة بالاتحاد السوفيتي والدعوة لعضوية عصبة الأمم.

وبعد أن تم في صيف عام ١٩٣٤م تشغيل محطة الاتصالات الآلية -آخر «المشروعات الكبرى» للمندوب المفوض- التي أهديت للأمير فيصل بدأت الحياة في البعثة تتوقف تدريجيا، حيث انحسر تبادل المعلومات والطلبات مع الإدارة، خاصة وأن موسكو كانت تشهد أيضا تحولات كبيرة. فكاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية (١٩٢٧ - ١٩٣٤) والأب الروحي لتيورياقولوف كان قد تم نقله وأصبح يشغل منصب المندوب المفوض لدى

تركيا، وكان هذا بمنزلة نقطة النهاية لمراسلاتهم الرسمية والوديّة في الوقت نفسه، بل وأحيانا الطريفة والساخرة.

أما الحالة المعنوية المترديّة والظروف المناخية القاسية التي كانت تحيط بنذير تيورياقولوف وهو يدافع عن مصالح بلاده في أراضي الجزيرة العربية فخير دليل عليها هو ذلك الخطاب المليء بالأسى والإرهاق، الذي بعث به قبل سفره النهائي بقليل إلى تسوكرمان مدير إدارة الشرق الأولى في لجنة الشؤون الخارجية، والذي جاء فيه:

"الرفيق الموقر تسوكرمان!

أنتهز هذه الفرصة كي أعرب لكم عن شديد إعجابي بكم كرجل عاش طويلا في طشقند، وانطلاقا من هذا أسمح لنفسي بأن أصارحكم بأن السنوات السبعة التي قضيتها في ظروف الجزيرة العربية القاسية لا تنم عن العناية بالإنسان، وهذا ليس له علاقة بأي من المسؤولين، فقط أقول لكم إن من سخرية القدر أن الرفيق كاراخان الذي كان أكثر القائمين على شؤوننا ارتأى أنه - على ما يبدو - مضطر لأن يبدي عطفه نحوي، فهل بعد هذه الشفقة يمكن للإنسان أن يعتبر أنه حصل على ما يرضيه - هذا ما سأسألكم عنه لاحقا.

سبع سنوات في الجزيرة العربية هي سبع سنوات في غرفة البخار بحمامات ساندون[1]، بعيدا عن أي عمل حقيقي. ولا أريد أن أستجدي

(١) حمامات شهيرة في موسكو (المترجم).

الشفقة من أحد، ولكن في الوقت نفسه أقول لكم إنني في حاجة للعلاج مدة ثلاثة أو أربعة أشهر على الأقل لكي أتخلص من كل أمراضي وأستعيد قواي.

لقد منحتموني إجازة مدة شهر لقضائها بالخارج، وأنا شاكر من كل قلبي للرفيق كريستينسكي ولكم على هذا، فالرفيق كريستينسكي وضع تقييما فعلياً لحالتي في خطابه الذي بعث به إليّ من خلال إزمايلوف، وطرح مسألة أن أحصل على فترة للراحة.

سيكون من دواعي سروري البالغ أن ألتقي بكم فور وصولي إلى موسكو، واتحدث معكم كأخ لأخ عن كل شيء.

مع أطيب تحياتي.

نذير تيورياقولوف"

وفي عامي ١٩٢٤ - ١٩٢٥م ظلت العلاقات السوفيتية السعودية تستند لفترة على شهرة ومكانة تيورياقولوف، وفي هذه السنوات نفسها أفل مشواره الدبلوماسي، ففي نهاية عام ١٩٢٥م تم استدعاؤه إلى موسكو بالعبارة التقليدية «نظرا لنقلكم إلى عمل آخر».

وبهذه المناسبة بعث الملك عبد العزيز آل سعود برسالة إلى ميخائيل كالينين رئيس اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي قال فيها:

"صاحب الفخامة!

إن من دواعي سرورنا أن نتلقى خطابكم الذي تكرمتم فيه بإبلاغنا بنقل

سعادة نذير تيورياقولوف إلى عمل آخر. وفي هذا الصدد نعرب لفخامتكم عن ارتياحنا للجهود التي بذلها وزيركم المفوض المذكور من أجل تنمية علاقات الصداقة والعلاقات الطيبة القائمة لحسن الحظ بين البلدين، فقد آتى عمله ثمارا طيبة، وننتهز هذه الفرصة لنعرب لكم عن خالص التمنيات بالرفاه لكم والرخاء لحكومتكم وشعبكم".

حرر في قصرنا بمكة في ١٥ من ذي الحجة ١٣٥٤هجرية.

عبد العزيز آل سعود (توقيع).

الفصل الثامن

وعاد إلى أرض الوطن

والحزن، متى افرط، عاصرك ومفنيك،
والقريب، إذا اذاك، غريب، وأذاه الحياة منهيك،
والجهل، متى عم، في كل مكان عالق فيك.
الشاعر الكازاخي أباي

في حياة كل دبلوماسي تأتي اللحظة التي يعود فيها إلى وطنه، وهذا بالنسبة لبعض الدبلوماسيين يعني الترقي في المهنة والتعيين في منصب جديد، ولبعضهم الأخر نهاية مشوارهم الدبلوماسي. وفي نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين كان الاستدعاء لموسكو بالنسبة لكثيرين من الدبلوماسيين السوفيت ينتهي باعتقالهم وسجنهم وإعدامهم، ففي بداية الأربعينيات وصل عدد من وقعوا ضحية لعمليات القمع والاضطهاد من أعضاء اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية إلى خمسة من نواب اللجنة و٤٨ من المندوبين المفوضين و٣٠ من رؤساء الإدارات و٢٨ من رؤساء المكاتب القنصلية و١١٣ من بقية أعضاء اللجنة. ومن عاصر هذه الفترة يذكر كيف كانت طرقات ديوان اللجنة خالية تدوي فيها الريح بالمعني الحرفي للكلمة.

ولكي نعطي تصورا أفضل عن حجم تلك الخسائر تجدر بنا الإشارة إلى أنه قبيل الحرب العالمية الثانية لم يكن للاتحاد السوفيتي علاقات دبلوماسية

إلا مع ٣٠ دولة من دول العالم، أما عدد أعضاء السلك الدبلوماسي بلجنة الشؤون الخارجية فكان أقل من ٥٠٠ دبلوماسي، وفي الوقت نفسه وفي هذه الفترة بالتحديد تم استدعاء العديد من أعضاء السفارات السوفيتية من بعض دول العالم واضطهادهم، حتى أن ليتفينوف في أواخر أيامه في منصب رئيس لجنة الشؤون الخارجية بعث بتقرير إلى يوسف ستالين يقول فيه: "حتى هذه اللحظة وصل عدد بعثاتنا الخالية من المندوبين المفوضين إلى تسع بعثات في تسع عواصم، هي واشنطن وطوكيو ووارسو وبوخارست وبرشلونة وكوفنو وكوبنهاجن وبودابست وصوفيا... وفي بعض العواصم المذكورة ليس لدينا مندوب مفوض منذ أكثر من سنة، والإبقاء على القائمين بالأعمال في رئاسة السفارات والبعثات مدة طويلة يأخذ معنى سياسيا ويفسّر على أنه نتيجة لعدم الارتياح للعلاقات الدبلوماسية".

إن عمليات التطهير التي قام بها ستالين في لجنة الشؤون الخارجية كان ترجع -على حد كلامه الذي رد به على ليتفينوف عندما اعترض عليه- "لأسباب تتعلق بالصالح السياسي وتنبع من الوضع الخارجي والداخلي". وقد طال هذا التطهير عددا من الدول بما في ذلك الصين ومنغوليا وفنلندة ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وكذلك المملكة العربية السعودية التي أمضى فيها نذير تيورياقولوف ثمانية أعوام من العمل الدؤوب مندوبًا مفوضًا لبلاده.

وقد تناولت الكثير من الأقلام هذه الفترة المأساوية من التاريخ السوفيتي ، ومع ذلك وحتى يومنا هذا لا يكل شهود العيان ممن عايشوا هذه الأحداث الغابرة من التطرق إلى هذا الموضوع كلما ذكروا به، ومنهم الكاتب ف. كاربوف

الحاصل على وسام البطولة للاتحاد السوفيتي والذي كان من نزلاء معسكرات الأشغال والتهذيب التي أقامها ستالين، حيث يصف المواجهة التي لم تنقطع في الصراع على السلطة بدءًا من الأيام الأولى للثورة والحرب الأهلية وحملة الاضطهاد الستاليني التي تلتها، فيقول:

"ثم بدأت العملية ككتلة جليد تنهار من قمة الجبل، إذ راح ستالين يسحق أعداءه في موسكو، بينما بدأ أعوانه في الأقاليم ينقّبون عن الأعداء في الجمهوريات والمقاطعات لينالوا حظوة لدى الأمين العام للحزب الشيوعي، وفي الوقت نفسه يتخلّصون من الحاقدين وكل من لا تستريح له السلطة المحلية...".

وهذا تماما ما يمكن قوله أيضا عن المصير المأساوي الذي واجه نذير تيورياقولوف، فنشاطه الدؤوب والأكثر من ناجح في سنوات الثورة، ثم بعد ذلك في منصب رئيس اللجنة التنفيذية المركزية بتركستان وفي دار النشر المركزية في موسكو، وأخيرا في منصب المندوب المفوض في المملكة العربية السعودية، لم يكن ليمر دون أن يخلّف له الكثير من «الأصدقاء» والأعداء الألِدّة في تلك السنوات العصيبة والمليئة بالمآسي.

وهذا تقريبا ما صرخ به راسكولنيكوف الدبلوماسي السوفيتي «من دفعة ليتفينوف» في «خطابه المفتوح إلى ستالين»، حيث قال: "رغم علمكم بأنه في ظل افتقارنا للكوادر يعزّ علينا كثيرا كل دبلوماسي متنور ومحنّك، قمتم باستدراج المندوبين السوفيت إلى موسكو والقضاء عليهم واحدا تلو الآخر. لقد قضيتم على جهاز اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية برمته".

إن التطهير الذي أعقب خلع ليتفينوف قد أنهى عملية إقصاء الدبلوماسيين المهرة وذوي الخبرة، ولذا كان استدعاء نذير تيورياقولوف من المملكة العربية السعودية يعني في واقع الأمر نقمة سياسية وليس «نقلا لعمل آخر» كما تم تفسيره للملك وحكومته. وقد صدر قرار «إعفاء الرفيق تيورياقولوف من مهامه كمندوب مفوض لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية لدى الحجاز» في جلسة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي في الثالث من يناير عام ١٩٣٦م، والجدير بالذكر أنه لم تصدر أي تعليقات حول أسباب الاستقالة والتعيين في منصب جديد، وهذا وحده كان كافيا في ذلك الوقت لنسج الافتراضات حول المصير السيئ الذي كان بانتظار المندوب.

ولكن من الواضح أن تيورياقولوف نفسه لم يفاجأ بتطور الأحداث بهذه الصورة، ففي طريقه إلى أرض الوطن حدث أن التقى في باريس مع حكيموف الذي تم تعيينه مرة أخرى في الحجاز، وقد وجد حكيموف -على حد قوله- تيورياقولوف في حالة صعبة، فثماني سنوات من العمل المضني في بلد مناخه ينهك القوى مع قلة الإجازات لم تكن لتمر دون أن تترك آثارها على المندوب المفوض. انظر ماذا يقول حكيموف: «لقد جاء إلى باريس مريضا، وأصابه صمم كامل تقريبا، وهو الآن يعالج لدى كبار الأطباء الفرنسيين حتى يستغل وجوده في باريس لاستعادة صحته، وفي العشرين من يناير سيتوجه إلى برلين حيث سيظل هناك أسبوعا ثم بعدها يواصل طريقه إلى موسكو. وبعد وصول أمتعته الثقيلة إلى برلين قام الرفيق بيليايف بإرسالها إلى جمارك موسكو».

ويتضح من العبارة الأخيرة أن تيورياقولوف كان يدرك وهو يغادر المملكة العربية السعودية في هذه المرة أنه على الأغلب لن يعود إليها ثانية.

ومع ذلك فاللقاءات والحوارات التي جرت مع حكيموف، وكذلك الخطاب الذي بعث به من باريس إلى موسكو يكشف النقاب بعض الشيء عن سر استدعاء تيورياقولوف من جدة، حيث يُفهم من لهجة الخطاب ومضمونه أن قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية قد ظهرت لديها مبررات للشك في صحة المعلومات الواردة من تيورياقولوف في الأونة الأخيرة. ودور حكيموف في هذا الموقف ليس مفهوما تماما، ولكن من الواضح أن موسكو كانت تنتظر منه تقريرا مفصلا عن ميول وآراء تيورياقولوف، وهو بالفعل ما ضمنه الخطاب المؤرخ في الأول من يناير عام ١٩٣٦م والذي يقول فيه: "لقد طرحت أمام الرفيق تيورياقولوف كافة القضايا التي تهمكم وتهمني أنا شخصيا أيضا، والانطباع العام الذي خرجت به من حواري مع الرفيق تيورياقولوف هو: أنه كان يشارك بنشاط بالغ في الحياة المحلية، وخاصة بصدد مراقبة القادمين والمغادرين الذين كانوا يمثلون أهمية بشكل أو بآخر من حيث نشاطهم في المناطق التي تعنينا، مثل تنقلات مواطني سينزيان والمهاجرين من آسيا الوسطى والمهاجرين الأتراك... إلخ ممن هم دائمي التنقل بين مكة والهند وسينزيان.

كما أن وصف الرفيق تيورياقولوف للمكانة الدولية للسعودية والوضع الداخلي بها يوضّح أنه مطلع بدرجة كافية على ما يجري سواء في مجال العلاقات الدولية أو الوضع الداخلي في السعودية.

وقد كررت عليه سؤالا واحدا أكثر من مرة: بم يمكن تفسير انه رغم قيامه برصد ما يجري واطلاعه بدرجة كافية على الأوضاع لم يحط موسكو علما ولم يرد حتى على استفساراتها المتكررة، ولكني لم أحصل على إجابة مقنعة، صحيح أنني لأسباب معروفة لم ألح كثيرا في هذا الأمر، حيث أعتقد أن الأهم بالنسبة لى كان هو الحصول منه على كل ما يمكن أن يبوح به هو فقط من خبرة السنوات الثمانية. ويمكن القول الآن بثقة إن المخاوف المعروفة التي أعرب عنها رجالنا في موسكو لم يكن لها أساس".

وبعد أن عاد تيورياقولوف إلى موسكو ظل بعض الوقت ضمن صفوف الاحتياطي بلجنة الشئون الخارجية، وعاد للإقامة بمسكنه القديم بالشقة رقم ٣٠٩ فيما يسمى «بمجمع مساكن الحكومة الأول» بشارع سيرافيموفيتش، ولم يرغب في أن يبقى عاطلا فعاد إلى الاشتغال بالعلم في معهد اللغة والكتابة التابع لمجلس القوميات باللجنة التنفيذية المركزية، إلا أنه في يونيو من عام ١٩٣٦م تم نقله مرة أخرى إلى صفوف الاحتياطي، ولكن هذه المرة احتياطي اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، وهذا مقيد باستمارة تسجيله بعضوية الحزب، وكان هذا يعني - طبقا لما كان معمولا به في النشاط الحكومي والحزبي في ذلك الوقت - أنه قد يكون في انتظاره منصب حزبي كبير أو مركز مرموق في مؤسسات السلطة في الدولة، وبدا أن الشكوك في نزاهة تيورياقولوف قد بدأت تتبدد تدريجيا.

إلا أن اللجنة الشعبية للشئون الداخلية كان لها رأي معاكس بشأن هذه المسألة، ويمكن الافتراض -وثمة مبررات لذلك- بأن الشكوك في ولاء

تيورياقولوف جاءت من التقارير المبتذلة التي كانت ترد أيضا من المحيطين به.

لقد حاول تيورياقولوف في حدود ما تسمح به مهامه الا يقتصر في اتصالاته على رجال الصفوة السعودية فحسب، فبصفته خبيرا في شؤون الشرق الأوسط كان يدرك مدى أهمية توطيد العلاقات مع الدول الأخرى بالمنطقة بالنسبة للاتحاد السوفيتي، وبحكم اتساع أفقه وسعة مداركه وقدرته على التحاور كان يجذب انتباه مختلف البشر الذين كانوا يتعاملون معه عن طيب خاطر، وكان يرسل إلى موسكو أقيم المعلومات عن الوضع في المنطقة والموقف على الحدود والعلاقات والاتصالات التي يقوم بها زعماء دول الشرق الأوسط مع الدول الغربية، وكان من بين مصادره الرئيسة في ذلك زملاؤه من البعثة التركية الذين ظل على علاقة وثيقة بهم طوال السنوات الثمانية التي قضاها في عمله بالمملكة.

بالفعل كان تيورياقولوف يتعامل مع زملائه من الدبلوماسيين الأتراك بودّ واضح، وكان قد التقى بالمندوب التركي ساني بيه لأول مرة في جنازة بيكينين مترجم البعثة الذي توفي بعد وصول تيورياقولوف إلى جدة بفترة وجيزة، ووقتها أشار تيورياقولوف في تقريره إلى الإدارة أن المندوب التركي كان من أوائل من جاؤوا لتقديم العزاء، ثم بعد ذلك تكررت لقاءاتهما عدة مرات، وكانا متفقين في الرأي بشأن العديد من القضايا، ويمكن القول أن كلا منهما كان يروق للآخر. وعلى أي حال فبخلاف الإنجليز لم يكن ساني بيه يعترض على ترشيح المندوب السوفيتي لعمادة الدبلوماسيين، بل على العكس كان يرحب بذلك.

كذلك كوّن تيورياقولوف وساني بيه جبهة واحدة في المسألة الخاصة باستقبال أعضاء السلك الدبلوماسي للأمير الأفغاني السابق أمان الله لدى وصوله إلى جدة، حيث كان عين المُلْك مندوب فارس لدى المملكة العربية السعودية يصرّ على لقاء الدبلوماسيين به، إلا أن هذا لم يكن يناسب الجانب السوفيتي، لكن هذا الرأي كان يتطلب مساندة من مندوبي الدول الأخرى، عندئذ توجّه تيورياقولوف إلى الأتراك، ويقول في أحد تقاريره بهذا الصدد: "وفي اليوم نفسه التقيت بساني بيه، واستفسرت منه عن موقفه من هذا اللقاء، فأعلن موافقته على وجهة نظرنا بشكل قاطع، وبدا الأمر أن لديه تعليمات محددة بهذا الصدد، رغم أنه راح يؤكد أن هذا الموضوع جديد عليه وهو لا يعرف رأي أنقرة بشأنه". واضطر مندوب فارس للتخلي عن فكرته السابقة "بلقاء أمان الله لدى وصوله إلى جدة، ولكنه صرح بأنه ينوي القيام بزيارة خاصة له بعد أن يتحدد مقر إقامته بأحد المنازل بجدة". وبما أن المندوب التركي كان لديه أسبابه التي تمنعه من لقاء أمان الله لدى وصوله فإنه أيضا "لن يزوره بعد ذلك، لأن هذه الأسباب لا يمكن أن تتغير بعد انتقال الأمير من الباخرة إلى مقر إقامته في جدة". لذلك أيّد المندوب السوفيتي من جانبه وجهة نظر ساني بيه.

حتى على المستوى الحياتي كانت العلاقات بين المندوب السوفيتي وأعضاء البعثة التركية ودّية للغاية، فعندما اشتد المرض على نائب القنصل التركي بعد وصوله إلى العمل بجدة تم نقله إلى المستشفى العام حيث كانت العناية به - لنقل - دون المستوى، حينئذ انضم طبيب البعثة السوفيتية موشكوفسكي للمشاركة في علاجه بالتنسيق مع تيورياقولوف.

ولم تكن هناك عملياً أي مشاكل في العلاقات بين بعثتي البلدين لدى المملكة، كذلك لم يشكّل الأتراك منافسة جادة في مسائل التأثير على سياسة الملك ولم يبدوا في ذلك نشاطا كبيرا . وتبرز في هذا المقام إلى حد ما زيارة محمود نديم الوالي العثماني السابق على اليمن والذي جاء إلى الحجاز -على حد ظن تيورياقولوف- يحمل خططا موجهة ضد الإمام يحيى، وقد استقبله الملك آل سعود وقدم له ساني بيه كل عون ممكن. ولكن هذه المسألة سرعان ما تم تسويتها بعد أن أرسل الاتحاد السوفيتي استفسارا إلى أنقرة بشأن الزيارة، وحصل على تأكيدات من الجانب التركي بأن الزيارة كانت تحمل طابعا غير رسمي. وإشكالية اليمن كانت تتعلق في الحقيقية بالوضع في منطقة عسير الحدودية، ولذلك تلقى تيورياقولوف من قيادة اللجنة الشعبية التعليمات التالية: "... حفاظا على صورتنا كدولة لا تتدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى... يجب تحيّن الفرصة المناسبة للإعراب عن وجهة نظرنا بأن النزاع المسلح بين الدولتين العربيتين سيلحق الضرر بكليهما، وأن هذا النزاع لا يخدم إلا مصالح طرف ثالث...".

لقد أكد التعاون الوثيق بين البعثتين قوة العلاقات السوفيتية التركية التي كادت تتخذ طابع التحالف في ذلك الوقت، فعندما وصل جلال عارف القائم بالأعمال التركي الجديد إلى جدة في عام ١٩٣٠م أعلن لتيورياقولوف أنه قد صدرت إليه تعليمات خاصة بالتعاون الوثيق مع المندوب السوفيتي. وكتب تيورياقولوف وقتها لموسكو يقول: "يبدو أن أنقرة قد بدأت تستجيب لتصوراتنا المتكررة حول ضرورة المزيد من الاتصالات الوثيقة بين مندوبي البلدين في الجزيرة العربية".

وكانت هذه الاتصالات «وثيقة» للغاية لدرجة أن المندوب السوفيتي ارتأى ضرورة أن يتقدم بالتماس إلى اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية لتقوم بعمل اللازم مع وزارة الخارجية التركية لرفع درجة مندوبها في جدة. وقد علم حكيموف بذلك من حواره مع تيورياقولوف في باريس، فكتب إلى اللجنة الشعبية يقول إن "القائم بالأعمال التركي طلب مساعدته كي تقوم أنقرة بترقيته لدرجة مبعوث. وقد شكا الرفيق تيورياقولوف بدوره من عدم المبالاة التي تعاملت بها موسكو مع هذه المسألة، حيث ظل شهورا طويلة ينتظر رد موسكو ولكنها لم ترد. وقد التقيت مع كاراخان وأبلغته بالطلب التركي. فوعدني بأنه سيطرح الموضوع على ريوشت، وسمح لي أن أبلغ التركي بذلك إذا لزم الأمر".

وبعد أن عاد تيورياقولوف إلى موسكو ورغم كونه ضمن صفوف الاحتياطيين رأى انه لابد أن ينهي ما بداه، خاصة وأنه كان يرى من قلبه أن الحفاظ على علاقات الصداقة مع تركيا بشكل عام وبعثتها في المملكة العربية السعودية بشكل خاص هو أمر غاية في الأهمية، ولذلك جدد الطلب إلى قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية، فقامت بإرسال استفسار للبعثة السوفيتية في تركيا قالت فيه: "... لقد طرح تيورياقولوف علينا مجددا موضوع جلال عارف القائم بالأعمال التركي في جدة، وكنا قد أبلغناكم منذ سنة ونصف أن جلال عارف الذي أقام علاقات حميمة للغاية مع تيورياقولوف يشعر بالظلم. لأنه على درجة قائم بالأعمال لم يتعداها على مدار عدة أعوام، وقد طلب منّا الرفيق تيورياقولوف طرح هذا الموضوع في أنقرة عندما تحين الفرصة لذلك والتوصية بترقية جلال عارف إلى درجة مبعوث، وقد كتبنا

إليكم في هذا الشأن في نهاية عام ١٩٣٤م ولكن لم يصلنا ردكم حول نتائج التحرك في هذا المسار، والآن وأنتم تخبرون الأتراك بأن الرفيق حكيموف قد حل محل الرفيق تيورياقولوف يمكنكم أن تتطرقوا مرة أخرى إلى موضوع المندوب التركي في جدة، وتستوضحوا منهم لماذا يكتفون في جدة بقائم بالأعمال طيلة عدة سنوات بعد وفاة مبعوثهم هناك، وفي هذا الصدد يمكن الإشارة إلى أن جلال عارف يتمتع بمكانة كبيرة في جدة، وأن لدينا تقارير من الرفيق تيورياقولوف تثني عليه، وبإمكان الرفيق بولياكوف إبلاغكم بشكل أكثر تفصيلا عن المندوبين الأتراك في جدة في السنوات الأخيرة".

بيد أنه في نهاية هذا الخطاب المؤرخ في ١٣ مارس ١٩٣٦م كانت هناك إضافة تقول إنه "بعد تحرير الخطاب وصلتنا رسالة من الرفيق حكيموف مندوبنا في جدة تفيد بأن معلومات الرفيق تيورياقولوف بشكل عام تحتاج إلى بعض التصحيح، ولذلك فيما يخص البند الأول (بشأن القائم بالأعمال التركي) لا تتخذوا أي إجراءات، فنحن نستفسر من الرفيق حكيموف في الوقت الراهن إذا كان يلزم أن نتدخل في هذا الموضوع من عدمه". ويبدو أن هذه الملحوظة الناتجة عن تقارير المندوب الجديد وكذلك جهود «أهل الخير»، وهو أمر وارد تماما، قد وضعت نقطة النهاية في مشوار نذير تيورياقولوف الدبلوماسي.

وكان تيورياقولوف لا يزال يعيش ويعمل في موسكو، ربما في انتظار تعيينه في منصب جديد، ولكن مصيره كان قد تحدد، حيث صدر الإذن رقم ٢٨٩١ «بالقاء القبض على نذير تيورياقولوف وتفتيشه بالعنوان ٢ ش سيرافيموفيتش، شقة رقم ٣٠٩»، بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٣٧م، وحضروا إليه لتنفيذ الأمر يوم ١٧ منه.

وقد أثبت التحقيق الذي استمر ثلاثة أشهر ونيف أن "نذير تيورياقولوف يُعد منذ عام ١٩٣١م عضوا نشطا في منظمة تركمانية إرهابية تخريبية تعمل ضد الاتحاد السوفيتي وهدفها إسقاط السلطة السوفيتية، وفي نشاطه الفعلي المناهض للثورة كان المتهم تيورياقولوف على علاقة منتظمة بريسكولوف رئيس هذه المنظمة، حيث قام تيورياقولوف بتكليف من ريسكولوف بالاتصال برجل المخابرات التركي مصطفي جواد والتجسس لصالح تركيا، كما قام تيورياقولوف بالدعاية للوحدة التركمانية ضد الثورة والدعوة إلى استخدام الأساليب الإرهابية في الصراع ضد قادة السلطة السوفيتية" . هكذا انعكست العلاقات الودّية للمندوب السوفيتي لدى المملكة العربية السعودية مع المندوبين الأتراك على مصيره، تلك العلاقات التي كان يسعى لاستغلالها لصالح بلاده.

وفي الثالث من نوفمبر وخلال الجلسة المغلقة «للهيئة العسكرية بالمحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية برئاسة القاضي العسكري الرفيق ماتوليفيتش وعضوية كل من القاضي العسكري الرفيق زاريانوف والقاضي العسكري الرفيق ستيلماخوفيتش» صدر الحكم التالي:

«بعد الإطلاع على ملف القضية الخاص بنذير تيورياقولوف، من مواليد ١٨٩٣، الخبير السابق بمعهد اللغة والكتابة التابع لمجلس القوميات باللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، بتهمة ارتكابه الجرائم المنصوص عليها بالمواد رقم ٥٨/١ أ، و ٥٨/٨، و ٥٨/١١ من القانون الجنائي لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية... وثبوت التهمة

المنسوبة إليه بارتكابه الجرائم المنصوص عليها بالمواد رقم ٥٨/١ أ، و ٥٨/٨، و ٥٨/١١ من القانون الجنائي لجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفيتية حكمت الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية على نذير تيورياقولوف بتوقيع أقسى العقوبة الجنائية عليه وهي الإعدام رميا بالرصاص مع مصادرة كافة ممتلكاته الشخصية، ويعد هذا الحكم نهائيا وغير قابل للنقض ويلزم تنفيذه فورا طبقا لقرار اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية الصادر بتاريخ الأول من فبراير عام ١٩٣٤".

وتشير «المعلومات» إلى أن "الحكم الصادر بإعدام نذير تيورياقولوف" قد تم تنفيذه في موسكو في الثالث من نوفمبر عام ١٩٣٧م، كذلك طال الاضطهاد أقرب أقربائه، حيث قامت الأجهزة بإلقاء القبض على زوجته نينا تيورياقولوفا في الثاني من نوفمبر عام ١٩٣٧م في موسكو، وصدر قرار من المجلس الخاص التابع للجنة الشعبية للشئون الداخلية بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٣٧م بالحكم عليها «بصفتها أحد أعضاء أسرة الخائن لوطنه» بخمس سنوات بمعسكرات الأشغال والتعذيب، وشاء القدر أن تقضي مدة العقوبة في مدينة أكمولينسك في كازاخستان مسقط رأس زوجها.

وفي السابع عشر من مايو ١٩٤٠م تم اعتقال أخيه بافل سالمين وكان وقتها طالبا في معهد الطُّرُق في موسكو، حيث وُجهت إليه تهمة الدعاية ضد الاتحاد السوفيتي، وصدر قرار من المجلس الخاص التابع للجنة الشعبية للشؤون الداخلية بتاريخ ١٢ أغسطس ١٩٤٠م بثلاث سنوات بمعسكرات

الأشغال والتهذيب. وأثناء قضائه مدة العقوبة وفي التاسع عشر من أغسطس عام ١٩٤٤م صدر ضده حكم آخر بالسجن عشر سنوات، في هذه المرة بتهمة انتمائه «لمنظمة ثوار مناهضة للاتحاد السوفيتي». أما بقية أفراد أسرة تيورياقولوف وهم أخوه وحماته وغيرهم فقد تفرقت بهم السبل في أرض الله كما كان الحال في ذلك الزمن العصيب، أما ابنته الوحيدة آنيل التي رُزق بها في عام ١٩٢٥ فقد عملت في العديد من المؤسسات في موسكو، حيث أبلت بلاء حسنا نالت عليه تقديرا من قبل رئاسة مجلس السوفيت الأعلى التي كرمتها في عام ١٩٤٨ بمنحها نوط «ذكرى مرور ثمانمائة عام على إنشاء مدينة موسكو»، وتوفيت عن عمر يناهز السبعة والسبعين عاما ودُفنت بمدينة تركستان موطن والدها في مقاطعة جنوب كازاخستان.

ومع ذلك كان لابد للعدالة أن تنتصر، فجاء عام ١٩٥٧م وبدأ مصير المندوب المضطهد يشغل اهتمام أجهزة التحقيق من جديد، ولكن في هذه المرة لغرض مخالف للغرض السابق وهو معرفة الحقيقة، حيث أرسل وكيل النيابة العسكرية العامة يستفسر عن نشاط تيورياقولوف من الأرشيف الحزبي المركزي بمعهد الماركسية اللينينية التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي، فجاءه الرد بأن "الأرشيف لا يتوافر لديه معلومات إلا عن عمله في الفترة من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٣٥م كمندوب مفوض للاتحاد السوفيتي في الجزيرة العربية، ولم يتم العثور في هذه الملفات على أي معلومات تفيد انتماء نذير تيورياقولوف لمنظمات مناهضة للاتحاد السوفيتي".

وفي الثامن والعشرين من يناير عام ١٩٥٨م قامت الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا للاتحاد السوفيتي بإعادة النظر في قضية تيورياقولوف، وفي هذه المرة استنادا إلى تقرير ممثل النيابة اقترحت هيئة المحكمة "إلغاء الحكم

الصادر بشأن نذير تيورياقولوف، وإيقاف الدعوى لعدم توافر عناصر الجريمة استنادا إلى ما توصّلت إليه التحقيقات الإضافية من حيثيات جديدة تدل على بطلان إدانة تيورياقولوف وتثبت براءته".

وبعد مراجعة ملفات القضية والتحقيقات الإضافية، وبالموافقة على تقرير النائب العسكري الأول قررت الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا للاتحاد السوفيتي "إلغاء الحكم الصادر من الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا ضد نذير تيورياقولوف بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٣٧ استنادا للحيثيات الجديدة، وإيقاف الدعوى لعدم توافر عناصر الجريمة".

لكم تأخر هذا! وياله من ظلم أن تنتهي حياة هذا الرجل الفذ والدبلوماسي الموهوب بهذه الصورة السخيفة وبهذه العجالة غير المنصفة! فلو استغل الاتحاد السوفيتي إتقانه للغة العربية وقوة سليقته وقدرته على إقامة علاقات مع كافة أوساط المجتمع -بدءًا من الملك حتى التاجر البسيط- لأمكنه والحرب على الأبواب أن يكفل لنفسه أقصى درجة ممكنة من العلاقات الطيبة مع دول هذه المنطقة ذات الأهمية الكبرى.

وبعد سحب تيورياقولوف وإعادة تعيين حكيموف خلفا له استمرت العلاقات السوفيتية السعودية فترة قصيرة، إلا أن المندوب الجديد قد لاقى مصير سلفه نفسه، حيث تم استدعاؤه إلى موسكو في السادس من سبتمبر عام ١٩٣٧م وإدانته وإعدامه استنادا إلى وشاية وشى بها أحد أعضاء البعثة، كما تعرضت زوجته وابنته للاضطهاد والنفي.

وبالطبع لم يكن الوضع الداخلي في الاتحاد السوفيتي في نهاية الثلاثينيات ليمر دون أن ينعكس على علاقاته مع المملكة العربية السعودية، فعمليات

الاضطهاد التي تعرض لها الدبلوماسيون لم تغب عن انتباه القيادة السعودية، إذ اهتز الملك آل سعود لمصير كلا الدبلوماسيين السوفيتيين اللذين كان يعرفهما جيدا، ورأت حاشيته حالة الغم التي انتابته من شدة التنكيل الذي تعرض له «الأخ نذير». وعلى كل حال فقد ألمح الملك من خلال القنوات الدبلوماسية أنه لا يرغب في رؤية المزيد من المندوبين السوفيت. وفي أبريل من عام ١٩٣٨م بعثت اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية السوفيتية بمذكرة للمملكة العربية السعودية، تعلن فيها أنه استنادا إلى عدم توافر الآمال في تحسين العلاقات السوفيتية السعودية في المستقبل المنظور قررت موسكو تجميد الاتصالات مع المملكة وإغلاق بعثتها في جدة. وفي الحادي عشر من سبتمبر من العام نفسه غادر آخر أعضاء البعثة السوفيتية أراضي المملكة العربية السعودية.

وأغلقت البعثة السوفيتية، وانخفض عدد الحجاج السوفيت إلى أدنى حد له، وانقطعت العلاقات بين البلدين. وتفيد بعض المعلومات بأن مفتاح مقر البعثة ظل محفوظا في بلدية جدة لسنوات طويلة، أما المبنى نفسه فقد ظل مهجورا. وبعد الحرب العالمية الثانية توطّدت مكانة الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط بدرجة كبيرة، إلا أن الإفراط في إضفاء الصبغة الأيديولوجية على السياسة الخارجية السوفيتية، ورهان موسكو على أنظمة «التوجه الاشتراكي»، وكذلك الطابع الإلحادي الحربي الذي كانت تتسم به للدولة السوفيتية، كل هذا حال دون إحياء العلاقات السوفيتية السعودية، واستمرت «القطيعة» بين البلدين حتى عام ١٩٩٠م.

الخاتمة

لم يكن نذير تيورياقولوف قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره عندما رحل عن دنيانا بصورة مأساوية بعد حياة ناصعة حافلة بالأحداث العاصفة والعمل المضني، وقد راح ضحية لأعمال الاضطهاد التي شهدتها الثلاثينيات، شأنه شأن آلاف مؤلفة من رجال الدولة والقادة العسكريين والعلماء والدبلوماسيين السوفيت وعدد هائل ممن سطع نجمهم في السنوات الأولى بعد الثورة وأرسلتهم السلطة إلى أصعب ميادين النضال السياسي والاقتصادي من أجل بناء الاشتراكية، ثم داست على كفاحهم وحياتهم بلا رحمة.

لقد نشأ في كنف والده التاجر الكازاخي، ولكنه لم يرغب في أن يعيش في جلباب أبيه، فتلقى حظا من التعليم في تخصصات مختلفة، وأثبت مكانته في العمل الدبلوماسي وأجهزة الدولة وفي مجال الصحافة وميدان اللسانيات. كان رجلاً عالي الثقافة واسع الاطلاع، يتقن عدة لغات، فكان دبلوماسيا بالفطرة وكنزًا لا يقدر بثمن بالنسبة للجنة الشؤون الخارجية بالدولة السوفيتية الشابة التي كانت على بداية الطريق نحو إقامة علاقات مع العالم الخارجي، فمعرفته بعادات الشرق الإسلامي ودقائق أموره، وقدرته على التحاور في مختلف الموضوعات بدءًا من السياسة والاقتصاد وانتهاءً بالعلوم،

والتزامه الكامل وقت الضرورة بتعاليم الإسلام. كل ذلك فتح له أبواب وقلوب حكام المملكة، بل وبسطاء مواطنيها.

كان يحظى عن جدارة باحترام زملائه الدبلوماسيين، وكانت قيادة اللجنة الشعبية للشؤون الخارجية تستمع لرأيه، والجميع يحاولون اتباع نصائحه وتوصياته، ولم يكن ذنبه أن الكثير مما تمكن من عمله كمندوب مفوض لدى المملكة العربية السعودية وأعد الساحة له بمهارة بقي دون تنفيذ. فبمعايير ذلك الوقت كان مجرد التلميح كافيا لكي يساء تفسير أنبل التصرفات وأفضل الأفكار التي يقدمها هذا الدبلوماسي الموهوب. والآن من الصعب أن نتوصل إلى السبب الحقيقي وراء النقمة التي تعرض لها المندوب المفوض نذير تيورياقولوف رغم عمله المثمر في الدولة السعودية، ومن الصعب أن يتضح بصورة كاملة ما الشيء الذي تصور بعض الناس أنه يمثل خطرا بل وإجراما في نشاطه. ولكن أغلب الظن أن عمله الفاعل الذي كان يلقى تقديرا واجبا من قبل رؤسائه قد أثار الحقد لدى زملائه الأقل منه نجاحا.

لقد ظل نذير تيورياقولوف على مدار الأعوام الثماني من العمل الدبلوماسي المتفاني يسعى نحو تهيئة المناخ لأقصى درجة للتواجد السوفيتي في المملكة العربية السعودية، فما فتئ يدافع عن مصالح بلاده، ويبرع في تسوية العلاقات السياسية، ويعمل في إصرار على تنمية العلاقات التجارية، ويرتب شؤون البعثة، ويكافح من أجل زعامة السلك الدبلوماسي. كل ذلك يجعلنا نحس بالمرارة حين نعرف أن استقالة هذا الرجل الفذ، والدبلوماسي الأمين المخلص لوطنه، والمواطن الحق، ثم التنكيل به بعد ذلك شر تنكيل قد

أغلق أمام الاتحاد السوفيتي -لنحو نصف قرن- الطريق إلى واحدة من أغنى دول المنطقة وأكثرها نفوذا في الوقت الراهن، رغم أنه كان بإمكان السوفيت أن يثبّتوا أقدامهم في هذه الدولة بقوة ولفترة طويلة بفضل جهود نذير تيورياقولوف.

ونود لو أننا بهذا الكتاب، وكذلك الكتابين اللذين صدرا قبله حول النشاط الدبلوماسي لتيورياقولوف، نخلّد ذكرى رجل عظيم وخبير محترف هو المندوب المفوض نذير تيورياقولوف الذي ردّت له الدولة اعتباره. أمّا نحن فنعطيه حقه بصفته سياسياً، ودبلوماسياً، ومواطناً، ستظل أهدافه النبيلة وخدماته الجليلة للوطن محفورة في وجدان الشعب إلى الأبد.



الوثائق المصورة
والمواد الأرشيفية



نذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض لدى المملكة العربية السعودية



الدبلوماسيون الأجانب المعتمدون في جدة مع نجل الملك الأمير فيصل، عام ١٩٢٩م
الترتيب من اليسار: فؤاد حمزة وزير خارجية مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها بالإنابة، لاري أفندي القنصل الفارسي، شوكت بيه القائم بأعمال البعثة التركية، نذير تيورياقولوف المندوب المفوض للاتحاد السوفيتي، الأمير فيصل، بوند الوكيل الدبلوماسي والقنصل العام البريطاني، روجيه ميغريه الوكيل الدبلوماسي الفرنسي، سولاتسيو القنصل الإيطالي



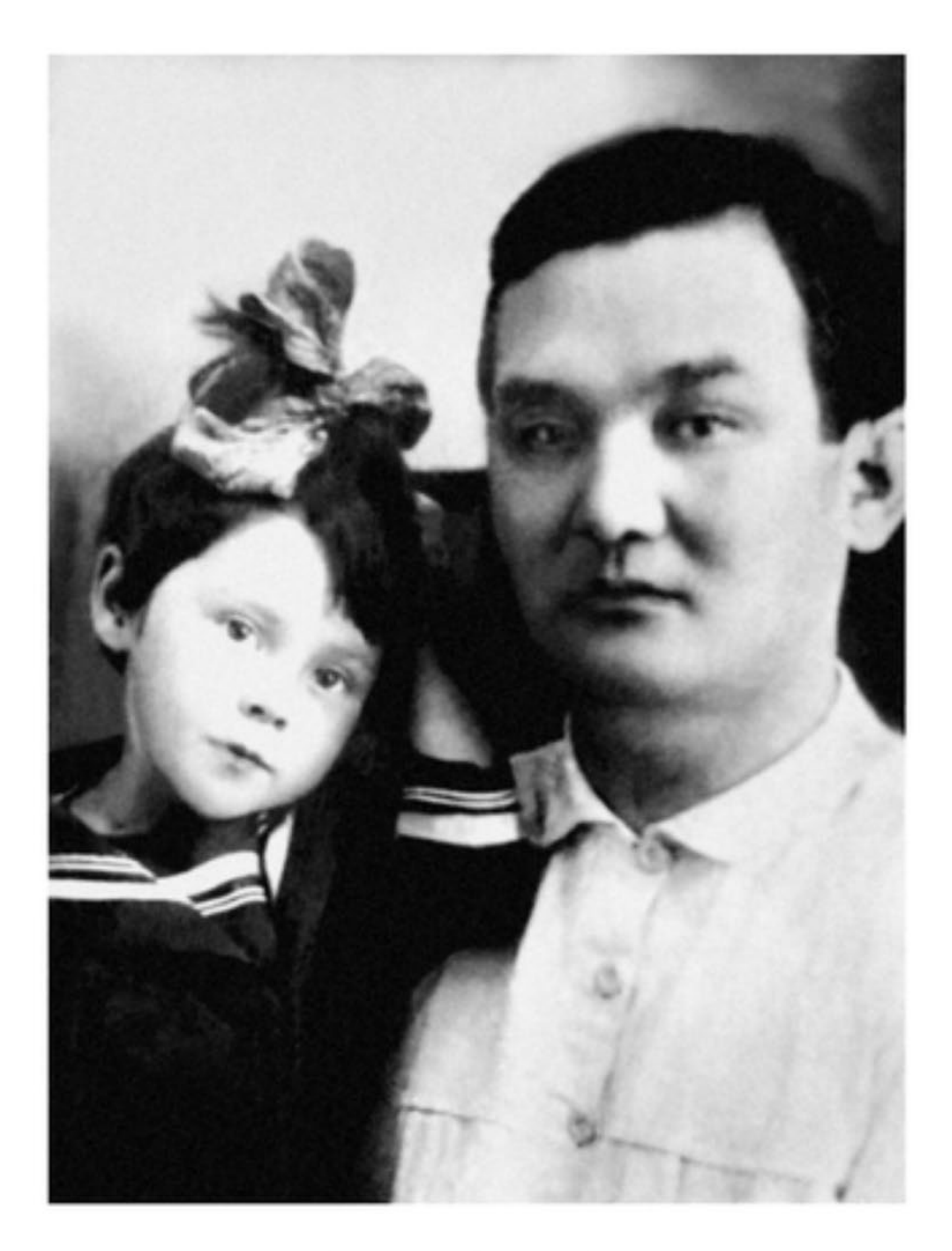
الأمير فيصل في لينينغراد برفقة فوروشيلوف وعدد من المسؤولين



الأمير فيصل في محطة بيلاروسكي للسكك الحديدية لدى وصوله إلى موسكو في زيارة رسمية، برفقة كريستينسكي رئيس لجنة الشؤون الخارجية السوفيتية بالإنابة وعدد من المسؤولين. موسكو، عام ١٩٣٢م



استقبال الأمير فيصل في محطة بيلاروسكي للسكك الحديدية. موسكو، عام ١٩٣٢م



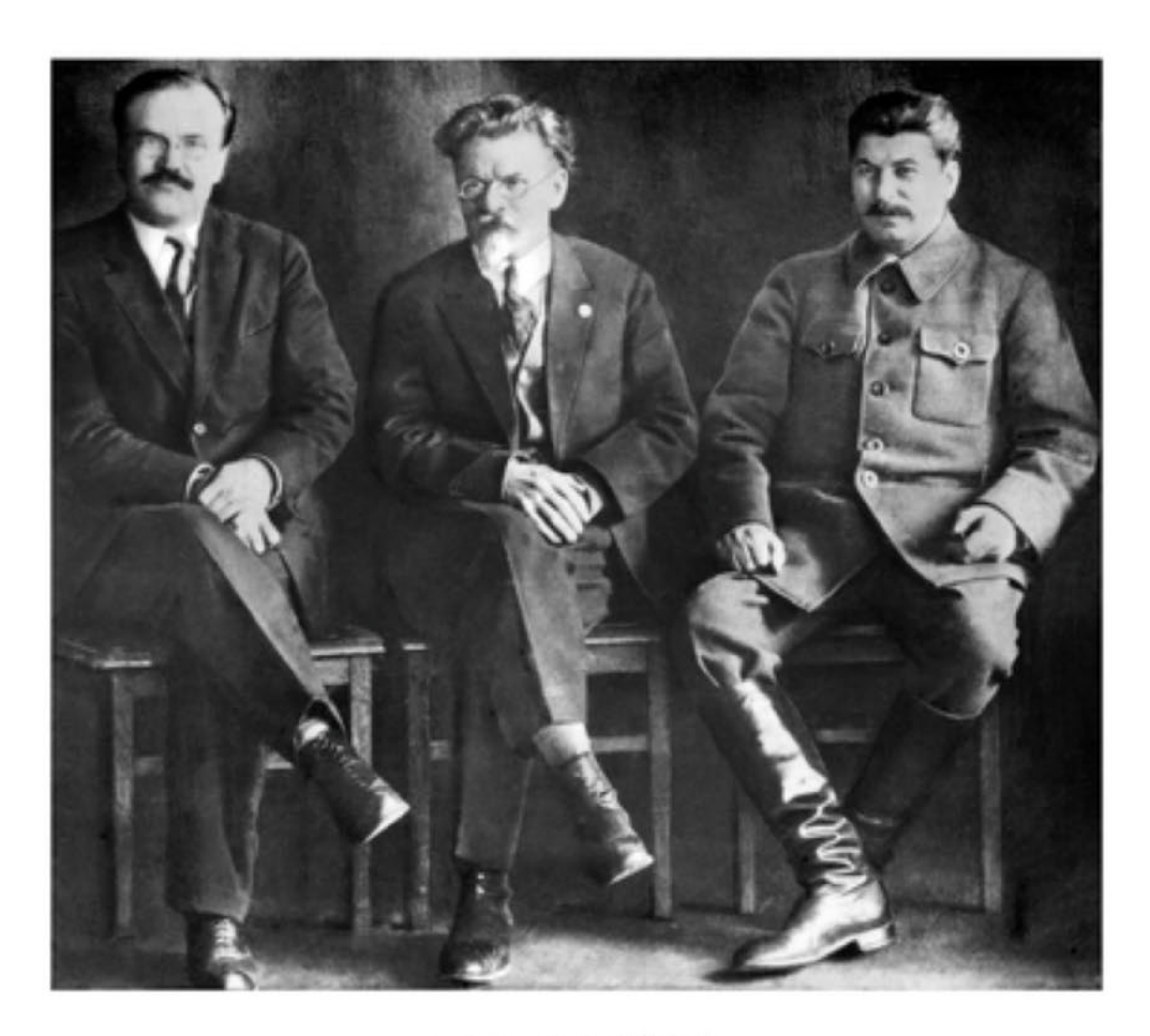
نذير تيورياقولوف مع ابنته آنيل



نذير تيورياقولوف بعد عودته من المملكة العربية السعودية مباشرة. عام ١٩٣٦م



نذير تيورياقولوف والأمير فيصل



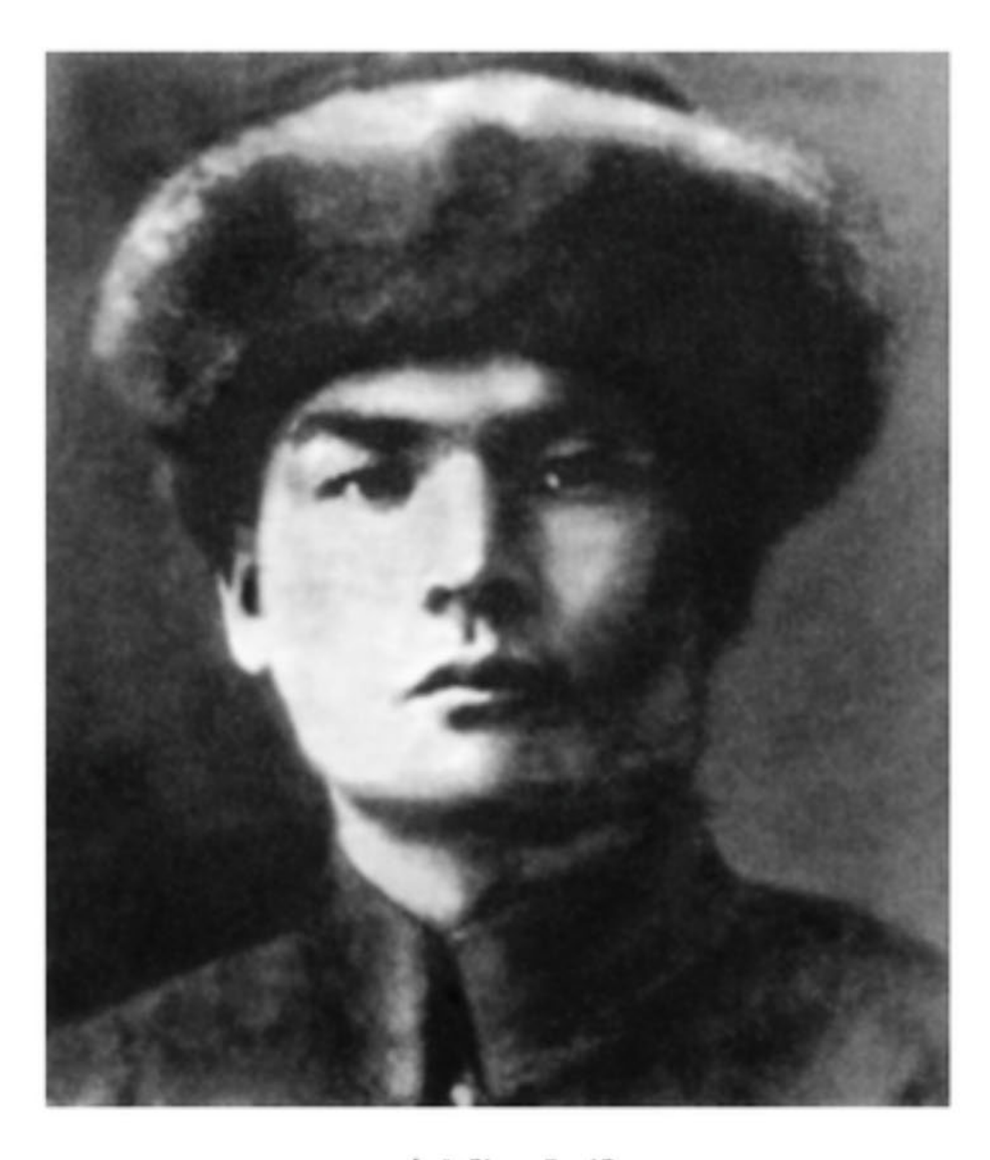
قادة الاتحاد السوفيتي:
من اليمين إلى اليسار: جوزيف ستالين، وميخائيل كالينين، وفيتشيسلاف مولوتوف، ١٩٢٩م.



م.ليتفنوف وزير الدولة للشؤون الخارجية للاتحاد السوفيتي
(١٩٣٠-١٩٣٩م)



سيرجو أورجينيكدزي
وزير الدولة لشؤون الصناعات الثقيلة



قادر تيورياقولوف
الأخ الصغير للسفير نذير تيورياقولوف
شارك في الحرب الأهلية في جمهورية تركستان، توفي عام ١٩٦٠م



الملك عبدالعزيز -رحمه الله-



الملك سعود -رحمه الله-



الملك فيصل -رحمه الله-



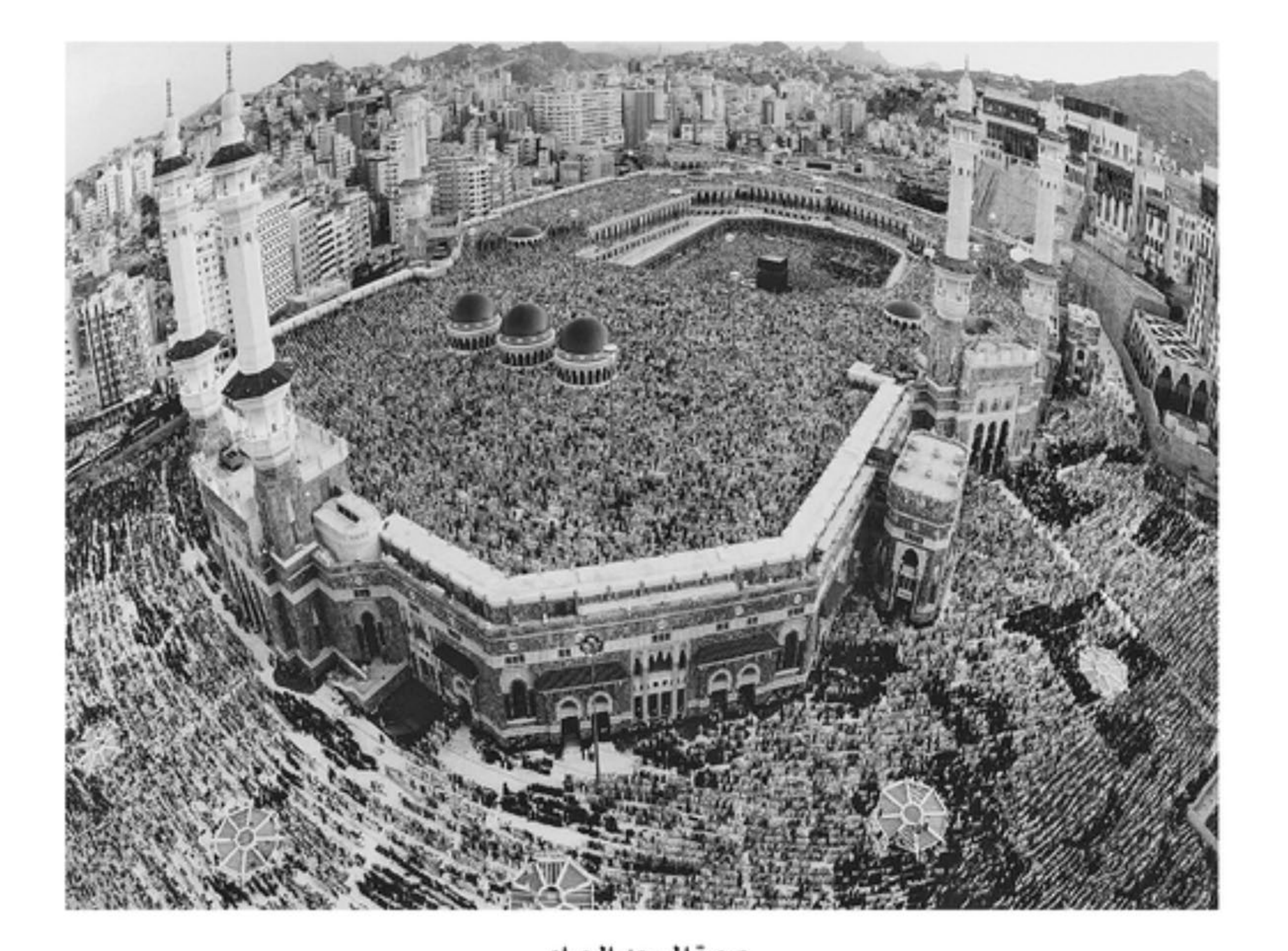
المدرسون والمتخرجون من كلية التجارة في مدينة قوقند، وتظهر صورة السفير نذير تيورياقولوف في اليسار من الصف الأول



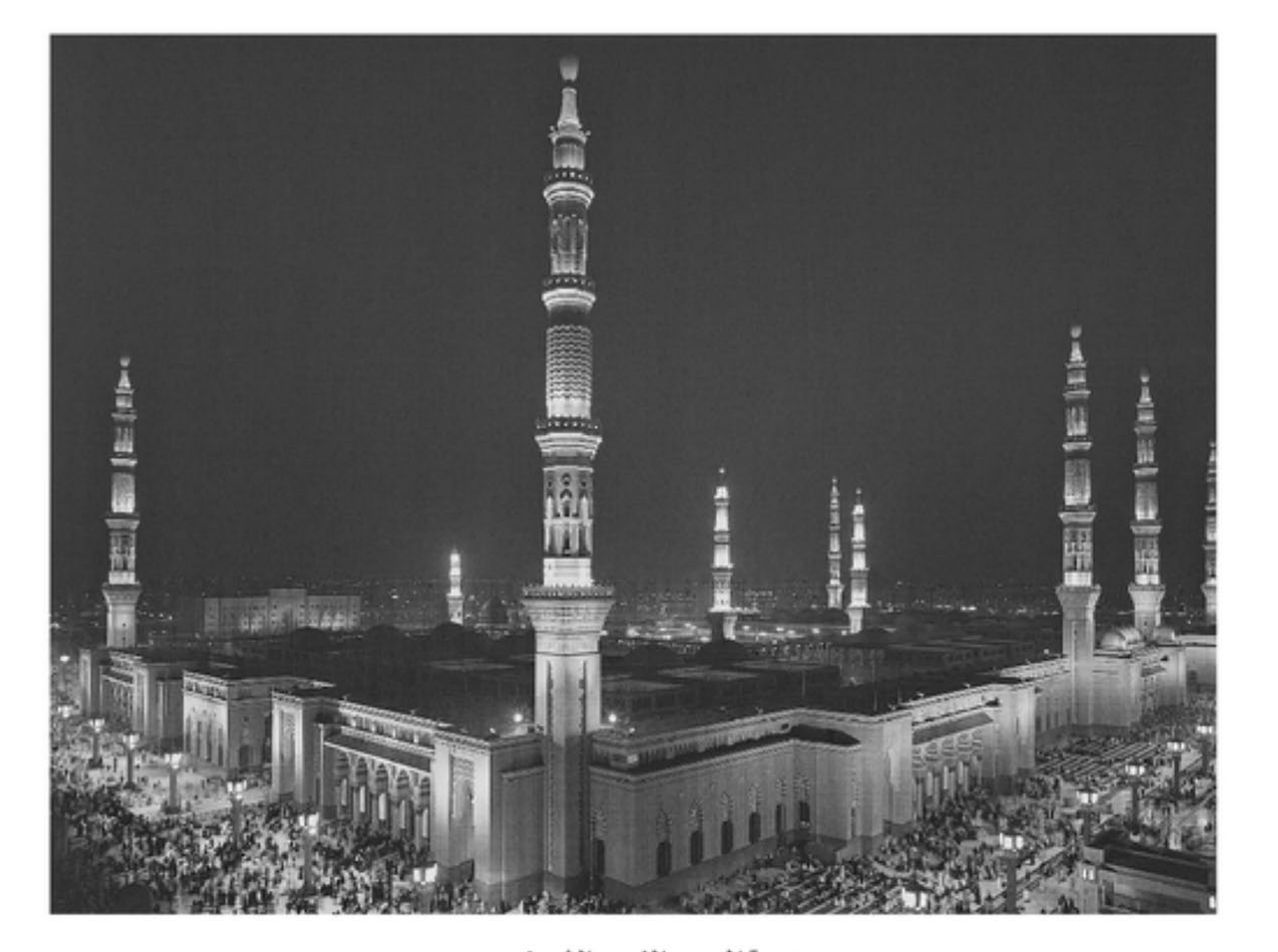
محادثات ممثلين عن روسيا الاتحادية وجمهورية تركستان مع زعماء البشمركة



صورة السفير نذير تيورياقولوف أثناء سجنه في الاتحاد السوفيتي



صورة المسجد الحرام



صورة المسجد النبوي الشريف



صورة مدينة الرياض الحديثة

المخطوطات

В КРУГОВУЮ. Пр. СНК СССР №834 п.17

ПОСТАНОВЛЕНИЕ
ПРЕЗИДИУМА ЦЕНТРАЛЬНОГО ИСПОЛНИТЕЛЬНОГО КОМИТЕТА
СОЮЗА С.С.Р.-

О назначении т. ТЮРЯКУЛОВА Н.Т. Полномочным Представителем Союза ССР в Геджасе.-

Президиум Центрального Исполнительного Комитета Союза ССР ПОСТАНОВЛЯЕТ:

Назначить т. ТЮРЯКУЛОВА, Надира Тюрякуловича полномочным представителем Союза Советских Социалистических Республик в Геджасе.-

ПРЕДСЕДАТЕЛЬ ЦЕНТРАЛЬНОГО
ИСПОЛНИТЕЛЬНОГО КОМИТЕТА СОЮЗА ССР -

СЕКРЕТАРЬ ЦЕНТРАЛЬНОГО
ИСПОЛНИТЕЛЬНОГО КОМИТЕТА СОЮЗА ССР -

ПРЕДСЕДАТЕЛЬ СОВЕТА
НАРОДНЫХ КОМИССАРОВ СОЮЗА ССР -

УПРАВДЕЛАМИ СОВЕТА НАРОД -
НЫХ КОМИССАРОВ СССР и С Т О -

СЕКРЕТАРЬ СОВЕТА
НАРОДНЫХ КОМИССАРОВ СОЮЗА ССР -

Мск.Кремль.
29 XI-1927г.

(просьба расписываться на-обороте)

صورة لقرار مجلس اللجنة التنفيذية المركزية بتعيين السفير نذير تيور ياقولوف مندوباً مفوضاً في المملكة

Речь, произнесенная тов. Тюрякуловым при вручении верительных грамот 3 октября 1928 года.

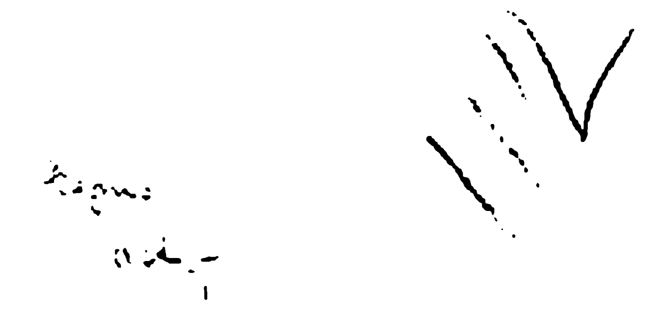
Ваше Королевское Высочество,

Имею честь представить в лице Вашего Королевского Высочества Его Королевскому Величеству королю Геджаза, Неджда и Присоединенных Областей свои верительные грамоты, которыми председатель Центрального Исполнительного Комитета СССР уполномочивает меня дипломатическим агентом и генконсулом СССР.

Идя по стопам своего предшественника я буду всемерно стремиться к развитию тех дружественных отношений, которые так счастливо установились между королевством Геджасом, Неджадом и Присоед. Областей с одной стороны и СССР – с другой.

При выполнении моих обязанностей возложенных на меня моим правительством я буду рассчитывать на сочувствие и поддержку Его Королевского Величества. Я надеюсь пользоваться тем же доверием, каким пользовался мой предшественник.

Позвольте выразить уверенность, что связи и отношения будут развиваться в интересах обоих стран.



كلمة السفير نذير تيورياقولوف اثناء تقديم أوراق اعتماده للملك عبدالعزيز
٣٠/١٠/١٩٢٨م





عدد ٦١/٧

في ٢٦ جماد الثاني سنة ١٣٤٧

من عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل فيصل ملك الحجاز ونجد وملحقاتها الى صاحب الفخامة رئيس اللجنة التنفيذية المركزية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية

يا صاحب الفخامة . لقد كان من دواعي سرورنا ان نتلقى كتابكم المؤرخ في ايلول ١٩٢٨ والذي تخبرونا به عن رغبة حكومتكم الفخيمة في تمتين العلاقات الودية التي لا تزال قائمة بين بلادينا . اقتضت تعيين سعادة نذير تورياكولوف معتمدا سياسيا وقنصلا جنرالا لديها انه نظرا لتغيبنا في ما صدر من تعيينه به فقد تفضل ولدنا ونائبنا في الحجاز فيصل بقبول حضرة معتمدكم ونحب ان تكونوا على ثقة انه سيلقى منا ومن رجال حكومتنا كل رعاية وترحيب مماثلة رغبة في تحسين العلاقات الودية الحسنة بين البلادين وانه ليسرنا ان نغتنم هذه الفرصة لنعرب لكم عن تمنياتنا في ان تكونوا وشعب حكومتكم الفخيمة على احسن ما يكون من الرفاه والسعادة.

رسالة جوابية من الملك عبدالعزيز إلى اللجنة التنفيذية للاتحاد السوفيتي
بعد تعيين السفير نذير تيور ياقولوف معتمداً سياسياً وقنصلاً

Вручение Полномочным Министром СССР свои грамоты.

26 февраля вечером в Мекке Советский Полномочный Министр и Чрезвычайный Посланник вручил свои грамоты наместнику короля эмиру Фейсалу. Стороны обменялись следующими речами:

Речь Полпреда.

Ваше Высочество,

Центральный Исполнительный Комитет оказал мне честь и возложил на меня ответственную миссию назначением меня Полномочным Министром и Чрезвычайным Посланником при особе Его Величества Короля Геджаса Неджда и присоединенных областей-Абдул Азиза Ибн Абдурахмана Аль - Фейсала Альсауда.

Целью настоящего назначения является укрепление и усиление дружественных отношений установленных к взаимному удовлетворению обеих сторон между двумя странами.

Я приложу все свои силы для осуществления этой задачи опираясь на высокие симпатии и благосклонные отношения , которых я удостоился со стороны Его Королевского Величества, со стороны Вашего Высочества, а также государственных деятелей со времени моего прибытия в эту страну. Я надеюсь, что встречу те же симпатии и то же отношение в своей новой деятельности.

Я прошу Ваше Высочество соблаговолить передать Его Королевскому Величеству мои симпатии и добрые пожелания Его Величеству членам королевского дома и стране.

Я прошу Ваше Высочество передать Его Величеству и его благородному народу добрые пожелания Председателя ЦИК СССР.

Позвольте представить Вашему Высочеству мои верительные грамоты, которыми я назначен с новой миссией и просить Ваше Высочество принять выражение моего глубокого к Вам уважения.

كلمة السفير نذير تيورياقولوف اثناء تقديم اوراق اعتماده للملك عبدالعزيز رحمه الله
في ٢٦/٢/١٩٣٠م

ОТВЕТНАЯ РЕЧЬ ЭМИРА ФЕЙСАЛА

Господин Полномочный Министр и Чрезвычайный Посланник,

Я рад принять именем Его Величества Ваши верительные грамоты, которые соблаговолили (приложить) господин Председатель ЦИК СССР и которыми Вы назначены Полномочным Министром и Чрезвычайным Посланником при особе Его Величества Короля Геджаса Неджда и присоединенных областей.

Те благородные симпатии, на которые Вы изволили указать и те добрые пожелания, которыми Вы выразили стремление к продолжению дружественных и лучших отношений и укреплению их, являются для нас общими чувствами.

Я не сомневаюсь, что сегодня Мы открываем новую эпоху в отношениях наших стран и этим закладывается прочный фундамент дружбы между ними.

Я уверен, что при выполнении возложенной на Вас задачи Вы будете встречать со стороны Его Королевского Величества благосклонное отношение и всяческое содействие, а со стороны моей и государственных деятелей - действительное желание помочь Вам во всем , что способствует укреплению дружественных отношений между обеими странами.

С этими чувствами принимаю от имени Его Величества, моего Великого отца Ваши верительные грамоты и прошу Вас соблаговолить передать высокие приветствия и добрые пожелания Его Превосходительству господину Председателю ЦИК СССР и его благородной нации от имени Его Королевского Величества и его народа.

Я желаю Вам успеха в Вашей деятельности.

Уммуль-Кура 17 февраля 1930г.

29 Рамазана 1348г.

كلمة الأمير فيصل بعد تقديم السفير نذير تيورياقولوف أوراق اعتماده للأمير فيصل نيابة عن والده الملك عبدالعزيز -رحمه الله- في ٢٧/٢/١٩٣٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ،

ملك الحجاز و نجد و ملحقاتها ،

الى حضرة صاحب الفخامة ٠ كالينين ،

رئيس اللجنة التنفيذية لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية الافخم ،

ياصاحب الفخامة ٠

ان من دواعي سرورنا وابتهاجنا ان نتلقى كتابكم الكريم الذى اطلعتمونا فيه بتعيينكم للرفيق نذير توره قولوف لوظيفة وزير مفوض ومندوب فوق العادة تجاه حكومتنا ونظرا لتفهيمنا في ديارنا النجدية فقد تقبل ولدنا ونائبنا في الحجاز (فيصل) اوراق اعتماد المذكور بالنيابة عنا ، ونحب ان تكونوا على ثقة من ان الوزير المفوض والمندوب فوق العادة المشار اليه سيلقى منا ومن رجال حكومتنا كل رعاية وحسن معاملة ، كما انه سيرى ان الرغبة في تحسين العلائق الودية الحسنة القائمة لحسن الحظ بين البلادين هي رغبة مشتركة نقابلها بالسرور والابتهاج ٠

وانه ليسرنا ان نعرب لفخامتكم عن تمنياتنا الطيبة لدوام رفاهكم ورفاه الامة السوفيتية النبيلة ٠

حرر في قصرنا في هذا اليوم العاشر من شهر شوال سنة الف وثلاثمائة وثمانية واربعين الموافق لليوم العاشر من شهر مارس سنة ١٩٣٠

عبد العزيز

السعود

[ختم]

رسالة الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى رئيس اللجنة التنفيذية بعد قبول أوراق اعتماد السفير نذير تيورياقولوف ١٩٣٠/٣/١٠م.



№ 31

ПРОТОКОЛ

ЗАСЕДАНИЯ ПРЕЗИДИУМА ЦЕНТРАЛЬНОГО ИСПОЛНИТЕЛЬНОГО КОМИТЕТА СОЮЗА ССР

ПРОТОКОЛ ЗАСІДАННЯ ПРЕЗИДІЇ ЦВК СОЮЗУ РСР 7-го СКЛИКАННЯ
ПРАТАКОЛ ПАСЯДЖЭНЬНЯ ПРЭЗЫДЫУМУ ЦВК САЮЗУ ССР 7-га СКЛІКАНЬНЯ
ოქმი სსრ კავშირის მე-7 მოწვევის ცაკ-ის პრეზიდიუმის სხდომისა
ԽՍՀ ՄԻՈՒԹՅԱՆ 7-ՐԴ ԶՐԱՎԵՐԻ ԿԳԿ ՆԱԽԱԳԱՀՈՒԹՅԱՆ ՆԻՍՏԻ ԱՐՁԱՆԱԳՐՈՒԹՅՈՒՆ
SSC ITTIFAQЬ 7-cь ÇAQЬRЬŞ MIK PREZIDIYMY ICLASЬNЬN PROTOKOLY
پرالاکول مجلس هئیت ریاست دعوت ۷ ك. ا. م. اتفاق ج. ش. س.

3 января 1936 года.

Председательствовал тов. Червяков А. Г.

Присутствовали: Председатели ЦИК Союза ССР тт. Мусабеков Г., Рахимбаев А. Р.

Члены Президиума: тт. Акулов И. А., Атабаев К. С., Вейнберг Г. Д., Ворошилов К. Е., Каганович А. М., Киселев А. С., Николаева К. Н., Сталин И. В., Уншлихт И. С., Хацкевич А. И., Чубарь В. Я., Чуцкаев С. Е.

Председатель СНК Союза ССР . . . . т. Молотов В. М.
Нарком тяжелой промышленности . . . . т. Орджоникидзе Г. К.
Нарком пищевой промышленности . . . . т. Микоян А. И.
Секретарь ЦК ВКП(б) . . . . т. Андреев А. А.

Об освобождении т. Тюрякулова Н. Т. от обязанностей полпреда Союза ССР в Геджасе.

(Вн. СНК Союза ССР).

Дело № пр. 823/2.

Освободить т. Тюрякулова Назира Тюрякуловича от обязанностей полномочного представителя Союза ССР в Геджасе.

محضر جلسة اللجنة التنفيذية للاتحاد السوفيتي ١٩٣٦/١/٣م التي اقيل فيها السفير نذير تيورياقولوف من منصبه مندوباً مفوضاً

Перевод с арабского

Во имя Бога, Милосердного, Милостивого,

от Абдул-Азиза Бин Абдур-Рахман Аль-Фейсал Аль Сауда
короля Арабского Саудского государства.

Его Превосходительству Председателю ЦИК СССР.

Ваше Превосходительство,

Мы с удовлетворением получили письмо Вашего Превосходительства, в котором соизволили сообщить нам о переводе Его Превосходительства Назира Тюрькулова на другую работу и в этой связи выражаем Вашему Превосходительству наше удовлетворение тем усилиям, которые были приложены указанным Вашим Полномочным Министром для развития дружественных связей и добрых отношений, которые к нашему общему удовлетворению существуют между обеими нашими странами. Его деятельность оставила хорошие результаты.

Пользуемся этим случаем для того, чтобы выразить Вам наши искренние пожелания личного благополучия и благоденствия Вашего правительства и Вашего народа.

Учинено в нашем дворце в Мекке 15 Зильгиджа 1354 года Хеджры.

(Подпись) Абдул Азис Аль Сауда.

Перевел Н.Т.

رسالة الملك عبدالعزيز رحمه الله إلى رئيس اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي بعد إقالة السفير نذير تيورياقولوف.

ЦК ВКП(б)
Отдел руководящих парторганов
[illegible]
1936 г.

Регистрационный бланк члена ВКП(б)

Регистрационный № [illegible]

Регистрационный номер № 0603113

Заключение секретаря райкома, горкома о выдаче партбилета нового образца: 6

Секретарь РК, ГК ________

____ 193_ г.

Первичная парторганизация [illegible]

Район, город

Область, край, республика

1. Фамилия [illegible]

имя [illegible] отчество [illegible]

2. Пол муж. 3. Год рождения 1892 4. Национальность [illegible]

5. Родной язык [illegible] 6. Социальное положение [illegible]

7. Занятия родителей а) до 1917 г. [illegible] б) после 1917 г. [illegible]

8. Время вступления а) в кандидаты [illegible] б) в члены ВКП(б) [illegible]

9. Пребывание в ВЛКСМ с [illegible] по [illegible] 10. Образование [illegible]

11. Основная профессия и специальность а) по образованию [illegible] стаж [illegible] б) по опыту работы [illegible] стаж [illegible] лет

12. Род занятий с начала трудовой деятельности

С какого времени (мес., год)	По какое время (мес., год)	Название местности (город, район, обл., край, республика)	Название предприятия, учреждения	Род занятий или должность
[illegible]-1916	[illegible]-17	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1917	[illegible]-17	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1917	[illegible]-17	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1917	[illegible]-17	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1917	[illegible]-18	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1918	[illegible]-18	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1918	[illegible]-19	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1919	[illegible]-20	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1920	[illegible]-20	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1920	[illegible]-20	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1920	[illegible]-21	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1921	[illegible]-21	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1921	[illegible]-22	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1922	[illegible]-23	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1923	[illegible]-[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1923	[illegible]-[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

استمارة تسجيل تنير تيورياقولوف في الحزب الشيوعي

12. [illegible] [illegible]

13

14. [illegible] СССР [illegible] [illegible]

15. [illegible] [illegible]

16. [illegible]

17. [illegible]

18. [illegible] ВКП(б) [illegible]

19. [illegible]

20. [illegible]

21. [illegible]

22. [illegible]

23. [illegible]

[illegible] ВКП(б) [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] 15 [illegible]

تتمة استمارة التسجيل في الحزب الشيوعي

ЦК ВКП(б)
Отдел руководящих партorганов
[illegible]
1936 г.

Регистрационный бланк члена ВКП(б)

Партбилет № 1279025

Партбилет № 0607113

Первичная парторганизация: 1ю Дома Советов
Район, город: Ленинский район г. Москвы
Область, край, республика: Московская область
1. Фамилия: Тюрякулов
Имя: Назир Отчество: Тюрякулович
2. Пол: муж. Год рождения: 1892 Национальность: Казах
Родной язык: [illegible] Социальное положение: [illegible]

Заключение секретаря райкома, горкома [illegible]: [illegible]

Секретарь РК, ГК [illegible]

10. [illegible]

7. Занятие родителей: а) до 1917 г. Отец домовладелец [illegible]; б) после 1917 г. Отец домовладелец [illegible] 1918 г.

8. Время вступления в ВКП(б): а) в ВЛКСМ: не состоял; б) в члены ВКП(б): Октябрь 1918 г. [illegible] г. Коканд – Туркестан

9. Пребывание в ВЛКСМ: не состоял

10. Образование: Окончил 2х годичную школу [illegible] г. Коканд в 1905 г. Окончил 8ми классное Коммерческое училище г. Коканд в 1914 г. 2 курса Московского Коммерческого института в 1916 г.

11. Основная профессия и специальность: а) по образованию: не имеет; б) по опыту работы: журналист. Стаж 18 лет

12. Род занятий с начала трудовой деятельности

С какого времени (мес. год)	По какое время (мес. год)	Название местности	Название предприятия, учреждения	Род занятий или должность
X-1916	X-1917	г. Минск	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1917	[illegible]-1917	г. Коканд-Туркестан	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1917	[illegible]-1918	г. Оренбург	[illegible]	
[illegible]-1918	[illegible]-1918	г. Коканд	„[illegible]“ Совдеп	Редактор. [illegible]
[illegible]-1918	V-1919	г. Скобелево-Туркестан	Областной Ревком	[illegible]
V-1919	[illegible]-1919	г. Ташкент	[illegible]	[illegible]
[illegible]-1919	[illegible]-1920	г. Ташкент	[illegible] Туркестанского [illegible]	[illegible]
[illegible]-1920	[illegible]-1920	г. Ташкент	Наркомпрос	[illegible]
[illegible]-1920	[illegible]-1921	г. Ташкент	Ц.К. Компартии Туркестана	[illegible]
[illegible] 1921	[illegible]-1922	г. Ташкент	ЦИК Туркестана	Председатель
[illegible]-1922	[illegible]-1928	г. Москва	[illegible] ЦИК СССР	Председатель [illegible]
[illegible]-1928	[illegible]-193[illegible]	г. Джидда (Аравия)	[illegible] СССР	Полпред

استمارة ثانية بتاريخ مختلف لتسجيل السفير نذير تيورياقولوف في الحزب الشيوعي

Отдел руководящих парторганов
Обмен партдокументов
1936 г.

Регистрационный бланк члена ВКП(б)

Партбилет нового образца № 1279025

Партбилет старого образца № 0607113

Заключение секретаря райкома, горкома о выдаче партбилета нового образца:

Первичная парторганизация 1 Дома Советов

Районы, горком

Область, край, республика

1. Фамилия Тюрякулов

Имя Назир отчество Тюрякулович

Секретарь РК, ГК

2. Пол 3. Год рождения 4. Национальность

« » 1936 г.

5. Родной язык 6. Социальное положение

7. Занятие родителей а) до 1917 г. б) после 1917 г.

8. Время вступления в ВКП(б) а) в кандидаты (м-ц, год и название парторганизации, принявшей в кандидаты) б) в члены ВКП(б) (м-ц, год и название парторганизации, принявшей в члены ВКП(б))

9. Пребывание в ВЛКСМ с ... по ... 10. Образование — в каких учебных заведениях учился, как и когда, окончил ли

11. Основная профессия и специальность а) по образованию стаж лет б) по опыту работы стаж лет

12. Род занятий с начала трудовой деятельности:

С какого времени (м-ц, год)	По какое время (м-ц, год)	Название местности (село, город, район, обл., край, республика)	Название предприятия, учреждения	Род занятий или должность
XII-1935	VI-1936	г. Москва	НКИД	в резерве
VI-1936	I-1937	г. Москва	[illegible]	в резерве

Для 1 2 3 4 5 6 7

استمارة ثالثة بتاريخ مختلف لتسجيل السفير نذير تيورياقولوف في الحزب الشيوعي

14. Имеет ли ученые труды и изобретения (какие и к какому времени относятся) не имею

14. Какими языками (иностранными и народов СССР) свободно владеет *Русским, Казахским, Татарским, Арабским, Турецким, Французским*

15. В каких выборных партийных органах (районных, окружных, губернских, областных, краевых, республиканских, союзных) состоял, состоит, когда, где
Состоял Секретарь ЦК компартии Туркестана п-1920-г. 1921 г.

16. Какие имеет награды союзного и республиканского значения (за что, кем и когда выданы) *Не имею*

17. Состоял ли в фракционных группировках (каких, когда, где) *Не состоял*

18. Состоял ли в ВКП(б) раньше (когда, где, причины выбытия) *Не состоял.*

19. Состоял ли в других партиях (каких, когда, где) *Состоял в партии левых эсеров в 1917 по 1918 г. в гор. Коканде*

20. Участвовал ли в оппозициях и антипартийных группировках (каких, когда, где) *Не участвовал*

21. Служил ли в армиях и отрядах, боровшихся против советской власти (каких, когда, где и в качестве кого) *Не служил*

22. Привлекался ли к уголовной ответственности органами советской власти (когда, за что, к чему приговорен) *Не привлекался*

23. Имеет ли партвзыскания (какие, за что, когда и кем наложены) *Выговор за халатное отношение к оформлению своего партийного положения 15/II-1927 ЦКК*

Турякулов

Подпись члена ВКП(б) *Н. Турякулов* Подпись регистратора *[signature]*

Бланк составлен « » 193_ г.

تتمة الاستمارة السابقة

С. С. С. Р.

'АРОДНЫЙ КОМИССАРИАТ ВНУТРЕННИХ ДЕЛ

ГЛАВНОЕ УПРАВЛЕНИЕ ГОСУДАРСТВЕННОЙ БЕЗОПАСНОСТИ

ОРДЕР № 2891

Июля 15 дня 1937 г.

Выдан

Главного

правления Государственной Безопасности НКВД

ов. на производство

Ареста и обыска

Тюрякулова

Назира

дрес ул. Серафимовича д. 2 кв. 309

Зам. Народного Комиссара Внутренних Дел СССР
Комиссар
Государственной Безопасности 1-го ранга [signature]

Место для печати

Начальник Второго Отдела ГУГБ
Комиссар
Государственной Безопасности 3-го ранга [signature]

равка: 82

مذكرة اعتقال السفير نذير تيورياقولوف

к делу № 10581

АНКЕТА АРЕСТОВАННОГО

1. Фамилия Тюрякулов МЯСНИКОВА
2. Имя и отчество Назир Тюрякулович
3. Дата рождения: число . месяц Октябрь 1895 год
4. Место рождения город Коканд, Ферганск. области, Узбекистан
5. Местожительство (адрес) Москва, I Дом Правительства, под. 16 кв. 309.
6. Профессия и специальность журналист
7. Место службы и должность или род занятий Центр. Научно-Исследоват. Институт Языка и Письменности при Совете Национальностей СССР.
(указать без сокращений, название предприятия или учреждения и характер производства)
8. Паспорт
(когда и каким органом выдан, номер и категория, где прописан)
9. Социальное происхождение отец — домовладелец и комиссионер, убит басмачами под Кокандом в 1918 году; мать — дом. хозяйка.
(род занятий родителей и их имущественное положение)
10. Социальное положение сов. служащий
(род занятий и имущественное положение арестованного)
а) до революции учился
б) после революции сов. служащий
11. Образование (общее и специальное) окончил 8 класс. Кокандск. Коммерческое Училище в 1914; ушел с III курса I. Московского Коммерческого Института (Экономическое Отд.)

استمارة السجين نذير تيورياقولوف

12. Партийность (в прошлом и в настоящем) Май – Сент. 1918 г. член парт. лев. с-эров; с Окт. 1918 года по настоящее время – член В

13. Национальность и гражданство (подданство). Казах, гражд. СССР

14. Категория воинского учета-запаса и где состоит на учете не состою.

15. Служба в белых и др. к.-р. армиях, участие в бандах и восстаниях против Сов. власти (когда и в качестве кого) нет

16. Каким репрессиям подвергался при Сов. власти: судимость, арест и др. (когда, каким органом и за что) нет

17. Состав семьи жена Нина Александровна Тюрякулова,
(близкие родственники, их имена, фамилии, адреса и род занятий)
ее мать Клавдия Артемьевна Салмина, брат жены Павел Александрович Салмин. Жена Н.А. Тюрякулова член ВКП(б), врач, работает в Центр. Туберкулезном Институте, ее брат – Павел Алекс. Салмин – студент [illegible] мать жены – дом. хозяйка.

Подпись арестованного Н. Тюрякулов

1. Особые внешние приметы

2. Кем и когда арестован

3. Где содержится под стражей

4. Особые замечания

Подпись сотрудника, заполнившего анкету

"......" .... 193 г.

Примечание. Анкета заполняется четко и разборчиво со слов арестованного и проверяется по документам.

تتمة الاستمارة السابقة

Дело № 1187

ıب٤

ПРИГОВОР

Именем Союза Советских Социалистических Республик

Военная Коллегия Верховного Суда Союза ССР

в составе:

Председательствующего- Корвоенюриста т. МАТУЛЕВИЧА

Членов: Бригвоенюристов т.т. ЗАРЯНОВА и СТЕЛЬМАХОВИЧА

При секретаре [illegible]

В закрытом судебном заседании, в городе Москве

„3" ноября 193 7 года

, рассмотрела дело

по обвинению: ТЮРЯКУЛОВА Назира Тюрякуловича, 1893 г.р., быв. ст. научного сотрудника ин-та языка и письменности при Совете Национальностей ЦИК СССР, - в преступлениях, предусмотренных ст.ст. 58-1а, ~~58-2~~, 58-8 и 58-11 УК РСФСР.

Предварительным и судебным следствием установлено, что Тюрякулов с 1931 года являлся активным участником антисоветской пантюркистской диверсионно-террористической организации, ставившей целью свержение Советской власти. В своей практической

الحكم القضائي بإعدام السفير نذير تيورياقولوف

в к.р. деятельности не сознался. Тюрякулов признал наличие связи с руководством к-р. организации Рыскуловым, по заданию которого в 1936 году установил связь с турецким разведчиком Мустафой Джевадом и [illegible] Тюрякулов вёл к.р. пантюркистскую агитацию и призывал к террористическим методам борьбы с руководителями Советской власти.

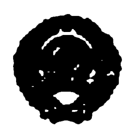
Признавая Тюрякулова виновным в совершении преступлений, предусмотренных ст. ст. 58-1"а", 58-8 и 58-11 УК РСФСР, Военная Коллегия Верховного Суда СССР приговорила:

Тюрякулова Назира Тюрякуловича к высшей мере уголовного наказания — расстрелу, с конфискацией всего лично ему принадлежащего имущества. Приговор окончательный и на основании постановления ЦИК СССР от 1 декабря 1934 г. подлежит немедленному исполнению.

Председательствующий [illegible]
Корвоенюрист [illegible]

Члены: Бригвоенюрист [illegible]
Бригвоенюрист [illegible]

Форма № 44



ВЕРХОВНЫЙ СУД СОЮЗА ССР

ОПРЕДЕЛЕНИЕ №4н-07430/57

ВОЕННАЯ КОЛЛЕГИЯ ВЕРХОВНОГО СУДА СССР

В составе: Председательствующего полковника юстиции Цырлинского

и членов: подполковника юстиции Боброва, майора юстиции Рыликова,

рассмотрела в заседании от 28 января 1958

заключение Главного военного прокурора по делу бывшего старшего научного сотрудника института языка и письменности при Совете национальностей ЦИК СССР

Тюрякулова Назира Тюрякуловича, 1893 года рождения, уроженца гор. Коканда, Уз. ССР, арестованного 15 июня 1937 года, осужденного 3 ноября 1937 года Военной Коллегией Верховного Суда СССР по ст. ст. 58-1а, 58-8 и 58-11 УК РСФСР к расстрелу с конфискацией имущества.

Заслушав доклад тов. Рыликова и заключение помощника Главного военного прокурора подполковника юстиции Бугаева,

установила:

По приговору Тюрякулов признан виновным в том, что он являлся участником антисоветской пантюркистской организации, а также вел шпионскую работу в пользу Турции.

В заключении прокурора предлагается приговор в отношении Тюрякулова отменить и дело прекратить за отсутствием состава

قرار المحكمة العليا تاريخ ١٩٥٨/١/٢٨م في الاتحاد السوفيتي أن قرار إعدام السفير نذير تيورياقولوف السابق كان خاطئا

прекращения в связи с тем, что материалами дополнительного расследования установлены новые обстоятельства, свидетельствующие о необоснованности осуждения Тюрякулова и доказывающие его невиновность.

Проверив материалы дела и дополнительного расследования и соглашаясь с заключением, Военная Коллегия Верховного Суда СССР

Определила:

Приговор Военной Коллегии Верховного Суда СССР от 3 ноября 1937 года в отношении Тюрякулова Назира Тюрякуловича по вновь открывшимся обстоятельствам отменить и дело о нем прекратить за отсутствием состава преступления.

Председательствующий [signature]

Члены: [signature]

[signature]

LT NO 6093—

В Центральную Комиссию
по проверке и чистке личного состава
Коммунистической Партии Туркестана

Члена Коммунистической Партии Туркестана
Назира Тюрякулова

Автобиография

Родился я в 1892 году в городе Коканде Ферганской области в состоятельной семье хлопкового коммерсанта.
В детстве получил весьма и весьма религиозное воспитание под руководством матери, по настоянию которой надо мною, когда 12 летним мальчиком в старой Бухаре над на могиле известного в мусульманском мире святого Бахауддина шейхами был произведен обряд зачисления меня в духовный [illegible] этого святого.
Начальное [illegible] образование получил в мектебе джадид (ново-методные, светские школы) впервые открытом в Коканде (1900 г.)
Первая (по своему уровню и [illegible] открытия) в Туркестане эта джадидская школа в лице со своими [illegible] и [illegible] учителем Салях-ад-Дином Маджитовым, [illegible] вложили всю свою энергию и все свои усилия к реализации своей цели (перед [illegible] –

администрацией и в среде патриархального и религиозного туземного общества) мало чем отличалась от старо методных школ. Во всем, начиная от битья и принудительного посещения нами школьниками мечети вместо изучения светских (развивающих) - за исключением разве только „географии", „Истории из жизни пророков и Ислама", „Шари- Шариату (учебника арабского языка Ходжи Мансурова) и расписаний уроков это была в сущности та же старая школа. В компенсацию за исповедывание нами учения о шарообразности земли - мы весьма усердно, - куда усерднее чем в старых школах, посещали мечеть хором распевали религиозные гимны („салаваты"). В периоды, когда усиливались преследования гонения на нашу школу (один раз ее даже закрыли, но затем снова разрешили с нас однако давлением, чтобы ее открыли на краине города) мы громко на всю улицу и хором пели „царские гимны", чего не было в старых школах. В такой атмосфере и в такой школе протекли мои первые ученические годы (1900-01-02 г.г.).

Затем я поступил в Кокандское Русско-туземное Училище, которое окончил приблизительно в 1905 году. Из этого же училища тогу я перешел в Коканд 3-классное Коммерческое Училище, образованное по инициативе местного русского купечества и торговых фирм. Руководителями (директор Училища тогда Е.В. Корганцеров из „Москвы" из Коканда) и учители оказались, как мне помнится вполне...

развития революционного движения тех годов. (Так например, [illegible] [illegible]. [illegible] боевой организации П.С.Р. [illegible] [illegible] через [illegible] - в начале 06 года, арестован и приговорен к каторжным работам, другой приговорен к расстрелу и т.д.). Их обращение [illegible] [illegible] с [illegible], [illegible] [illegible] их арестов и пр., сочувствие и [illegible] при [illegible] [illegible] войск, частей с [illegible] [illegible] было [illegible] в это время [illegible] [illegible] первое [illegible] [illegible]

К тому же времени относится [illegible] [illegible] Сулеймановская общественность (1906 г.) в форме кружков мусульман, задавшихся целью распространять среди населения идеи джадидской школы. Первый такой кружок в Коканде был образован главным образом теми, кто [illegible] ранее джадидскую школу и в [illegible] составе первого выпуска которой был и я.

Последние кружки являлись мусульманскими [illegible] джадидских центров и представителями либеральной мусульманской буржуазии. Кружки [illegible] [illegible], оказывали весьма существенную [illegible] поддержку [illegible] [illegible] школам. В этой атмосфере „общественных интересов" началось складывание в определенные формы наших первых [illegible] сил, [illegible]

не отрицали. Многие члены этого кружка позже стали членами К.П.Т. (Мир-Ахмед и др.)

[illegible], [illegible] [illegible]. [illegible] в [illegible] учителями и [illegible] [illegible] более умеренными (например, директором [illegible] [illegible] [illegible] Казанского [illegible] [illegible] [illegible] от Ташкента) особых перемен в внутреннем школьном режиме не вызвали. Некоторое время спустя в городе [illegible] [illegible] квартиры образова кружок учеников (Ученики) под руководством К. П. Мандальского — члена Р.С.-Д.Р.П.; который первый ознакомил нас с историей французской революции и русского революционного движения.

В этом кружке состоял нынешний член К.П. бывший [illegible] Комиссары Земледелия Туркестанской Республики тов. [illegible].

И единственным препятствием, которое [illegible] внутренне не мог воспринять учение руководителя кружка Мандальского, было его [illegible], проявляемое им в время Балканской войны. С другой стороны в [illegible] Туркестана в те годы усиленно [illegible] и [illegible] пантюркизма и турецкий шовинизм, который также отталкивал своим [illegible] фанатичного [illegible]. В те годы моя идеология не могла воспринять точно отчеканенные формы, и я „блуждал"

в поисках общественно-политического
пути между „старыми“ и „новыми“
народами“.

Все — принадлежность к туркменскому
народу, развитие дифференциации туркменского
буржуазного общества, окружающая
среда с её национально-... ...
кружковое воспитание под руководством
социалистов и т.д., а ~~...~~
затем Киргизский бунт 1916 года, империалистическая
война 1914 года — все это вторично, несомненно,
для того, чтобы развилось народническое
мировоззрение.

Совместно с туркменами в 1916 году ...
меня на работу по оказанию помощи
рабочим туркменам, мобилизованным на
тыловые работы. До конца демобилизации
этих рабочих я пребывал в Смоленске.
(Комитет Западн. фронта — Минский район
...) ...
... и ... ...
в Минске ... „...“
(... ...) ...
... ...
... на ... и ...
... ...
... 1917 года)

Тюрякулов

[illegible] [illegible] [illegible] меня в отпуск
Туркестанской области в качестве
инструктора по [illegible] [illegible] среди
Киргизского населения Закаспия. Там на
выборах я потерпел поражение от
Киргизской группы консервативной ориентации
захвативших [illegible] на все [illegible] [illegible]
противодействовал [illegible] в свои руки.
Возвратившись в Коканд стал работать в
[illegible] Совета Раб. и Солд. Деп. (18?) в
качестве секретаря от Н. [illegible] [illegible] [illegible]. С
которым официально я вошел в средине
[illegible] весною 1918 г. Здесь начинается моя совмест[illegible]
с другими [illegible] групповая борьба с известными
(Славковым / Пронцевичем, [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] Совет от „Дашнакцутюн" [illegible] [illegible]
[illegible] [illegible] Начальника Комм. Тур. [illegible]
[illegible] / и его приспешники и также [illegible]
[illegible] [illegible] по городам Ферганы.
В дальнейшем периоде моя жизнь и работа
вполне известно членам Комиссии, знаком[illegible]
с политическим [illegible] Туркестана со врем[illegible]
[illegible] Советов (Кобозевщина и Казаковщ[illegible]
и др.). 10 марта 1922 года. [illegible]
Н. Тюрякулов.

С. С. С. Р

ЛИЧНЫЙ ЛИСТОК

ОТВЕТСТВЕННОГО РАБОТНИКА

Народного Комиссариата по Иностранным Делам.

Город *Москва* губерния, область . . уезд, округ .

Учреждение *Наркоминдел* Должность *Генер. Консул СССР в Геджасе*

А.

ВОПРОСЫ	ОТВЕТЫ
1. Фамилия, имя, отчество и псевдоним (для имеющих, также и прежнюю фамилию)	*Тюрякулов Назир Тюрякулович*
2. Время (число, месяц и год) и место рождения	*1892 г.*
3. Национальность	*Казах*
4. а) Были ли русским подданным до 1917 г.	*Да*
б) Состоите ли теперь в подданстве СССР	*Да*
5. Родной язык	*узбекский*
6. а) Какие иностранные языки знаете (говорите, читаете, пишете, литературно владеете)	~~*русский*~~ *татарский, немецкий и узбекский*
б) Где, когда и на каких должностях приходилось вести работу на иностранных языках и сколько времени	*не приходилось*
7. Какие местности СССР хорошо знаете по работе	*Средн. Азия*
8. Были ли за границей, когда, где, как долго, чем там занимались, когда вернулись и почему.	*не был*
9. Точно указать сословие или происхождение до революции (из крестьян, мещан, рабочих, духов., дворян, почетн. гражд., дух. звания, военного сословия и т. д.)	*из крестьян (кочевников)*
10. а) Основная профессия.	*журналист, лектор*
б) Как долго, с какого времени стали заниматься, когда перестали заниматься	*с 1916 г. Занимаюсь с перерывами*

بيان السفير نذير تيورياقولوف في وزارة الخارجية في الاتحاد السوفيتي

ВОПРОСЫ	ОТВЕТЫ
11. Семейное положение (холост, женат, вдов). а) Перечислить членов семьи и живущих на иждивении с точным указанием имени, отчества, фамилии, возраста, общественного положения и их точный адрес, как в России, так и за границей. б) Перечислить членов семьи и ближайших родственников, не живущих на иждивении, с точным указанием имени, отчества и фамилии, возраста, общественного положения и адреса (отца, матери, сестер, мужа, жены и т. д.) как в России, так и за границей	Женат. 1/ жена Нина Александровна Ловашова-Тюрякулова - 32 л. студентка Медиц. фак. II М.Г.У. 2/ Марьям Тюрякулова - 27 л. студентка мед. ф. II МГУ 3/ дочь Аиша Тюрякулова - 3½ года 4/ брат Кадыр Тюрякулов - 27 л. - сов. работник (не на моем иждивении) г. Коканд
12. Образование (точно перечислить все учебные заведения, где Вы учились, с указанием области пройденного Вами в них курса и времени пребывания в них. Если не окончили полного курса, то почему) а) Общее б) Специальное	1/ Начальная мусульманск. школа 1.3 г. 2/ Русско-туземное училище - 3 года 3/ 8 классн. Коммерческ. Училище - 8 лет 4/ 3 курса Московск. Коммерч. Инст-та
13. Служили ли в армии (какой, когда, род оружия, чин, звание, должность и т. д., участие в военных действиях когда эвакуированы)	в Красн. Армии — в царской не служил
14. Часть войск, последний бывший чин и занимаемая должность в старой армии	чл. Реввоенсовета Туркфронта
15. Служили ли в красной армии, когда, где и на каких должностях	в Туркестане политработником
16. Ваше отношение к воинской обязанности в настоящее время а) когда и где приняты на учет (какого призыва или класса) б) № учетного документа	Как советский гражданин не подлежу(?) отбыванию воинск. повинн. (по до-револ. традиции)
17. К какой партии принадлежите и с какого времени	чл. ВКПб с 1918 г.
18. К каким партиям принадлежали в прошлом (с какого времени, какой организации, когда выбыли)	в партии левых эсеров
19. Ваше участие в революционной и общественной работе и в чем оно выражалось а) до 1917 года б) после 1917 года	до 1917 г. в национ. револ. организац. Средн. Азии — после 1917 г. в рядах ВКПб.
20. Привлекались ли к суду (когда, за что, чем приговор)	нет
21. а) Состояние Вашего здоровья б) Физические недостатки	здоров
22. а) Когда впервые стали членом Профсоюза (какого) б) членом какого Союза и с каких пор состоите, № членского билета	чл. Союза Рабпрос
23. Не состоите ли в настоящее время на какой либо другой службе, по какой именно, где получаете денежное содержание	нет

تابع البيان السابق

ВОПРОСЫ.	ОТВЕТЫ.
24. С какого времени работаете в НКИД	с начала 1928 г.

Б.

25. Ваша работа в НКИД (не менее 6-ти месячного стажа) в [illegible]

Дата	Где	Должность	Кем назначен
с ... по			
с ... по			
с ... по			
с ... по			
с ... по			

26 а) Имеются ли труды по вопросам НКИД (рукописные или напечатанные работы, название, где, когда помещены)	—
б) Писали ли по вопросам НКИД в периодической печати, где, когда	[illegible] в период. прессе [illegible] на [illegible] 10 [illegible].
27. Участвовали ли в съездах, конференциях, по вопросам НКИД (когда, где, кем были делегированы)	нет.
28. В какой отрасли НКИД считали бы свое использование наиболее целесообразным	Бл. Восток и Ср. Восток

В.

29. Ваша основная работа до 1917 года

Дата	Где	Госуд., проф., парт. учрежд. и частное учреждение, предприятие	Должность	По выборам или назначению
с 1915 по 1917 г.	[illegible]	в Земск. Союзе	[illegible]	по [illegible]
с 1917 по 1918 г.	[illegible]	[illegible]	[illegible]	по выбору
с 1918 по 1928 г.	Сред. Азия [illegible]	[illegible] отв. парт. и сов. [illegible]	—	по выбору и по назначению
с ... по				
с ... по				

30. Ваша остальная работа после 1917 года

Дата	Где	Госуд., проф., парт. учрежд. и частное учреждение, предприятие	Должность	По выборам или назначению
с ... по				
с ... по				
с ... по				
с ... по				
с ... по				

31. Местожительство (почтовый адрес и № телеф.):

„10“ Июня 1928 г. Подпись Н. [illegible]

Примечание: На все вопросы надлежит давать полные — исчерпывающие — ответы или нет, прочерки не допускаются. [illegible] подлежит установленной законом [illegible] мандатом [illegible] § 10 [illegible]

تابع البيان السابق

ОБ"ЯСНИТЕЛЬНАЯ ЗАПИСКА.

П4/06 №156 л1

Полпред СССР в Геджасе тов.ХАКИМОВ давно просит освободить его и вернуть в СССР. Он там работает с 1924 г., заболел и находится в отпуску, и с июля этого года Полпредство фактически лишено руководящего работника.

НКИД выдвигает в Геджас тов.ТЮРЯКУЛОВА, хорошо знакомого с мусульманским миром и, по мнению НКИД, подготовленного к этой работе.

Тюрякулов, член партии с 1918 г. бывший секретарь ЦК Туркестана, в настоящее время Зав.Центроиздатом.

Вопрос об его освобождении от этой работы согласован с Отделом Печати ЦК и ЦИК СССР /т.Енукидзе/.

Орграспред ЦК считает возможным утвердить предложение НКИД.

ЗАМЗАВ ОРГРАСПРЕДОМ ЦК: /МАРЬЯСИН/

بيان أسباب ترشيح السفير نذير لمنصب مندوب مفوض للاتحاد السوفيتي في الحجاز



Совершенно секретно.
16-го ноября 1927 года.

Тов. СТАЛИНУ,
Генеральному Секретарю ЦК ВКП/б/

Копия: Членам Политбюро
Членам Коллегии НКИД
т.Менжинскому.

Уважаемый Товарищ,

Прошло более года с тех пор, как т.Чичериным был возбужден перед Центральным Комитетом вопрос о назначении нового Полпреда в Геджас, вместо т.Хакимова, который, проработав в тяжелых климатических условиях Геджаса около 3-х лет, поднял вопрос о своем отозвании из Геджаса. Коллегия НКИД наметила в Геджас кандидатуру тов. Тюракулова, являющегося одним из крупных знатоков мусульманского мира и мусульманства и вполне приспособленного к проведению той сложной и тонкой политики, которая требуется от наших представителей в Геджасе. Тов.Тюракулов сам неоднократно выражал свое желание принять этот пост, который дает возможность обозревать весь мусульманский мир от Марокко до Индонезии. К сожалению, оформление этого вопроса крайне затянулось и только недавно Учраспред ЦК сообщил нам что не представляется возможным освободить тов.Тюракулова от той работы, которую он ведет в Москве. В ожидании разрешения вопроса о тов.Тюракулове, нам пришлось задержать тов.Хакимова в Геджасе еще на несколько месяцев. Учитывая, однако, состояние здоровья тов.Хакимова, нам пришлось согласиться на предоставление ему отпуска для лечения и с июля этого года мы фактически лишены руководящего работника в нашем Представительстве в Геджасе. Временно заменяющий Полпреда Секретарь Представительства тов.Туймеков не в состоянии справиться с той сложной работой, которая, в настоящей обстановке английского нажима, падает на долю нашего единственного Представительства на арабском Востоке. Несмотря на все наши усилия мы до сего времени не смогли подыскать и выдвинуть руководящего работника для Геджаса. Предложенный Учраспредом тов.Шир Алиев, работавший на Северном Кавказе, несмотря на техническую подготовку и [illegible] /он хорошо знает арабский язык/ едва-ли сможет справиться с работой, которая требует предварительного и более глубокого знакомства с вопросами международных мусульманских отношений и английской политики 30

رسالة من نائب وزير الخارجية السيد قاراخان إلى جوزيف استالين رئيس الاتحاد السوفيتي

- 2 -

в Востоке. Затруднительность положения заключается в том, что мы имеем в Геджазе целый ряд вопросов, требующих быстрого и неотложного разрешения. Благодаря этому мы не можем назначать в Геджаз товарища, которому, как это имеет место [illegible] отношении тов.Алиева, нужно было бы длительно изучать положение на месте прежде чем приступить к практической работе. К тому же обстановка повсюду на Востоке и, в особенности, в Аравии такова, что возможны всякого рода неожиданности и провокации, которые могут поставить втупик и более подготовленных работников, чем тов.Алиев.

Поскольку всякого рода неудачи и ляпсусы в Геджазе неизбежно самым отрицательным образом будут отражаться на нашей восточной политике и влиять в смысле повышения престижа наших антагонистов, Наркоминдел просит Вас уделить этому вопросу внимание. Наиболее целесообразным выходом из создавшегося положения было бы срочное оформление кандидатуры тов.Туракулова о том, чтобы последний без замедления мог выехать в Геджаз. Тов.Алиев мог бы быть использован нами для работы по линии Геджаза, но только после некоторого предварительного стажа в качестве Советника Полпредства.

Последние сообщения из Геджаза говорят о том, что отсутствие руководящего работника в нашем Полпредстве отрицательно отзывается на нашем положении в Геджазе. Одновременно мы замечаем усиление английского нажима в Геджазе, что значительно усложняет работу нашего Полпредства и может привести к нежелательным неожиданностям. Все это говорит за необходимость скорейшего разрешения вопроса о новом Полпреде для Геджаза.

ЗАМНАРКОМИНДЕЛ /Карахан/

تابع لرسالة نائب الوزير

ПРОТОКОЛ № 137

ЗАСЕДАНИЯ ПОЛИТБЮРО ЦК ВКП(б) ОТ 24-ГО НОЯБРЯ 1927 ГОДА.

ПРИСУТСТВОВАЛИ:

Члены ПБ ЦК ВКП: т.т.Ворошилов, Рудзутак, Рыков, Томский.

Канд.в члены ПБ: тов.Андреев.

Члены Ц.К.В.К.П: т.т.Косиор Ст., Сокольников, Степанов-Скворцов, Цюрупа.

Член През. ЦКК: тов.Янсон.

Слушали:	Постановили:
1.- О Внешней Монголии. (ПБ от 17.XI.27 г., пр.№ 136, п.6).	1.- Отложить по просьбе т.Чичерина.
2.- О полпреде в Италии. (ОБ от 21.XI.27 г., пр.№ 156, п.12-г).	2.- Отложить.
3.- О полпреде в Геджас. (ОБ от 22.XI.27 г., пр.№ 156, п.14-г).	3.- Назначить полпредом в Геджас т.Тюрякулова.
4.- О поездке в Америку. (ПБ от 17.XI.27 г., пр.№ 136, п.2-б).	4.- Отложить.
5.- О контрольных цифрах на [illegible] г. (ПБ от 3.XI.27 г., пр.№ 133, п.1.).	5.- Назначить в понедельник, 28.XI с.г., в 12 час. дня специальное заседание Политбюро для обсуждения предложений в связи с контрольными цифрами на [illegible] г.
6.- О размерах [illegible] в первом квартале. (ПБ от 17.XI.27 г., пр.№ 136, п.9). (т.Ворошилов).	6.- Передать вопрос на окончательное разрешение комиссии в составе т.т.[illegible], Рудзутака и Ворошилова.

بروتوكول رقم ١٣٧ بتاريخ ١٩٢٧/١١/٢٤م
لجلسة سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وفيه قرار تعيين السفير نذير
تيورياقولوف مندوبا مفوضا في الحجاز

П Р О Т О К О Л № 156

ЗАСЕДАНИЯ СЕКРЕТАРИАТА ЦК ВКП(б) от 15/XI - 18/XII-1927 года.

ВОПРОСЫ, РЕШЕННЫЕ ОПРОСОМ ЧЛЕНОВ СЕКРЕТАРИАТА ЦК ВКП(б).

Слушали:	Постановили:
22/XI-27 г.	
13.- О секретаре Комиссии ПБ по американским делам. (Пост. ПБ от 14/XI-27 г., пр.154, п.16-а).	13.- Во изменение постановления ПБ от 14/XI-27 г. зачислить секретаря Американской Комиссии ПБ в штат ЦК ВКП(б).
14.- Просьбу НКИД об утверждении тов. Тюрякулова полпредом СССР в Геджас. (Пост. Сек-та ЦК от 22/XI-27 г., пр.157). (т. [illegible]).	14.- а) Утвердить тов. Тюрякулова полпредом СССР в Геджасе. б) Вопрос внести на утверждение Политбюро.
15.- О редакционной комиссии по подготовке к XV съезду. (т. Крининкий).	15.- Утвердить редакционную комиссию в следующем составе: т.т. Крининкий (председ.), Гусев, Рошаль, Твеcтуха, Халатов, Ульянова М.И., Бердников.
16.- [illegible] тов. Козлове Н.Н. (т. [illegible]).	16.- Освободить т. Козлова Н.Н. от работы ответ. инструктора ЦК ВКП(б).
[illegible]/XI-27 г.	
17.- [illegible] (Пост. Сек-та ЦК от 16/XI-27 г., пр.15[illegible], п.[illegible]). (т. [illegible]).	17.- Утвердить. (См. приложение № 1).
18.- [illegible] на командирование комиссии [illegible] Югославии и Дании [illegible] т.т. Теплякова А.Я. и Ра[illegible] С.И. (т. [illegible]).	18.- а) Не возражать. б) Вопрос внести на утверждение Политбюро.

بروتوكول رقم ١٥٦ بتاريخ ١٥/١١/-١٨/١٢/١٩٢٧م
لجلسة سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي وفيه المصادقة على تعيين السفير نذير تيورياقولوف مندوبا مفوضا في الحجاز

П Р О Т О К О Л № 57

ЗАСЕДАНИЯ СЕКРЕТАРИАТА ЦК ВКП(б) от 16/XI - 18/XII-1927 г.

ВОПРОСЫ, РЕШЕННЫЕ ОПРОСОМ СЕКРЕТАРЕЙ ЦК ВКП(б)

С л у ш а л и:	П о с т а н о в и л и:
18/XI-27 г.	
1.- Просьбу Севзапбюро ЦК о командировании тов. Гайдвы на 1-ый областной съезд советов Севзапобласти 21/XI-27 г.	1.- Просьбу удовлетворить.
22/XI-27 г.	
2.- Просьбу НКИД об утверждении тов. Туракулова полпредом [redacted]ее. (т.т. Москвин, Карьякин).	2.- а) Утвердить тов. Туракулова полпредом СССР в Хиджасе. б) Освободить тов. Туракулова от работы председателя Центроиздата. в) Пункт "а" внести на утверждение Оргбюро и Политбюро.
3.- Просьбу фракции ВЦСПС санкционировать созыв съезда союза кожевников на 15/XII-27 г. (т.т. Москвин, Вельмокин).	3.- а) Удовлетворить. б) Для руководства съездом утвердить партkомиссию в составе т.т. Космора (председ.), Догадова и Егора.
4.- Просьбу ЦК ВЛКСМ об отзыве инструктора Смоленского Губкома т. Спицына Г.Г. (быв. секретарь Смоленского ГКЖОМ) для работы в ВЛКСМ. (т. Малкин).	4.- Отозвать из Смоленского Губкома ВКП(б) тов. Спицына Г.Г. для работы в ВЛКСМ.
28/XI-27 г.	
5.- Просьбу тов. Антонова-Овсеенко об оставлении в его распоряжении в качестве атташе гр. Якобсона на срок 3-4 месяца. (т.т. Москвин, Карьякин).	5.- О т к л о н и т ь.
28/XI-27 г.	
6.- О заседании Секретариата ...	6.- О т м е н и т ь.

بروتوكول رقم ١٥٧ بتاريخ ١٦-١٨/١٢/١٩٢٧م
لجلسة سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي بخصوص استقالة السفير نذير تيورياقولوف من عمله السابق وتعينه مندوبا مفوضا في الحجاز

قائمة بالمواد الأرشيفية

- السيرة الذاتية لنذير تيورياقولوف بخط يده، بتاريخ ١٠ مارس ١٩٢٢م.

- مذكرة توضيحية كتبها مارياسين نائب رئيس إدارة التوزيع باللجنة المركزية.

- رسالة بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٩٢٧م موجهة من كاراخان نائب رئيس اللجنة الشعبية للشئون الخارجية إلى يوسف ستالين الأمين العام للجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي تتضمن توصية بتعيين نذير تيورياقولوف «مندوبا مفوضا في الحجاز».

- قرار هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٢٧م.

- المحضر رقم ١٥٦ لجلسة المكتب التنظيمي للجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، ١٥ نوفمبر- ١٨ ديسمبر ١٩٢٧م.

- المحضر رقم ١٥٧ لجلسة أمانة اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، ١٨ نوفمبر- ١٨ ديسمبر ١٩٢٧م.

- المحضر رقم ١٣٧ لجلسة المكتب السياسي اللجنة المركزية لحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، بتاريخ ٢٤ نوفمبر ١٩٢٧م.

- استمارة بيانات شخصية خاصة بالموظفين المسئولين باللجنة الشعبية للشئون الخارجية (استمارة بيانات تيورياقولوف).

- نص الكلمة التي ألقاها الرفيق تيورياقولوف خلال تسليمه أوراق اعتماده في الثالث من أكتوبر عام ١٩٢٨م.

- رسالة بتاريخ ٢٦ جمادى الثانية ١٣٤٧هـ من الملك آل سعود إلى رئيس هيئة رئاسة اللجنة التنفيذية المركزية بمناسبة وصول نذير تيورياقولوف الوكيل الدبلوماسي والقنصل العام إلى جدة (مع ترجمتها إلى اللغة الروسية).

- تسليم تيورياقولوف أوراق اعتماده كوزير مفوض.

- نص كلمتي تيورياقولوف والأمير فيصل (من صحيفة «أم القرى» عدد ٢٧ فبراير ١٩٣٠م).

- رسالة بتاريخ ١٠ مارس ١٩٣٠م من الملك آل سعود إلى ميخائيل كالينين رئيس هيئة الرئاسة باللجنة التنفيذية المركزية بمناسبة تعيين تيورياقولوف مبعوثا فوق العادة ووزيرا مفوضا للاتحاد السوفيتي (مع ترجمتها إلى اللغة الروسية).

- محضر جلسة هيئة الرئاسة باللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي رقم ٣١ بتاريخ ٣ يناير ١٩٣٦م.

- رسالة بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٣٥٤هـ من الملك آل سعود إلى رئيس هيئة الرئاسة باللجنة التنفيذية المركزية للاتحاد السوفيتي يعرب فيها عن ارتياحه لنشاط نذير تيورياقولوف خلال عمله كمندوب مفوض للاتحاد السوفيتي لدى المملكة العربية السعودية.

- استمارة تسجيل عضوية بحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي (استمارة بيانات العضوية الخاصة بتيورياقولوف) بتاريخ ١٥ أبريل ١٩٣٦م.

- استمارة تسجيل عضوية بحزب البلاشفة الشيوعي السوفيتي، عام ١٩٣٦م.

- إذن رقم ٢٨٩١ بتاريخ ١٥ يوليو ١٩٣٧م.

- استمارة معتقل بالقضية رقم ١٠٥٨١

- الحكم الصادر بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٣٧م.

- قرار الهيئة العسكرية بالمحكمة العليا لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية رقم ٤ن-٠٧٤٣٠/٥٧

المراجع

١- مراجع باللغة الروسية:

- فاسيليف ا.م. تاريخ العربية السعودية (١٧٤٥- ١٩٨٢). موسكو، ١٩٨٢م.

- فاسيليف ا.م. فوبليكوف د.ر. المملكة العربية السعودية. بحث نشر بمجلة «التاريخ المعاصر لدول آسيا». موسكو. ١٩٨٥م.

- كاربوف ف. القائد العام. موسكو، ٢٠٠٢م.

- لورنس العرب. أقطاب الحكمة السبع (مترجم عن الإنجليزية). سان بطرسبرغ،٢٠٠١م.

- منصوروف ط. ملحمة السفير نذير تيورياقولوف في الجزيرة العربية. موسكو،٢٠٠١م.

- نذير تيورياقولوف مندوب الاتحاد السوفيتي المفوض في المملكة العربية السعودية. موسكو. ٢٠٠٠م.

- تروتسكي ل. الدبلوماسيون على أعتاب المحاكمة. بحث نشر بدورية «بوليتين أوبوزيتسي»، عدد ٦٨-٦٩، يوليو ١٩٣٨م.

- «الثورة الوفية» اليوم. مقالة ملحقة بكتاب ل. تروتسكي «الثورة الوفية». موسكو، ١٩٩٢م.

- تشويف ف.ي. مولوتوف: السلطان شبه الجبار. موسكو، ٢٠٠٢م.

٢- مراجع باللغة الإنجليزية:

Lawrence B.B. Defenders of God: The Fundamentalist Revolt against the Modern Age. Harper & Row Publishers, San Francisco, 1989.

Hempher M. Confession by a British spy. Istanbul.1992.

Lewis B. Islam and the West. New York - Oxford, Oxford University Press, 1993.

Pipes D. The Long Shadow. Culture and Politics in the Middle East. London, a Foreign Policy Research Institute Book, 1989.

Philby H. St. J. B. Arabia. New York, C. Scribner's Sons, 1930.

Philby H. St. J. B. Arabian days, an autobiography. London, R. Hale, 1948.

الفهرس



WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net